دراسات

الفجوة الرقمية ورهانات التنمية وقراءة سوسيولوجية في النموذج التونسي

منذر عافي*

تعتبر الإعلاميّة بما هي تقنية جديدة تطبيقا للعلوم الأساسيّة في الإنتاج(1) والتنظيم. ويجري في تونس على ضوء هذه المستجدات وفي إطار قطري تطوير البرامج الإعلاميّة وربطها بالتقدم العلمي للاستجابة لحاجيات المجتمع الراهنة والمستقبليّة.

كما يشهد المجتمع التونسي محاولات عقلنة مجالات الإنتاج ومسالك التوزيع والمعاملات الإقتصادية والتبادليّة داخل المؤسسات(2). ومن أجل فهم هذه الأبعاد الدقيقة [illegible] بالمعلوماتيّة يجب أن ننطلق من المعلومات بما هي حقيقة ماثلة أي بما هي نشاط مجموعة الأنظمة والخلايا الإلكترونيّة التي تشكل السيرورة التي من خلالها نحصل على المعارف من العالم الخارجي.

لقد ساعدت تقانة الإعلامية على خلق إمكانات مادية حقيقية لتطوير التجربة الفرديّة والخبرة، بعد أن صار التعامل مع الإعلاميّة والتفاعل الإيجابي معها وتحديد ضوابط استعمالها يمثل الخيارات الوحيدة والممكنة التي ستسهم في بناء منظومة مجتمعية وحضاريّة جديدة وتدفع إلى الانخراط بتوازن في النظام العالمي الجديد. وتعيد الإعلاميّة على المستوى الإقتصادي تعريف عناصر قوة الدولة وتفتح مجالات جديدة للتنافس مع الدول الصناعيّة المنتجة للحواسيب مثل اليابان والولايات المتحدة الأمريكيّة ودول شرق آسيا (3) وهي قادرة على إيجاد طرق أفضل للتنمية والزيادة من ثرواتها باعتبار قدرتها على استعمال نظم المعلومات التي تؤدي إلى إنتاج تلك المواد التنموية.

عند تناولنا مسألة التنمية في تونس لا بد من الانطلاق من فكرة أن البناء الإقتصادي للمجتمع لا يمكن أن يحقق نقلة نوعية نحو التقدم دون مخططات مسبقة مستندة إلى مؤشرات علمية لتحديد مايمكن القيام به في عمليّة التنمية بصفة واقعيّة لا سيما وأن التنمية ليست شيئا يستورد كما تستورد التقانة. وهي لا تعني التقدم التقاني فقط إذ أن هذه الأبنية التنمويّة يجب أن تمر بمجموعة معقدة من المراحل المتعاقبة. ومن الجلي أن التنمية في تونس حددتها عوامل عديدة يتعلق بعضها بمدى توافر الموارد الطبيعيّة وتطور الصناعة والزراعة إضافة إلى وجود الأيادي العاملة المختصة (4) والقادرة على إنتاج وتحسين الثروات الماديّة مثل [illegible] المصنعة والموارد الطبيعيّة والخدمات [illegible].

وسنعنى بدراسة اوجه [illegible] والتبعيّة بين المعلوماتيّة والتنمية إذ في ضوء هذا التشابك يمكن للتنمية أن تنطلق من مجموعة من العوامل المناخيّة والجغرافيّة والديمغرافيّة. غير أن ما يجدر التنبيه إليه هو أن تقانة الإعلاميّة وإن

(*) جامعي، مكلّف بمأموريّة بديوان وزير التربية والتكوين.

ارتكزت على درجة تطور الإقتصاد وترقي المؤسسات فهي ترتكز أيضا على مواكبتها الأصيلة لمدى النضج الذهني للأفراد واستعدادهم.

إن جوهر التنمية البديلة في تونس أن ترضخ إليها الحاسوب بعد أن عمم نظام التصرف الإلكتروني في الإتصالات والمعطيات لا فقط في مستوى النصوص بل أيضا في مستوى الصور. وهذه الاستعمالات تؤكد أهمية العنصر الثقافي باعتبار أن الأثر الذي تبثه أثر ثقافي يحمل في طياته رسالة اقتصادية تتعلق أساسا بكون ذلك الأثر الثقافي يمر في إرساله عبر وسائط إلكترونية وشبكات وسيطة تصل ما بين الأطراف المختلفة للمؤسسات وتمكن من توفير وثائق ومستندات إلكترونية تلعب أدوارا تنموية وإجتماعية.

ويعتبر الترابط بين وسائل الإتصال المعلوماتي والإستراتيجيات التنموية أمرا مساعدا على مراكمة الثروة ومضاعفة الاستثمارات الإقتصادية وتقليص الهوة بين الدول الغنية والمصنعة وبين تونس في هذا المستوى خاصة وقد أضحى التخلف الإقتصادي يفسر بتخلف وضعف الموارد والبرمجيات الإعلامية، فتكون بذلك التنمية سكونية تحركها عوامل معيقة مثل إخفاق المخططات، وطغيان الارتجال والتسرع عند صياغة السيناريوات المحتملة للمخططين والسياسيين. وهذه العوامل دفعت إلى التفكير في صياغة تصورات دقيقة حول حالة المجتمع السياسية والإقتصادية والثقافية ومن ثمة يتم التفكير في الانخراط بصفة فعلية في مشروع الثورة الرقمية والارتباط بشبكات الاتصال الإلكتروني. مع العمل على استثمار نتائج البحوث التي تنجز في هذا المستوى من أجل تقديم البدائل الثقافية والإقتصادية لمشاريع التنمية التي كانت سائدة في المجتمع التونسي إلى حدود سنة 1986 تاريخ إنطلاق برنامج الإصلاح الهيكلي، ففي دراسة أنجزها الباحث الإقتصادي التونسي الشاذلي العياري يستنتج أن نجاح الخوصصة في تونس في الحاضر وفي المستقبل يتوقف على إيجاد مناخ اقتصادي واجتماعي عام ملائم وطنيا وإقليميا على المستوى الدولي. فالنجاح هنا لا يعني تكديس الأرباح من قبل المؤسسات المخوصصة فقط بل النجاح الحقيقي يكمن أساسا في قدرة المنشآت الخاصة على توفير السلع والخدمات المطلوبة بصفة مرضية كمّا وكيفا ونوعا وسعرا(5). وهي مرحلة ساعدت على الارتقاء بالتحليل الإجتماعي والإقتصادي في تونس من المستوى التجريدي إلى مستوى الواقع التجريبي.

ولقد اعتبرت المعلوماتية إضافة إلى كونها قادرة على شدّ أزر الأفراد ومساعدتهم على بيع وشراء المعلومات وخدماتها المختلفة إطارا إيديولوجيا يمكن من تعزيز هيمنة الدولة السياسية وترويج قيم المجتمع والإسهام في خلق " بيئة فكرية". كما ساهم تطور أبحاث علم الإجتماع التنموي في إبراز حاجة المجتمع التونسي إلى أسس ثقافية جديدة تسند مشاريعه التنموية وخياراته الاستراتيجية. ومما لا شك فيه أن الحواسيب تحتوي مثل هذه الأسس بما أنها سوف تساعد على إحكام التصرف في المعلومات الثقافية وستلعب بذلك دورا قياديا في الربط بين الثقافة والتنمية الإقتصادية والإجتماعية، بما يساعد على صياغة نماذج اجتماعية ونماذج إلكترونية تساعد جميعها على القيام بمهمّات أكثر ذكاء.

ولن يتم ذلك إلا عبر توظيف البرامج الإعلامية توظيفا جيدا ومزيد الإنفاق عليها. ويستوجب إنجاح مشروع رقمنة المجتمع الانسجام التامّ بين الدولة والمجتمع المدني والاتفاق على أساس معين للتطور يجمع بين التوازن الاقتصادي وزيادة فاعلية قطاعي الصناعة والفلاحة وتطوير المؤسسات الثقافية والإبداعية. وستصبح البنية الأساسية للمعلومات ذات استعمال كثيف اعتبارا إلى سهولة الحصول عليها.

أولوية الثقافي في مشروع الأعلمة :

ثمة ملاحظات مهمة صاغها الدكتور" عبد الوهاب بوحديبة" (6) يحسن التطرق إليها في سياقنا هذا، ومحصلها أن التنمية الاقتصادية والإجتماعية لن يكون لها معنى ولن تتحقق إذا غضضنا النظر عن المكونات الثقافية الخاصة بكل مجتمع أي إنجاز التنمية الثقافية. ويشير مفهوم التنمية الثقافية هنا إلى ثلاثة مستويات رئيسية :

* تأثير الثقافة في التنمية الإقتصادية والإجتماعية (7)

- الإجراءات الواجب اتخاذها في مستوى الفعل الثقافي من أجل الإسراع بعملية التنمية الاقتصادية والإجتماعية.

* الاستعمال الملائم للوسائل المادية خاصة تلك المتعلقة بالتنظيم والتصرف في وسائل الإعلام وتقانات

الاتصال وهي مهام شاقة وعسيرة نظرا إلى طبيعتها العلميّة الدقيقة.

وتفترض هذه العمليات أنماطا من السلوك يختصّ بها المجتمع ككل، وسلوكا فرديا في إطار من التجانس والإنسجام اللذين يساعدان على استيعاب الإعلاميّة. دون أن ننسى أن العالم اليوم قد دخل عصرا جديدا هو عصر المعلومات، إذ تتابعت الاكتشافات المذهلة في حقل وسائل الاتصال وشهدت السنوات الأخيرة تطور التلفاز الكابلي والاتصال باستخدام الأقمار الصناعيّة والكمبيوتر. ويمكننا اعتبارالإعلاميّة بخلاف كل الأجهزة الاتصاليّة التقليديّة الأخرى حقلا ثقافيا يتضمّن مفارقات عديديّة وتعددا في النماذج وهي - أي الإعلاميّة - تحتوي النسق الثقافي بما فيه المعلومات التي يمتلكها المجتمع، ورموز التواصل والتفاعل لدى أفراده. يعني ذلك أن الإعلاميّة تؤدي وظيفة مزدوجة فهي تجميع بين مخزون الذاكرة الجماعيّة والممارسة العمليّة، وهي مسألة ستمكن من صياغة توجيهات وتعليمات ذات فاعلية في سوق المعلومات الرمزي؛ تكون محكومة بضوابط علميّة دقيقة من أجل إحداث التغيير وصياغة الأهداف المجتمعية المطلوبة.

إن هذا التّحدي الذي تفرضه الإعلاميّة والتقانات الرقمية الجديدة لا يخص تونس فحسب وإنما يمتد ليشمل كل دول العالم الثالث. وليس هناك من وسيلة لمواجهة التراكمات التي تعرفها هذه الصناعة وإحداث تغيير نوعي إلا بالانطلاق من رؤية شموليّة تسمح بدراسة المجتمع التونسي وفهم مشاكله وتبصرّ مستقبله دون فصله عن محيطه الإفريقي والعربي والعالمي. وفي هذا الخضمّ المتداخل تتعدد الحقائق والسبل المؤدية إلى الإمساك بالخيط الموصل إلى المنجزات التقانية والسيطرة عليها.

مرحلة البناء والتأسيس:

تتطلب التحديات التنمويّة الجديدة في ضوء العولمة تأسيس وبناء شبكات معلوماتيّة تونسيّة [illegible] المعطيات والمعلومات المتصلة بجميع مسائل الحياة. والعمل على إتقان هذه [illegible] بعد أن أضحت الجودة قاسما مشتركا [illegible] على أساس المنافسة من أجل امتلاك منابع المعلومات، لأن المجالات المعلوماتيّة متشعبة ومتشابكة وتستدعي السعي نحو الأفضل.

ثمّة تقنيات معلوماتيّة باتت تنافس التقنيات التقليديّة في نقل المعلومات والإستجابة إلى احتياجات المستهلكين عن طريق المعالجة الإلكترونيّة المركزة للمعطيات وذلك رغم تعدد مصادرها وتباين رغبات الأفراد وتشعب طرق الاتصال ومسالكه (8) نظرا للدور المتعاظم للمعلوماتيّة في العالم وتعدد المبادرات التصنيعيّة.

وهو إطار تحاول تونس أن تلعب فيه أدوارا واضحة طبق غايات مضبوطة، ولقد غدت من مقررات السياسة التنموية بتونس في مجال الاستثمار المعلوماتي وتوريد التقانة ضرورة الاشتراك بين كل من القطاعين العام والخاص في تحمل عبء مصاريف التكلفة توريدا للآلة وترشيدا لطرق استخدامها. وكان لهذه المقررات أثر إيجابي بفضل تضافر الجهود الموزعة بين القطاع الحكومي والقطاع الخاص في تكديس الأجهزة وتضخم المخزون المعلوماتي ممّا تؤكده المخططات الإعلاميّة فيما تقدمه من أرقام متدرجة نحو الارتفاع. وهي ذات دلالات كبيرة على صعيد السياسة والثقافة والإقتصاد، إذ يمكن أن تساعدنا على اختراق مجالات الصناعات المتقدمة في المستقبل.

ويرتبط استعمال الإعلاميّة في تونس بآليات سياسيّة واقتصاديّة مختلفة تتماشى والرغبة في تحقيق التنمية والزيادة في الأرباح الإقتصاديّة، والتقليص من التبعيّة الإنتاجيّة. وهذا الأمر جعل دور الدولة أساسيا في مستوى انتشار الثقانة عبر توخي سبل تقوم على دراسة عميقة وضبط محكم للنقائص. ولقد توصلت بفضل هذا المجهود إلى إبرام مجموعة من الاتفاقيات للتبادل التجاري مع الشركات الدوليّة، مما أدى إلى تعاظم الإنفاق على الواردات وإعطاء امتيازات أكبر للمورّدين. تبدو هذه المسألة كمعطى أول ودقيق وغير قابل للاختزال يوافق الاستراتيجيات الأساسيّة الرامية إلى إصلاح الاختلالات الإقتصاديّة.

والواقع أن التطور في حجم الأجهزة المعلوماتيّة وإن اتّسم بالدقة في مستوى المخططات فإنه قد [illegible] بعض مظاهر الماشدة [illegible] في التعامل [illegible] أنها تعد في [illegible] التنمية سلعا استراتيجيّة إن هذه [illegible] جعلت دور الدولة كضامن للتنمية وكفاعل في أعلمة المجتمع بوضع موضع سؤال على ساحة الأحداث الوطنيّة لتكون الخصوصة هي الخيار الوحيد للتخفيف من حدّة الضغط على المؤسسات

الحكوميّة باعتبار أن ظروف الدولة تفرض اعتماد خطط جديدة تهمّ إعادة هيكلة المؤسسات ذات المساهمات العموميّة(9).

إن هذا الطرح يبرز السّعي إلى تحقيق أهداف آنية وأخرى مستقبلية. وبذلك تكون التنمية عمليّة تغيير اجتماعي يمسّ حاجات جميع الشرائح المجتمعية ويهدف إلى التعبئة وتوظيف كل عناصر الإنتاج مع مراعاة السرعة والدقة.

لذلك حدث تغيير في مستوى نقل المعلوماتيّة تمثل في وضع عدد من الضوابط و المقاييس التي تسمح للشركات بالمساهمة في تدفق الأعتدة والبرامج الإعلامية إلى تونس مع فرض رقابة جزئيّة على العمليّة، إضافة إلى تشجيع الدولة للاستثمار الأجنبي في ميدان البرمجيات والأجهزة حتى يصل المجتمع إلى الحدود القصوى في الإستفادة من المعلومات بعد أن أدى التعقيد المتزايد في مشكلاته إلى بروز المعلومات ذات أوجه الاستعمال المتعددة كحل ناجع لتجاوز الركود والتدليل على قيمة التقدم التقاني الذي يتراكم ببين يوم وآخر بشكل يجعل تونس مؤهلة للتقدم.

اختلال الإقتصاد وطرح البدائل المعلوماتيّة :

لقد وجد الإقتصاد التونسي نفسه أمام بديلين لا ثالث لهما :

* البديل الأول: إما أن تواصل الدولة السيطرة على الإقتصاد بهياكله المختلفة ومؤسساته وتساهم في تمويل مختلف المشاريع وفق استراتيجيّات تعطي للقطاع العام أهميّة كبيرة في التنمية. وهذا ما وقع فعلا، ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر أن أوضاع القطاع العام في تونس قد تدهورت بل كانت من بين مصادر الخلل والعجز وتراجع الإنتاجيّة التي اتصف بها الاقتصاد التونسي على امتداد حقبات متتالية. ورغم التقدم الإنمائي الذي كانت حققته البلاد منذ الستينات. فقد بلغت جملة التحويلات من ميزانيّة الدولة إلى المؤسسات العموميّة حسب تحليل الباحث الإقتصادي الشاذلي العيادي ما بين عامي1970 و 1988 نسبا عالية [illegible] سنة 1981و 2.12% سنة 1984 و 3.6% سنة 1988 [illegible] يتهددها [illegible] لا تتوفر [illegible] دراسات علميّة وحقلية مكثفة ودقيقة تهتم بقضايا المجتمع وواقعه بالمعنى السوسيولوجي من أجل تطوير الآليات الاقتصاديّة والاستفادة من النماذج التنمويّة العالميّة.

ولئن أفلحت تونس في بعض مساعيها الإنمائيّة فإنها لم تتوصل إلى إدراك الغايات الكبرى للتنمية وتلبية حاجات الأفراد المتزايدة. هذا إذا اعتبرنا أن أحد أهم الفروع التنمويّة مازال يحتاج إلى ترميم وهو فرع التقانة المعلوماتيّة. وهذا الغياب ترك في هياكل الإقتصاد التونسي فجوات هي بمثابة الانقطاعات في مستوى العمليّة الإنمائيّة. ويمكن أن تزداد الفجوات عمقا بعد أن ظهرت الحاجة محليا إلى وضع العديد من التنظيمات والبرامج المعلوماتيّة وتنظيم تبادل المعلومات داخليا وخارجيا.

*البديل الثاني : يقتضي هذا البديل مسايرة الشروط الاقتصاديّة التي تحكم العلاقات الدوليّة والقبول والرضى بضرورة تخلي الدولة عن بعض مهامها. بعد أن تعمق لديها الشعور بأن المؤسسات والهياكل التابعة للقطاع الخاص قد بلغت من النضج ما من شأنه أن يدر على المجتمع التونسي المنافع والمرابيح ويسهم في تجاوز المعوقات. وبديهيّ أن يحصل تكامل نسبي بين الهياكل الاقتصاديّة الحكوميّة والخاصة وتتحدد بذلك آلية جديدة للانتقال إلى اقتصاد السوق، ومن ثم تحصل زيادة نسبية في استيراد التقانة المعلوماتيّة. وهو أمر أعطته الدولة أفضليّة خاصة إذ بقدر ما تكون الرؤية واضحة تنفتح سبل تجاوز الأزمة وإيضاح الأدوار التي يمكن أن تمارس من أجل دعم التوجه التنموي.

وفق هذا التمشي، تم اتخاذ عدة إجراءات سياسيّة واقتصاديّة كان من أهمها إدخال إصلاحات هيكليّة على الإقتصاد التونسي وإعطاء دور متميز للقطاع الخاص في إنجاز المشاريع المعلوماتيّة. وبذلك صار القطاع الخاص قطاعا فاعلا في تمويل المؤسسات الإعلاميّة وبعثها. وقد قامت عديد الشركات بتوظيف نسب معينة من الإيرادات المالية لتوسيع الشبكات الإعلاميّة وتطويرها ونقل البرمجيات ودخول عصر الإنتاج السلعي المبرمج آليا ووحدات التشغيل الدقيقة القائمة على جذة السيليكون والإتصالات بواسطة البريد الإلكتروني والبريد الصوتي والفاكس والأنترنيت في مرحلة لاحقة. وتقود هذا الاتجاه رؤى عقلانية ذات طبيعة علمية.

إن تحقيق مثل هذه المنافع المذكورة أعلاه يستوجب [illegible] سوسيولوجيا واقتصاديا جديدا كما يعتمد على إيجاد قاعدة مادية متطورة [illegible] متينة.

إعادة توزيع الأدوار بين قطاعات الإنتاج:

وتبرز لنا الأرقام بجلاء أن توزيعا جديدا للأدوار يقع اليوم في تونس ومصدره كامن في التحولات التي يشهدها

الإقتصاد والمجتمع الشيء الذي أتاح للقطاع الخاص فرصة المشاركة في العمليّة التنموية والمساعدة على الدخول إلى عصر المعلومات. وهي مشاركة تكشف القناع عن النيّة في تحقيق درجة من الكفاية اللازمة في المستوى التقاني عبر منح الامتيازات وضبط القوانين المتعلقة بنظام التشجيع على الاستثمار في الخدمات الإعلاميّة. وبات من الممكن أن تتنافس الشركات التونسيّة مع مثيلاتها الأجنبيّة وأن تعمل على اقتناء منتجات جديدة وتطويرها مع الاستجابة النّاجعة لظروف السوق والحرص على تفادي الآثار السلبيّة للموارد الإعلاميّة على الاستقرار الإجتماعي وإدراك الأبعاد السياسيّة التي تحتويها العمليّة، إذ أن ضخ الإشارات المعلوماتيّة بشكل مكثف عن طريق منظومات الاتصالات بالأمواج الضوئيّة يمكن أن يؤدي إلى اضطرابات واختلالات كبيرة في الإقتصاد.

ورغم ذلك فقد استطاعت تونس أن تقطع أشواطا متقدمة في مضمار مساعدة المنشآت والشركات الوطنيّة على نقل التقانة ومارست في سبيل ذلك شتى التسهيلات القانونيّة والجبائيّة.

وتعتبر هذه التسهيلات عاملا رئيسيا يهدف إلى ضمان المشاركة في التنمية المعلوماتيّة وإتاحة الفرص أمام الفاعلين الإجتماعيين لكي يعملوا على هيكلة أعتدة الكمبيوتر والبرمجيات. ويترتب على ذلك أن الممارسات السياسيّة لا يمكن أن تتجاهل هذا التطلع الاستراتيجي الذي يطمح إلى تحويل المعلوماتيّة من تقانة "عجيبة" ليست في متناول الجميع إلى ظاهرة شعبيّة يتفاعل معها أفراد المجتمع بأشكال واسعة.

ومن المعروف أن تونس لا تعدّ من الدول المنتجة للمواد المعلوماتيّة وإنما تتعامل مع كبريات الشركات العالميّة التي نشأت فيها ما تسمى بالثورة الصناعيّة الثالثة داخل مجالات جغرافيّة محددة. ويبدو التفوق الأمريكي واضحا في مستوى هذه الصناعات فهي تسيطر على حوالي50% من رقم المعاملات العالمية وهذه السيطرة تتجلى في مستوى شركة International Busness Machinses IBM وميكروسوفت Microsoft وهي أهم الشركات التي تتعامل معها تونس بواسطة [illegible] متنوعة. وليس غريبا أن تخضع المعلوماتية إلى تسلسل هرمي تتحكم فيه أطراف محددة عبر مسارات متعددة.

ويمكن لنقل الإعلاميّة أن يتخذ أشكالا مختلفة أيضا، من قروض ومبادلات بين مؤسسات علمية وتجارية وصناعيّة، ممّا يساهم في تعزيز اتساع الأسواق التونسيّة وتكثيف التدفقات المالية والتقانيةوعولمة المشاريع المعلوماتيّة. فهذه العوامل مجتمعة. تشهد على تنوع مصادر المعلومات وتطور مؤسسات البحث وبنوك المعطيات والسعي إلى اعتماد بنية علمية يتم من خلالها ترشيد وتنسيق الجهد المعلوماتي ومواكبة التقدم السريع في هذا الميدان وتعمل على نقل كميات كبيرة من المعلومات ووضعها في متناول جميع الأفراد.

والواقع أن الحاسوب الإلكتروني أضحى يوظّف لفائدة مشاريع وأعمال مختلفة ولذلك تتحدد هذه الأجهزة بأحجامها وقابليتها والمبالغ المالية التي تدفع من أجل اقتنائها إضافة إلى ما تتوفر عليه من إمكانيات كبيرة في المساهمة في تبادل المعلومات بين بنوك المعطيات وشبكات التخزين. لا يكفي وجود طلب داخلي على الحواسيب لجعل الأنظمة الاقتصاديّة والإجتماعيّة بتونس قادرة على الاشتغال الجيّد. ولكن ثمة محدّدات أخرى ترتبط بالنجاعة والفاعليّة وتساهم عمليا في خلق النمط التطوري للمجتمع وتوليد طلبات إضافيّة كما تضع الفاعلين موضع الاستعداد والتحفز للمشاركة في التجديد والإبداع. وهي ليست عملية بسيطة بما أنها تبدأ مباشرة في داخل كل وحدة أو هيكل اجتماعي وتساهم بالتالي في تنمية المتغيرات التّقانية والإجتماعيّة والمالية والسياسيّة والبيئيّة.

إلا أن الاحتكار الغربي والأمريكي على وجه الخصوص للانتاج المعلوماتي من شأنه أن يعيق جزئيّا كل محاولة للتطور المحلي في معظم البلدان السائرة في طريق النمو. حتى أن إشكالية التحكم في هذه التقانة وامتلاكها قد أضحت تمثل بالنسبة للنخب السياسيّة والإقتصاديّة في تونس تحديا لا بد من رفعة من أجل المحافظة على نسق تنموي متوازن، باعتبار أن المعلوماتية بما هي نتاج إلكتروني متطور ستساعدها على [illegible] في

وهو [illegible]

للتنمية هي ليست نتاجا للصدفة. ويمكن [illegible] البدائل عبر توضيح مستويين افتراضيين:

* **المستوى الأول:** يمكن تطوير التقليد التعاقدي بين مختلف الفئات والهياكل في المجتمع التونسي وفق

منطلقات قابلة للتحليل. فتساهم بذلك في زيادة كفاءة شبكات الاتصالات ودمج خدمات الحاسوب مع بعضها من أجل تحقيق غايات المجتمع التي أضحت واحدة رغم التباينات الظاهرة بين الفاعلين الإجتماعيين.

ويمكن الإشارة إلى تباين رهاناتهم ومصالحهم في الحقل الاجتماعي الذي تهيمن عليه مقولة السوق. وهي مقولة لا تستدعي بالضرورة وجود فضاء باعتبارأن الاتصالات تتم عبر الشبكات العنكبوتية وشبكات التبادل الرمزي المتعددة الوسائط والتي تساهم في إعادة هيكلة التنظيم الإجتماعي وضمان التوازن بين الفئات الإجتماعية.

*- **المستوى الثاني**: يمكننا ربط الحركية المجتمعية التي بدأت تتشكل في تونس بوضوح مع ديناميكية البرمجيات وأنظمة التشغيل العالمية وتطوير قدرة المجتمع على الانتظام حتى يمكن الأفراد من التخلص من القيود التقليدية(10) والمساهمة في توجيه طاقة الإنجاز الخام الكامنة في أعتدة الكمبيوتر من أجل نهايات تنموية. بمعنى أن الإستثمار الجيد للمعلومات المخزنة والوافدة لا يكون إلاّ وفق ترابط منطقي بين الشبكات والقدرة على التوظيف العقلاني للأجهزة والإستفادة من فائض القيمة الحاصل نتيجة ذلك التوظيف. وسيغدو توزيع الموارد على المشروعات الإقتصادية أكثر تعقيدا والسبب في ذلك هو إمكانية وضع الفاعلين الإجتماعيين موضع اللامبالاة بحكم عدم إدراكهم لقيمة الخيارات المتنوعة التي تطرح أمامهم.

والملاحظ أن المؤسسات التونسية سواء كانت عمومية أو خاصة تلجأ إلى الإعلامية التي أثبتت مع مرور الوقت نجاعتها وسرعة أدائها وهي تقتني الأجهزة عبر قنوات التجارة الخارجية ويعتبر الطلب المحلي دالا على مستوى النشاط التقاني في المؤسسات التونسية وله ارتباط بالنمو الإقتصادي والتقدم العلمي باعتبار أن النجاعة الداخلية للمؤسسة أضحت مرتبطة وثيق الإرتباط بحسن [illegible] المعلوماتية واستعمالها. ولدى بعض هذه [illegible] والتي لا [illegible] من حيث الكيف عن الأهداف التي حققتها الدول المتقدمة.

ولقد بدأت وسائل العمل والإنتاج تتغيّر تدريجياً لتتجاوز حدود الآلات الميكانيكية الضخمة التي عرفتها المؤسسات الإنتاجية التونسية منذ سنوات، وتولي الأوساط السياسية والإقتصادية المسؤولة اهتماما جادا بإدخال الإعلامية ونشرها. حتى أن عديد الإصلاحات قد أدخلت على القطاع في مستوى التنظيم والإنجاز وصياغة البرامج المعلوماتية منذ 1988. وتشير المخططات الإعلامية المنجزة في تونس إلى هيمنة الدولة على مجمل التصورات العامة لاستخدام هذه التقانات وإدخالها مع ترك المبادرة إلى القطاع الخاص للاستثمار وبعض المشاريع الإعلامية وتركيز مكاتب الدراسات. ولا يصح إطلاقا اعتبار التقدم المنجز في هذا الصدد مجرد إنجازات معزولة عن السياق الإجتماعي إذ لا بد من ربط المنجزات المعلوماتية في تونس والعمليات الإلكترونية العالمية ككل بتوجه اجتماعي شامل.

عرفت هذه الديناميكية تغيرات مهمة في مستوى حاجات المستعملين الذين اتجهوا بتلقائية نحو إدماج الأنساق المعلوماتية في النسيج المجتمعي التونسي مع اعتماد المرونة عند مواجهة التغيرات التي يشهدها الوضع الاقتصادي العالمي المتسم بالتنافس الشديد. وسيخلف هذا التنافس دون شك آثارا اجتماعية واقتصادية وثقافية ستوكل مهمة النظر فيها وتحليلها إلى الدراسات الاستشرافية وعلم المستقبليات الذي يستطيع أن يحتوي هذه التغييرات وأن يكشف نتائجها وآثارها في شتى ميادين الحياة الإجتماعية. إلا أن استحضار المستقبل لا يتمّ انطلاقا من فهم الحاضر فهما عميقا واستيعاب تجاربه التي على أساسها يمكن صياغة الأهداف العامة التي نطمح إلى بلوغها مستقبلا. وعمليا فإن المستقبل هو تداخل بين مراحل تاريخية متعاقبة تحكمها سيرورة المجتمع. وبالطبع فإن كل مجتمع يميل إلى بناء نظام معلوماتي فريد ومتطور يجعل من التغيير الإجتماعي فعلا ممكنا ويساهم في قلب البنى الاجتماعية انطلاقا من عمليات خاصة به.

ولئن سبق لعلماء الاجتماع والاقتصاد أن درسوا مراحل التنمية بالتركيز على شروط الإقلاع من اقتصاد تقليدي إلى اقتصاد متطور قائم على الصناعة. وإن أتيح لهم أيضا فهم آليات التحويل التي [illegible] القطاعات الانتاجية المختلفة فإنهم رغم هذا التبصر بآليات [illegible] لم يعنوا بفهم الثورة المعلوماتية بما هي تحول من مرحلة الإنتاج إلى مرحلة الإتصال الإلكتروني. غير أن إدراك الأهمية الكبرى

لدور المعلوماتية والاعتراف بقيمتها في تونس يجب ألاّ يحجب عنا حقيقة أن قطاع المعلوماتية يستدعي بذل الكثير من الجهد كما أن التفاعل مع الإعلامية ما يزال محدودا بين أفراد المجتمع وهياكله نظرا إلى القسمة العالمية غير العادلة في مجال الإعلام والاتصال بين الدول. رغم أن النظام العالمي الجديد للإعلام والإتصال يرمي في جوهره إلى القضاء على أوجه التفاوت وعدم المساواة القائمة في مجال الاتصالات بين الدول المتقدمة والدول النامية ثم فيما بين الدول النامية أي الهوة الرقمية، هذه الهوّة التي تستدعي تضامنا رقميا فعليا بين شعوب الأرض قاطبة. وهو طموح مشترك بين الشعوب لإيمانها بأن ثورة المعلومات وإن كانت غربية المنشأ فقد أضحت في إطار العولمة كونية. فبمجرد أن تربط الدول المختلفة نفسها بشبكات معلوماتية عالمية يمكن أن تنشأ داخلها حركية اتصالية متطورة وتتمكن مؤسساتها من بيع وشراء المعلومات والإستفادة من خدماتها المتنوعة.

ولا يكاد مستقبل التنمية في تونس يتوقف على مدى توافر الإمكانيات المادية وتراكم الأجهزة الإعلامية، إن سياسة التنية تعتمد أساسا على إعداد الموارد البشرية وتدريب الكوادر إذ من الصعب أن نستفيد من الثورة المعلوماتية وأن نلمس آثارها الإيجابية إذا أوكلنا أمرما إلى النخب العلمية والإدارة الأجنبية ولم نسع إلى توفير احتياطي من اليد العاملة المختصة في الإعلامية وصناعة البرمجيات، إننا نصنع بذلك الإطار الأنجع لتحقيق تناسب بين احتياجات التنمية المحلية وبين قدرة الدولة والمجتمع على الاستجابة. وأعتقد أن المشكلة تكمن في عملية التوظيف وحسن استعمال الترابط الشبكي وإدارة المعلومات مع الأخذ بعين الاعتبار لقوانين الاشتغال التي لها صلة كبيرة في العالم.

لقد اعتمدت تونس المعلوماتية كتقانة جديدة مواكبة منها للتحولات العلمية التي يشهدها العالم اليوم مثلها في ذلك مثل بعض الدول السائرة في طريق النمو لغاية تطوير المسالك المؤدية إلى السيطرة على المعلومات والإستفادة منها. بيد أن المشكلة الرئيسية التي تعترضنا هي كون الدول المصنعة للأجهزة المعلوماتية لا تعيش الوضعيات الاقتصادية والإجتماعية والسياسية والثقافية نفسها التي تعيشها تونس. فهل إن الاستراتيجيات المنجزة في هذا الصدد قادرة فعلا على النجاح في إدماج الإعلامية ومواءمتها وإعادة تكييفها مع النسيج المجتمعي التونسي بما يضمن الإستفادة منها، لا سيما وأن الإعلامية هي في أساس تقانة ذات آثار اجتماعية وسياسية ولا يمكن لهذه المعلوماتية أن تحتوي تلك الآثار ما لم نقم بشحنها بالشحنة التي نريد.

من البديهي القول إن التقانة الإعلامية ترتبط ارتباطا عضويا بنمط الحياة والتنظيم الإجتماعي داخل المجتمع وهو ما يستوجب إعادة تعريف المجتمع والهيكلة الرمزية للإعلامية (11) واتّباع مسار عقلانيّ يمسّ نمط قيادة الأفراد والجماعات الاجتماعية وفق أبعاد عامة تعتمد أساسا المعالجة الالكترونية للمعطيات وتكون عملية وذات تكلفة منخفضة.

ولا يمكن الحديث عن الإعلامية خارج السياق الذهني والمعرفي للأفراد. إذ تستدعي هذه المسألة أن يكون المحيط العلمي أكثر تقدما وقدرة على استيعاب فوائد المعلومات وتفهم خصوصيات البرمجيات التي تعتبر حركة ذاتية من التطور في مستوى مواد الإنتاج وأشكال التنظيم إضافة إلى عدم الاكتفاء بالنقل الآلي الجامد بل السعي إلى تطوير الأجهزة والاستنباط بما يوائم التطلعات المحلية ويتماشى بصفة أدق مع السياق الكوني مع اتّباع مسار أيديولوجي. على أننا لا نستعمل الأيديولوجيا هنا استعمالا تقليديا باعتبارها منظومة عقائدية تحتوي دلالات سياسية. إن توظيف مفهوم الأيديولوجيا يتماشى في سياقنا الراهن مع التطلعات التقانية والمعلوماتية الجماعية ويعتمد خلفية عقلانية تقوم على الترابط الجماعي والتواصل دون السقوط في الانقسام إلى عائلا أيديولوجية أو سياسية ضيقة ومتنازعة.

خصوصية المشاكل الإجتماعية المطروحة :

إن المشكلة التي تواجهها تونس على المستوى الإجتماعي لا ترتبط بمعرفة فوائد الإلكترونيات والأجهزة الرقمية وإدراك مكانتهما في الإقتصاد ولا بقدرة الأفراد على استيعابها والإستفادة منها. بيد أن أساس المشكلة هو ضرورة إنشاء مؤسسات [illegible] تستطيع أن تتحدى نفسها بنفسها وأن ترتبط نتائج [illegible] في ثورة الإعلامية بالتحول الاقتصادي الاجتماعي الذي تعيشه البلاد. وبذلك فإنّها ليست مجرد تقليد لنمط أو أسلوب

حياتي ومجتمعي معين، فهي بالضبط عبارة عن تنظيم اجتماعي عقلاني في إطار دولة متماسكة يعمل الأفراد فيها اعتمادا على تمثلات واضحة للكون وللسلطة بأبعادها المختلفة.

وحتى يتحقق هذا التطلع لابدّ من تفهّم المناخ الإجتماعي الذي يؤثر في فعالية الأفراد ممن توجه إليهم البرامج المعلوماتية المختلفة. ويمكن أن نعدّد جملة من الظروف التي تساعد على تنمية عملية التفاعل مع الإعلامية وذلك من أجل إنجاح نقلها إلى المجتمع التونسي في النقاط التالية:

* توخي المرونة عند استعمال الجهاز ومحاولة تكييفه مع المحيط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي التونسي.

* مساعدة المتعاملين مع الانترنات على إبراز إمكاناتهم ومؤهلاتهم الشخصية في الإبداع والإضافة.

* أن يستهدف الاتصال عن طريق الحاسوب تحقيق الفائدة القصوى في أقل وقت ممكن بتحديد المشاكل التي يسعى المجتمع إلى حلّها. وهذه خطوة أولى تسبق التفكير في مزيد تخصيص استثمارات مادية لها أو قبول برامج المساعدات الخارجية في هذا المجال(12).

ولقد جعل قانون السوق والحرية الاقتصادية من عديد المؤسسات المعلوماتية التونسية تنقل انتاجها كاملا من الأسواق الخارجية وذلك بحثا عن الربح الأقصى وهو أمر يعوق فهم حاجيات المجتمع الحقيقية فيخلق إذن حاجيات وهمية ومصطنعة. إلى جانب كون العلاقات والاتصالات الاجتماعية لن تمر في هذه الحالة في إطار العمليات الثقافية والإعلامية وإنما ستأخذ طريقا أخرى وهي طريق تبادل السلع والخدمات. خاصة وأن المؤسسات الدولية والشركات المنتجة للمعلوماتية تحث مؤسساتنا الوطنية على التخلي عن نشاطها الاستثماري في المجالات الانتاجية مع الاكتفاء بالاستثمار في مجال التبادل واستيراد بضائع جاهزة من الأسواق الخارجية. وفي هذا السياق تصير المعلوماتية مفهوما مركزيا له قدرة على تحديد الاستراتيجيات السياسية وهي تعتبر بمثابة الحل العقلاني الذي يرمي إلى تأسيس فضاء اقتصادي [illegible] ثقافي.

ولقد استطاعت الثورة الرقمية أن تخلق طلبا إضافيا وتهافتا على الحواسيب من قبل أفراد من ذوي المكانة الاجتماعية والاقتصادية العالية وحتى المتوسطة الشيء الذي جعل التعامل الإبداعي مع الحاسوب ينحسر ويتقلص دون تحقق الفائدة المرجوة منه. وفي مثل هذه الوضعيات تبرز الشركات المتعددة الجنسيات أكثر من ذي قبل بأن تقدّم للأسواق التونسية أصنافا متعددة ومتنوعة من الحواسيب وأجهزة الإعلامية، تساهم مساهمة فعالة في تنظيم الموارد وحصرها. وهي تمارس مهامها تلك عبر مجموعة من الآليات الدقيقة والمختلفة. وتدعو هذه المسألة الدولية إلى مزيد إحكام سيطرتها على مسالك توزيع المعلومات تفاديا لما يمكن أن يمرر من مشاريع قد تضرّ بمصالحها.

بناء قاعدة علمية، معلوماتية ذاتية متطورة :

إن تناولنا لقضية بهذا التعقيد يستوجب منا المعايشة الميدانية التي هي ذات فائدة عميقة، وذلك من أجل فهم وإدراك إمكانات الانخراط بفاعلية في مسار الثورة الإعلامية وتحديد طبيعة المشكلات التي يواجهها المجتمع التونسي في وظع عالمي يمتاز بالانقطاعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وقد يعيق المجتمع على استكمال تطوره وبناء قاعدة معلوماتية ذاتية. وينبغي أن تأخذ التطور المعلوماتي في إطار تموّجات الأزمة وانعكاساتها لتصل بالتالي إلى صياغة تصورّات أكثر علمية والتصاقا بالواقع.

حريّ بعلماء الإجتماع إذن أن يصغوا مناهج جديدة وأدوات أكثر فاعلية وجدوى حتى يتوصّلوا في النهاية إلى تفهم الآليات المحركة للثورة الإعلامية داخل المجتمعات الصناعية. وهو مشروع مجتمعيّ يتركز على جدلية الحاجيات الأساسية للمجتمع من أجل توفير أكبر قدر ممكن من المستلزمات الضرورية للتعايش والتواصل بين الأغلبية الساحقة من السكان، مع ضرورة طرح مسألة التوفيق بين المعلوماتية كنتاج للثورة الصناعية الثالثة أو الموجة الثالثة، وبين قطاعات المجتمع التقليدية من جهة وبين القرار السياسي المسقط من فوق وحاجة المجتمع الفعلية للتطور والسير في طريق الملعوماتية من جهة أخرى. وينبغي أن نؤكد على ضرورة الاختزال النسبي للمشكلة وتحديد العناصر المحركة للإضافة مثل البواعث الاقتصادية ومستوى الإنتاج وحتى يكون اختيار الأعلمة ذاتيا ومرتبطا بالقيم الثقافية للمجتمع.

تبدو هذه العناصر متناقضة ظاهريا إلا أنّ ما يجمعها كامن في بنية المجتمع في مستوى مسارات الفاعلين الاجتماعيين وخبراء المعلوماتية وتفكيرهم. فهذه

الاستراتيجيات تدفعنا إلى أخذها بعين الاعتبار وتحليلها بعمق بما أنها تندرج في إطار ما يسمى بفن إدارة المجتمع بواسطة المعلوماتيّة في سياق نمط سياسي متطور قد يخلق توجهات تنمويّة رائدة تعمل الدول الصناعيّة على نشره.

ويقابل ذلك واقع سكاني يمتاز بعدم التوازن والارتباك وقد لاحظ العديد من الباحثين الإجتماعين عند تقويمهم المردود الاقتصادي ومحاولتهم فهم نوعية تقسيم العمل الدولي المترتب عن النمو الواسع لقطاع المعلوماتية والانترنيت أن الفكر الاقتصادي والاجتماعي التقليدي لم يعد مناسبا للتعبير عن موجة المعلوماتية وعلى الأخص في ضوء ملاحظات الأزمة والركود في اقتصاديات هذا القطاع التي بدأت من الثلث الأخير من القرن العشرين وحتى الآن، وهي موجة تصبو إلى تركيز ربط أفضل بين المشاريع الصناعيّة التكميلية ومختلف الفاعلين الاجتماعين الجدد من أجل إنشاء أطر صناعيّة أفضل وضمان أكثر ما يمكن من التوازن(13).

ولم نتمكن من تفسير عوامل الأزمة والركود المتصلة بقطاع المعلومات والانتقال إلى مرحلة تقسيم العمل إلى جزئيّات نمطيّة بما أن العمليّة تستدعي البدء بالفكر الاقتصادي الذي يركز إما على تدفقات رأس المال وإما على الفروق في تسعيرة قوة العمل المختصة. واعتبارا من أن اقتصاديّات قطاع المعلوماتيّة تمر حاليا بأزمة مما يزيد من صعوبة التوقعات المستقبليّة، فلا يكفي أن تتميّز الأجهزة المعلوماتيّة بالسرعة والفاعليّة لإدامة عملها بل يجب أن تتحوّل التقانات المعلوماتية إلى إطار راسخ للمهارات الفكريّة والصناعيّة الجديدة التي تساعد على الانخراط في أسواق العمل.

ستظهر في هذا السياق التقاني والمعلوماتي المتطور مجالات جديدة للتنمية وللتفكير في أزمة التنمية وسيجد "السياسي" الذي يتحدث مستقبلا عن مجتمع المعلومات نفسه في مواجهة عالم لا يعرف عنه إلا القليل بحكم عدم التخصص. فهل هو إيذان بقرب الانفصال بين "الاقتصادي" و"الاجتماعي" و"السياسي" بسبب الإعلاميّة؟/ أم هناك مجال آخر للحديث عن إمكان التواصل والترابط بين هؤلاء الفاعلين؟وبذلك تضمن حدوث تحولات هيكلية سريعة وعميقة ومتوازنة في المجتمع التونسي بما أنه مجتمع مزود بخصائص التوازن وقبول التغيير وقادر على المحافظة على شروط الاستقرار الاقتصادي وضمان وجوده في خضم التحولات الدوليّة المتسارعة.

يمكن القول إنّ الإعلاميّة في جوهرها وفي مكوناتها أداة إيجابيّة ومنتجة بما أنها تعنى بتنظيم جوانب عديدة من الحياة الاجتماعيّة وتختص باستيعاب التحولات الاقتصاديّة المتسارعة حتى أنها أضحت المنبع الوحيد لتغير الاجتماعي والثقافي؛ أي المساهمة في تأسيس روابط جديدة تقوم على المشاركة والإسهام في العمليّة التنمويّة. ومن هذا المنطلق يبدو أن الدخول في مرحلة الصناعة المعلوماتيّة يعد طموحا مستقبليًا في تونس من أجل تقليص حالة التبعيّة الالكترونيّة والارتباط بالأسواق العالميّة، وهو ارتباط يبدو عميقا نظرا لحاجة المجتمع الفعليّة إلى المعلوماتيّة. وطبيعي أن تحاول تونس مواكبة الثورة المعلوماتيّة. رغم أن الفجوة المعلوماتيّة بين الدول يمكن أن تزداد وتتسع وهو ما يدعو إلى تسخير جميع الطاقات وتنظيم مجالات العمل المتضامن.

ولقد بدأت العمليّة بفهم المكونات المختلفة للحاسوب (سرعة التشغيل، تعقيد الجهاز، امكانيّة تقليص استهلاك الطاقة)، وهي مكونات غير منفصلة بل تعد من ضرورات تحليل المعطيات إضافة إلى البرمجيات المعربة في تونس(14). غير أن هذه المحاولات لم تخرج عن إطار الإرادة السياسيّة مما يجعل الأجيال المعاصرة وفئات المجتمع التونسي مسؤولة اجتماعيًا وسياسيا عن تطوير الإعلاميّة وتبني مشاريع الدولة وتكريس التفاعل الإيجابي والمثمر بين الدولة والمجتمع بعد أن خلق عصر الثورة المعلوماتيّة وضعا جديدا وفرضه على المجتمعات الإنسانيّة فرضا. ولا مجال حينئذ لرفض الانخراط إذ ستغدو الحواسيب متداخلة بالحياة اليوميّة للأفراد والجماعات.

إلا أننا نجد أنفسنا إزاء مفارقة واضحة بين الفكرة وتطبيقاتها، بما أن عملية التطبق وإنجاز فكرة بناء شبكات معلوماتية تونسيّة تستوجب وقتا قد يطول، وهي إلى جانب ذلك تستدعي بذل مجهودات كبيرة لا بد أن تتضمن [illegible] طنية والمجتمع بكل مكوناته [illegible] العلاقة بين [illegible] الاقتصادية وضبط [illegible] سلطة السياسيّة وتركيبة المجتمع أبعد من أن تكون [illegible] إذا تعلق الأمر بمسألة عظيمة الخطورة كمسألة المعلوماتيّة، التي تمنح مستعمليها سلطانا ونفوذا لا حد لهما ويختفي

وراءها رهان تحديث المجتمع التونسي وتعبئة كل القوى لبناء المستقبل على أسس سليمة والإستفادة من ثروة المعلومات في تحقيق التراكم المطلوب لمواجهة تحديات العولمة والارتباط باقتصاد السوق.

ففي هذا العالم تتشابك المفاهيم الاقتصادية وتتداخل المكونات المادية والفكرية للمعلوماتية بحيث تختلف كيفية تبادل المعلومات الرقمية بين المزودين في إطار الربط الشبكي، وهو ما يفتح عملية التدفق ويسهلها باعتبار أن جوهر الحوسبة هو تكوين نموذج ديناميكي للأفكار وتتجاوز العروض الجامدة إلى إمكانية تقديم نماذج حية وبالتالي تطويع الحواسيب لتكون قادرة على التنمية.

لكن عندما نبحث في تحديد دقيق لطرحنا هذا نجد أنفسنا في حاجة إلى صياغة أسئلة عديدة تتعلق بنجاعة المشروع التحديثي نفسه. إذ كيف سيتم ادخال الإعلامية وتطوير برمجياتها؟ وماهي الجسور الواجب السرور عبرها والاحتماء بها لتحقيق قفزة نوعية من حيث السيطرة على المعلومات ومواءمتها مع الحاجيات الحقيقية للمجتمع التونسي؟ وهل ثمة عراقيل ومثبطات تؤخر هذا التمشي أو تمنعه تماما بغض النظر عن التقلبات المرتبطة بالعلاقات الدولية؟ هي أسئلة ضرورية وحاسمة في مستوى البحث العلمي والإجتماعي فبواسطتها يتسنى لنا تحديد منطلقاتنا النظرية والميدانية ونتمكن من الانتقال من حالة الفقر المعلوماتي إلى القدرة على الوصول التفاعلي إلى الشبكات العالمية والمساهمة في تبادل المعلومات وبناء علاقات دولية متميزة تقوم على أسس متكافئة. نعني بذلك أن تصبح تونس شريكا فاعلا في عملية تبادل المعلومات وليست مجرد سوق تنقل إليها هذه البضائع بصفة قسرية تقوم على أسس لا متكافئة.

إنّ تعدد قنوات المعلوماتية وتنوعها داخل الفضاء الاجتماعي التونسي أمر قد يساعد على بناء وصياغة سياسة اتصالية عقلانية قادرة على الاستجابة لمختلف المتطلبات الاجتماعية ورفع التحديات التنموية وتحديد الاختيارات المناسبة فيما يتعلق بجودة [illegible] [illegible] وقد أدركت تونس [illegible] في [illegible] رسم ملامح [illegible] معلوماتية متكاملة [illegible] ذات الخطوط الهاتفية والصوتية.

وفي خصوص الرقمنة يرى الكثير أنها تهيّء إمكانية القفز فوق مراحل التطور التقني التقليدية وترشيد عمليات الإنتاج وتحسين مستويات الخدمات الاجتماعية والصحية والأمنية. ولكن الحالات التي حقق فيها هذا القفز المنشود الآمال المعقودة عليه قليلة بمثل عدد حالات الفشل في تحقيق هذه الآمال. ولتفادي الفشل لا بد من وجود نظرة تكاملية للمسألة والزيادة في حجم المشاركة الشعبية في بناء قاعدة معلوماتية وشبكات حاسوبية ونقل المعارف والمعلومات المتولدة منها.

ولهذه الأسباب تضاعفت البحوث والاختبارات عدّة مرات خلال السنوات الأخيرة في تونس وتتالت المحاولات لتفادي احتمالات الفشل بعد أن تجلت الإعلامية معرفة علمية، مرتبطة بالحدود فعليا للأدوار الاقتصادية. ويمكن تسجيل ملاحظات أخرى بخصوص المواقف من الاتصالات الحاسوبية والمتسمة بنوع من الخوف نتيجة التبدل السريع في الاتجاهات والمواقف التي يتبناها الأفراد. إن أساس المشكلة هو العمل على ضمان سلامة الاقتصاد الوطني وإنجاح مشاريع التنمية والسعي إلى الربح بأقل تكلفة دون الدخول في دوامة الانغلاق أو فك الروابط لأن راهن الإنسانية ومستقبلها لم يعودا يسمحان بالتقوقع ويدفع تدفق المعلومات إلى المزيد من الترابطات والتبادلات وهي تعتمد توجهات انفتاحية فائقة السرعة لا تعترف عادة بالحدود فتصير الدول المعزولة بذلك جزءا من البنية الأساسية للمعلومات دون إرادتها.

ولعل هذا ما يفسر الميل الكبير إلى الاستجابة بالأسواق العالمية، لا سيما في التخصصات الالكترونية الدقيقة وفي مجالات التسويق حتى يتسنّى توفير بدائل ذكية للمواطن التونسي تؤهله للمشاركة في تحقيق الأهداف المجتمعية. وإذا كان لا بد من تحديد الملاحظات والتحاليل العلمية فإننا نفضل أن نطرح في البداية مجموعة من المقترحات التي تسطر لنا الطريق العلمية نحو معرفة قد تساعدنا على تخطي المعارف الإجتماعية الزائفة التي حصلت عليها والتي تنظر إلى الإعلامية كنسق مغلق وغامض، وتعتبرها نتاجا للاستعمار والتبعية الثقافية. يقول الدكتور رضا بو كراع: "لا بد من التمييز بين ماهو أسلوب حياتي وما هو [illegible] إني فيلسيني يمكن أن يسكن عمارة مثلية حسب التقنيات الأمريكية ولكنه في نفس الوقت يؤكد هويته الصينية. فالمعمار وأسلوب العيش والتغذية كلها قوالب ثقافية تعكس التقدم التكنولوجي لكن هذا ينمو من دون أن يقضي على الهويات المحلية: وهذا ما نشاهده في أمريكا

حيث نجد أيضا مستوى خاصا وهو مجموع المجموعات التي تتعايش في المدينة من جنسيات وديانات متباينة (5). فالملاحظات والتحاليل السوسيولوجية تحدد حينئذ وفق ثلاثة أنماط مثالية تتماشى هي الأخرى مع ثلاث مراحل أساسية لأعمة Informatisation في المجتمع.

* **النمط الأول** : وهو الذي نعيشه اليوم في كافة أنحاء العالم خاصة البلدان المتطورة منها، ويسمى النمط المعلوماتي التطعيمي؛ ومن خصائصه المعرفة في مرحلة أولى والتطبيق في مرحلة ثانية والتطوير والإضافة في مرحلة ثالثة. وذلك وفق التحليل السوسيولوجي الذي ينطلق من قاعدة أساسية تقوم على عدم تجاهل التنظيم وخصوصياته من جهة والانتباه إلى احتياجات الأفراد الذين يكونون ذلك التنظيم من جهة أخرى حتى يحدث التوازن المنشود ولا يتعرض مشروع الأعلمة إلى الخلخلة أو التفكيك بفعل سوء فهم نوعية التنظيم أو خصوصياته المميزة والتي تكمن في الثقافة الجديدة. هذه الثقافة التي لم تعد تقتصر على مجالات فكرية ضيقة بل أضحت مفهوما واسعا يضم مختلف الأنماط والخبرات الإنسانية وبذلك لم يعد ثمة مجال للتمييز بين ما هو اقتصادي وما هو سياسي في إطار ثقافي باعتبار أن الثورة الجديدة في تكنولوجيا الاتصال تقوم على المزج بين أكثر من وسيلة اتصالية، المزج بين وسائل الاتصال وتقنيات المعلومات فيما يعرف الآن بتكنولوجيا الاتصال التفاعلي أو الاتصال متعدد الوسائط(16)

وتترابط لغة السوسيولوجي مع لغة المعلوماتي من أجل مزيد الضبط العلمي، طبق أفكار ثلاثة تقوم على حاجة التنمية إلى المعلومات العقلانية ومساهمة المجتمع في بناء أصناف من المعلومات بما يلائم حاجياته وترابط تلك المعلومات مع التوجهات السياسية للبلاد وهي أمور تستدعي الشفافية والعدالة الإجتماعية والمساواة في توزيع المعلومات والاستفادة منها.

* **النمط الثاني** : وهو نمط تنظيماتي يتحدد وفق احتياجات المجتمع. ولأن فكرة إعلامية التنظيم في ارتباطها بالنسق السوسيو- تقاني تشكل الخطوط الجديدة والرئيسية للتفكير وللممارسة العملية في الدول المتطورة أو حتى في الدول السائرة في طريق النمو مثل تونس، فإن منطق هذا النمط يتحدد من اقحام المعلوماتية في مسائل التنمية والإنتاج [illegible] هذه المرحلة تجميعا وضبطا للمعلومات [illegible] انطلاقا من التقسيم الاجتماعي للعمل وعلاقات التراتب والانتاج داخل ذلك المجتمع وبمعنى آخر داخل نموذج مجتمعي يعطي التنمية القائمة على مبادئ المعلوماتية والشبكات الالكترونية مكانة مميزة ويسعى إلى جعل التعامل معها سلوكا يوميا لدى أفراده. ومن هنا ينشأ ما يسمى بالتفاعل الإيجابي بين مخططات الدولة والأفراد في بيئة اجتماعية ذكية وقادرة على صياغة بدائلها التنموية والسيطرة بالتالي على مسيرة التطور المجتمعي ومراقبة التطور المعلوماتي في إطار القسمة الدولية للعمل وهو مشروع يهدف إلى تحديد موقع الاقتصاد الوطني من الاقتصاد العالمي وبيان قدرته على مواجهة الصعوبات.

* **النمط الثالث** : لقد ساعدتنا النقطتان الأوليان على ضبط عناصر هذا النمط وهو نمط سوسيو ثقافي متنوع يستهدف طبيعة المعلومات والشبكات الحاسوبية ومحتواها وتكمن المشكلة في معرفة وتحديد الفاعل الاجتماعي الذي يستطيع التحكم في المعلوماتية وأداء أدوار تنموية تلقي الأفكار ونقلها بواسطتها أي إمكانية طرح أسئلة خاصة بالمجتمع والبحث عن أجوبتها في مواقع مختلفة وامتلاك المعرفة وفق معايير ثقافية وتوجهات مجتمعية ثابتة متفق عليها من قبل كل مكونات المجتمع التونسي الذي يمتاز بالتضامن بين عناصره في فضاء سياسي مميز يحمي الأفراد ويساعدهم على الإبداع وبذلك تكون المعلوماتية، لا مجرد أثر للتحولات التقانية العالمية، وإنما هي انعكاس للنمو المتداول بين تونس وهذه المجتمعات

إن المعلوماتية من حيث هي وظيفة ونظام تحمل في طياتها التطلعات السوسيو تقانية والسوسيو تنموية للمجتمع وهي محمولة ضمن نظام ثقافي وسياسي مناسب لنشوء علاقات سلطة وتواصل فتكون المعلوماتية بذلك أداة تنمية تساعد المجتمع على حسن التنظيم والتطوير في مستويي إنتاجه المادي والذهني حينئذ يمكن أن تتقلص حدة الهامشية بين الأفراد ويصير لديهم مرجع معلوماتي شرعي وصريح وموحد بدل تعدد المراجع وتنوع المسالك التي تقود إلى الفوضى

إن الإستثمار الناجع في المجال المعلوماتي سيكون ثابة نقطة التحول في آليات المجتمع وسيخلق فاعلين [illegible] محددة [illegible] هذه الحالة المعلوماتية [illegible] في [illegible] بعض [illegible] تعبير "الإجتماعي" و"الإقتصادي" و"السياسي" و"الثقافي" عن "التقاني" وذلك رغم التداخل الظاهر بين هذه العناصر في إطار ما يسمى بالترابط الشكي

والمعلوماتي، وهو ترابط يمكّن مستخدميه من القدرة على التحكم في اختيار سرعة ودقة البيانات كتابة وتخاطبا وجعلها تستعمل على نطاق واسع

بيد أن هذه التحولات لن تحدث في المجتمع دون أن تحقق مشاكل جديدة في معنى النخبة العام وفي هيكلة النخب المسيّرة للعملية التنموية باعتبار أن ظهور نخب جديدة قادرة على الوصول اللامحدود إلى البيانات والمعطيات وتبليغها بطرق متعددة إلى المستهلكين يستدعي حيازتهم للسلطة والفاعلية في أخذ القرار في إطار هيكل احتكاري للمعلومات وهيكل تجميعي للأفراد والموارد الطبيعيّة التي يمتلكها المجتمع إضافة إلى ضرورة البحث عن الشرعيّة العلميّة والثقافيّة

وهي شرعيّة تستمد من المجتمع بعد إجماع الأفراد واقتناعهم بجدوى إدماج هياكل تنمويّة جديدة في مجالات حياتهم اليوميّة، طبق صيغ محددة لتبادل المعلومات ويبدو مع ذلك أنه من غير المنطقي الاعتقاد بقدرة سوق المعطيات لوحدها على التخطيط العقلاني وتحميل المعلومات وتكديسها، إذ أثبتت التجارب المنجزة في هذا الميدان أن المعلومات في حاجة دائمة إلى التداول والمبادلة بين الأفراد لما في هذا التبادل من إبراز للمشكلات الكامنة.

بعض تجليات المعرفة المعلوماتيّة في تونس اليوم:

تتجلّى المعرفة المعلوماتيّة والشبكيّة في المجتمع التونسي في المجالات التالية:

* تنوع الأجيال واختلاف طرق الاستعمال والتعامل مع الحاسوب إضافة إلى صعوبة المواكبة وحتى نوضح أكثر نقول إن الثورة الرقميّة قد ولدت مشاكل منهجيّة وإبستيمولوجيّة في التعامل مع المعطيات والمعلومات لا عهد لتونس بها. الشيء الذي سوف يساعد على نشوء رؤية اجتماعيّة جديدة تحاول أن تكون متوازنة ومنتظمة داخليّا لتفادي العجز والإخفاق الذي يقود أساسا إلى [illegible] في عصر المعلومات وقد [illegible] [illegible] تنظيم [illegible] في [illegible] المهم [illegible] صيغة [illegible] متكاملة [illegible] المشاريع التنمويّة وتصوغها صياغة علمية تتماشى مع خصوصيات المعلوماتية في وضعها الراهن على الأقل.

ولقد سعت الدولة إلى بناء اقتصاد متفتح على العالم ولا يقطع مع مخزون القيم الروحيّة الأخلاقيّة الذي يستمدّ منه الشعب التونسي وجوده، وذلك في إطار نظرة استشرافيّة مستقبليّة قد تساعد على إنجاح الخطة الشاملة "لأعلمة Informatiser" المجتمع وتأهيله للإنخراط في عصر الاتصالات والأقمار الصناعيّة دون أن يفقد انسجامه الداخلي أو تختل معايير التفاعل الإيجابي بين أفراده؛ خاصّة وأن علاقات الأفراد مع العالم الخارجي ما تحمله إليهم الأجهزة المعلوماتيّة وإذا لم يكونوا مزوّدين ببنى ثقافيّة قادرة على تمثلها أو تسجيلها فإنّها تصير مجرد ضجيج مفرغ من المحتوى. وبالمقابل فعندما تكون أفكارهم ثابتة وراسخة فإنهم يكونون حينئذ أكثر قابلية على تمثل كل المعلومات وإدراكها بوصفها مجرد أفكار وإنما باعتبارها نتاجا إبداعيا يتماشى مع أنظمتهم الذهنيّة.

ونحن نلاحظ اليوم كيف أن النقاش حول المعلوماتيّة لم ينشأ نتيجة حملات صحفيّة منظّمة أو باقتراح من أفراد معزولين عن الحقل السياسي، ولكنّه نشأ نتيجة جدال [illegible] بين المؤسسات الصناعيّة الإقتصادية، ونتيجة كذلك لرؤية سياسيّة منفتحة وواعية بالمشاكل الاجتماعية والتنمويّة. ويمكن لهذه العناصر مجتمعة أن تشكل نقطة التحول الإلكتروني والمعلوماتي

ثمة أربعة شروط لقيام وانبثاق مجتمع معلوماتي تونسي يستجيب لحاجيات الأفراد. وهي تتصل بمشروع الأعلمة الذي لا يرتبط فقط بتنظيمات اجتماعيّة تبحث عن التأهيل الشامل وإعادة الهيكلة، ولكنه ينبثق من إطار تنظيمي كوني وشامل تحدده مواصفات خصوصية تتماشى مع طبيعة عصر المعلومات

1- ينبغي، بغض النظر عن سعر الآليات والأجهزة الإعلاميّة الموردّة وما يمكن أن ينجرّ عنها من دفوعات وخسائر مالية الذهاب إلى جوهر المسألة، أي التطرق إلى عملية الإنتاج عن طريق الإعلاميّة وشرح طبيعة العلاقة الموضوعيّة الرابطة بين الأجهزة الحاسوبيّة والإنتاج الإقتصادي لتتماشى في الأخير مع الأولويات الإجتماعيّة وتعكس الخبرة العمليّة للأفراد. بما أن الإعلاميّة ستتحول من مجرد أجهزة صماء إلى أدوات وظيفية تستوعب الجوانب المادية [illegible] للإنسان (الرمزيّة والفكرية والوجدانيّة)، فهي تعطي قدرة على التفكير المتناسق في ظروف أكثر رحابة وتلقائيّة، ويجب بطبيعة الحال تقدير

الأوجه السوسيو - سياسية التي تتصل بالمسألة. وهي ترتبط بالوضعية العامة للأعلمة كما أنها تعتبر مجالا جديدا لطرح المشاكل المجتمعية سواء في المستوى المعيشي أو في التحليل السوسيولوجي 2ـ يجب تبني مواقف أكثر وضوحا تتكمس فيها إرادة النقل والتوريد الجاهز لمواد الإعلامية مع إرادة البناء الذاتي والتصنيع والربط بين نسق التغيير التقاني العالمي ونسق التغيير الثقافي السائد في تونس، وذلك من أجل تفادي الاختزالات الوظيفية التي يمكن أن تحدث في النسيج الإقتصادي والإجتماعي. إن الاستعداد الثقافي كفيل ببناء قاعدة تقانية و إلكترونية منسجمة مع أهداف المجتمع التونسي . **وتعتبر الثقافة مفتاح فهمنا لبنية المجتمع وهي الخطوة الأولى في تحديد أسلوب التصنيع وبناء قاعدة تنموية تستفيد من الشبكات الإلكترونية العالمية.** ونحن نتطلع إلى الاستفادة من الأنظمة الرقمية الحديثة بعد أن صرنا نقسيمات على نصبة تشبيك الحواسيب وأصبحت لدينا القدرة التقنية لبناء شبكات مسايرة للمنجزات العالمية في هذا الميدان ويبقى ذلك أمرا مستقبليا.

3ـ تنظيم القوى الاجتماعية الفاعلة في نسق المعلوماتي الجديد من خلال عقد اجتماعي واضح يحدد مسؤولية كل فرد إزاء المجتمع إيمانا بضرورة التطور المعلوماتي، ويمكّن هذا العقد من توضيح الأدوار الإجتماعية للفاعلين وخلق تناسق إجتماعي. إن بناء شبكات معلوماتية تستحيب للخبرات الأساسية للفاعلين أمر يمكن أن يؤدي إلى جعل قطاع الاعلامية قطاعا ضروريا وحيويا في المجتمع التونسي ولا يمكن الاستعاضة عنه بمسالك عتيقة الانتاج أو التوزيع وذلك حسب الاستراتيجيات التي يرى المجتمع ضرورة اتباعها إذ أن عملية إغلاق الباب في وجه الاكتشافات التقانية بدعوى تفادي ما ينجرّ عنها من اختلالات اجتماعية أمر لا ينسجم مع واقع العصر المتسم بسرعة نسق الاكتشافات والتعقيدات الكبيرة التي تصيب هذه الاكتشافات .

4ـ لا يجب الاكتفاء بحلّ المشكلات التنموية الكبرى بوساطة البرمجيات الإعلامية دون أن نلتفت إلى كل مكونات المجتمع بجزئياته وتفاصيله المختلفة ... ضمان الارتقاء ببعض الممارسات الفردية واستخدام أدوات عقلانية ومنطقية لإثراء الفعل التنموي والكشف عن اختلال النسق الاجتماعي ككل حتى يتسنّى للحاصل الذهني للفرد أن يستفيد من الثورة الإعلامية ويدعم ملكات التقبل والاستيعاب لديه وهي نقطة أساسية تستحقّ أن ندرسها لأنها تجبرنا على التخلّي عن المعالجات السوسيولوجية التعميمية واعتماد النتائج الواقعية والملموسة والنظر في بعض المجالات المركزية التي نطمح إلى بلوغها في إطار ديناميكية جدلية واضحة المعالم

ولعل التجارب التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا ودول آسيا الشرقية يمكن أن تكشف لنا بكثير من الدقة والوضوح أنه في المستقبل القريب سيتسنّى لنا انماء الذكاء الإنساني وجعل الفرد قادرا على مواكبة القفزة المنجزة في ميدان المعلوماتية. ومع ذلك يبدو الفرق واضحا بين مجتمع يطوّر المعلوماتية إلى أقصى حدّ ثم يطوّع مجالات الذكاء الاصطناعي سعيا لمزيد تنمية مواهب الإنسان ومجتمع لم تصل قواه البشرية بعد إلى التفاعل الإيجابي مع الأجهزة المعلوماتية رغم ناعيتها في احداث التنمية نظرا إلى أن نسق التطور والإستفادة من الإعلامية لا يزال بطيئا ولا يتماشى مع انتظارات وتوقعات الأفراد المستقبلية في السيطرة على التجارب المتصلة بالثورة الالكترونية والمعلوماتية والإرتباط الشبكي بمجالات إنسانية أكثر رحابة واتساعا وعمقا إذ لا يكفي أن نطوّر البنية المعلوماتية دون أن نراعي توجهات الأفراد بما أن هذه المسألة من شأنها أن تضعف الترابط المجتمعي.

ولا ترتبط مشاكل الأفراد الحقيقية بانغلاق المسالك الموصلة إلى المعلومات إذ أنها مسالك منفتحة بل تكمن في الرغبة الدائبة في زيادة جودة الأعمال الفنية والصناعية وتجاوز المشاكل الإقتصادية المرتبطة بنقص الموارد المالية والتركيز على نوعية رأس المال المادي الذي يجري تكوينه والتأكد من ملاءمته احتياجات المستقبل (17) حيث ستؤدي هذه الوضعية إلى إضعاف حظوظ الفئات الإجتماعية المتوسطة والفقيرة في الاستفادة من مزايا النشر الإلكتروني، وبالتالي من إمكانية حصولها على المعلومات ليزداد تخلفها التعليمي نظرا لعجزها المالي عن شراء الأجهزة اللازمة للاتصالات الالكترونية ... أو مدارسها أو مكتباتها في حين ... قد لا تواجه مشاكل مالية عند اقتناء هذه الأجهزة واستخدامها

من أجل تحسين المستوى التنظيمي لديها وتعليم أبنائها والترفيه عنهم

في البحث عن قواعد اقتصادية جديدة:

تطرح في هذا السياق مسألة تحديد خصوصيات الاقتصاد التونسي الذي بدأ ينخرط فعليا في مسار كوني يسميه علماء الإقتصاد "العولمة" يحتم عليه الاندماج في مجالات عالمية جديدة تشهد فيها مجموعة من الأقطار نموا اقتصاديا سريعا وتحولا تدريجيا لمراكز الثقل سيما وقد برزت مجموعات جديدة من الدول تزايد فيها نسق النمو بسرعة إلى حد أن الناتج القومي الخام باليابان مثلا بلغ سنة 1993 حوالي 3.526.660 مليار دولار أي ما يمثل حوالي 60% من الناتج الداخلي الخام للولايات المتحدة الامريكية وهو ما يجعله يحتل المرتبة الثانية في الإقتصاد العالمي

تستوجب هذه التحولات العالمية الجديدة دخول تونس وانخراطها في هذا التمشي الاقتصادي، كما تستدعي من المؤسسات الوطنية أن تستجيب للاستراتيجيات العالمية في مجال الإنتاج المعلوماتي وتعيد بالتالي تعريف أهدافها وتوجهاتها الراهنة والمستقبلية، من أجل أن تتخلص من أعباء الماضي وقيوده، وتكون لها القدرة على توجيه المتغير المعلوماتي وخلق مجالات كبيرة للمناورة

إنّ كل هذه التحولات المتداخلة سيرافقها ظهور إطار ثقافي جديد وتنظيم مجتمعي متجدد يمكن أن يفكك التجمعات التقليدية ويدمج الأفراد المعزولين والضعفاء ضمن حضيرته، كما أن جميع شرائح المجتمع ستكون معنية بمشاكل التلوث الإجتماعي والصناعي ومسائل البطالة والتشغيل إضافة إلى المسائل الإقتصادية الكبرى وستحتل المعلومات مكان الصدارة في هذه النقلة النوعية للمجتمع الجديد. إلا أن المسألة الجوهرية التي يطرحها العنصر الإجتماعي هي من سيراقب المعلومات؟ ومن سيستفيد من تدفقها عبر الأوعية الإلكترونية الجديدة التي ست[illegible] تتركز في تونس؟ خاصة وأن المعلوماتية وبنوك المعطيات الخاضعة لأوامر وعمليات التشغيل والإبحار الفوقي ستكون من بين [illegible] في المنظومة الاقتصادية وخصوصا تكون لها تأثير كبير في البيئة الإجتماعية وفي المستوى المعيشي للأفراد، بما أنها ستساعدهم على بيع وشراء المعلومات وخدماتها انطلاقا

من بيئة شبكة أساسية متينة يصعب اختراقها من قبل قوى خارجية وبالتالي يصعب نقلها أو تقليدها وهو ما يضمن إمكانية ترويجها بمقابل والإستفادة من المحاصيل المالي العائد من جرائها

جميع هذه التمايزات السريعة التي ستشمل المجتمع التونسي في مستوى فئاته وشرائحه المختلفة بسبب تأثره بالمتغيرات التقانية والاتصالية العالمية تستدعي منا بذل مجهود مضاعف لفهمها ومقاربتها بالترابطات المعقدة التي ستصيب الهياكل الإدارية والتنموية حاضرا ومستقبلا خاصة وأن المعلومات هي كما يقول عنها الدكتور "نبيل علي" وسيلة التغذية المرتدة التي تعمل على استقرار النظام العالمي حتى لا يفلت من عقاله تحت فعل ديناميكياته الهادرة وهو يشير هنا إلى ما تردد عن دور المعلومات في منع انهيار الاقتصاد العالمي على إثر النكسة التي حلت بأسواق المال عام 1987 (الإثنين الأسود) والتي يشبهونها بتلك التي أدت إلى الكساد الطويل في نهاية الثلاثينات مع فارق أساسي هو عدم توافر نظم معلومات فعالة حينها كتلك التي تؤازر الاقتصاد العالمي حاليا

إنّ كل حديث حول حاجات المجتمعات المختلفة للمعلومات إذا لم يندرج في إطار نظري محدد ومضبوط أو في تمشّ علمي واضح يوشك أن يدخل في خانة القوالب الجامدة وعديمة الفائدة إلا أن الأساسي في مشكلتنا لا يكمن في غزارة المعطيات والمعلومات فلدينا منها الشيء الكثير نحن في حاجة إلى إعادة صياغة هذه المعطيات وملاءمتها مع المشاكل التنموية الحقيقية في إطار حوسبة كلية الوجود ورخيصة الثمن تستهلك طاقة قليلة وتشمل شاشات ملائمة وبرمجيات من أجل تطبيقات شاملة

ورغم الأنظمة المكثفة وتوافر أنظمة المعلومات ذات الاستعمالات العامة فإن نمط استغلال المعلوماتية ظل عندنا مجرد عمل خاص بالخبراء والفنيين ولم يعمّم، غير أنّ أنظمة المعلومات الماكرو اقتصادية تمتلك خصوصياتها المميزة والمتمثلة في القدرة على بث معطيات تخص مجالاتها التنظيمية، ويمكن أن تستعمل بأشكال جيدة لدى جامعي المعلومات بما يتمشى وطبيعة المشاكل والتخصصات الإجتماعية. وفيما يتعلق [illegible] نجد حواجز عمودية تحدد العلاقة القائمة بين [illegible] المعلوماتية المتوفرة من جانب أصحاب القرار و[illegible] الأنظمة الإعلامية من جانب آخر

الإحالات:

-Christian Uhlif La Coopération industrielle des entreprises sur le plan international le cas de la Tunisie in le développement en question, série etudes sociologiques n16 C E R E S 1990 p 327

A Demontier Modele de projection des mouvements scripturaux des menages en 1985 Banque n368 Décembre 1977p 1331

ابراهيم حلمي عبد الرحمان نظرات في مستقبل التنمية الصناعية في العالم العربي القاهرة معهد التخطيط القومي 1976 المجلد لعام

شارة خضر دور العلم والتكنولوجيا في تحقيق النهضة الإجتماعية في العالم العربي في التنمية في الميزان سلسلة علم الإجتماع

الشاذلي العياري برنامج الاصلاح الهيكلي في تونس [illegible]

Bouhdiba Abdelwahab Le développement culturel facteur de transformation sociale op cit p33

Ben salem Lilia Voies de penetration de la culture industrielle R T S S C E R E S 11eme annee 1974 n36-37-39 p147.

COLIN GILL Nouvelle technologie de qualification et stratégie de l'entreprise sociologie du Travail n4 1984 p560

9. الشاذلي العياري مرجع مذكور سابقا صفحة 2

10. يرى الدكتور [illegible] أنه ليس اكتساب القدرة العلمية التقنية أمرا مرادفا دائما للقدرة على الإنتاج الإقتصادي ومن الممكن تماما أن يتم الإنتاج و[illegible] [illegible] القاعدة الوطنية موقع التكافؤ أو بعد [illegible] [illegible] شاملة للتنمية الشاملة مرجع مذكور سابقا ص

11. إضافة إلى أن سوق المعلومات سوف يثري قطاعات معينة من الإقتصاد بأن مراكز جمعية العلم ستنتج من ربط أجزاء كانت مبعثرة سابقا [illegible] [illegible] مرجع مذكور سابق صفحة 17

12. تندرج هذه المعاصر في سياق استراتيجي يهدف إلى تطوير قطاع المعلوماتية في تونس وضمان أوفر الحظوظ للاستفادة من خدماته في مجال التنمية بمعنى خلق سبل تنموية بديلة

13. عرفت المعلوماتية ثورة انطلاقا من [illegible] ميكانيكية وقد اعتبر [illegible] عنصرا أساسيا [illegible] على السرعة و[illegible] والقدرة على تخزين المعطيات لقد استطاعت شركة IBM في ذلك الوقت أن تجعل من جهاز الحاسوب مادة حيوية ومتاحة للجميع

14. تم في هذا المجال تنفيذ مشروع [illegible] عربي الإدارة العامة للمواصلات ويهدف هذا المشروع إلى تطوير نظام [illegible] قواعد بيانات موجهة اللغة وسيتم تصميم حاسوب [illegible] الحروف العربية على أساس مواصفات [illegible] [illegible] اختباري انظر الدكتور أمين القلق المجلة العربية للعلوم العدد 13 سبتمبر 1989 صفحة 77

15. رضا بو كراع جريدة الصدى التونسية مرجع مذكور سابقا.

16. يقول الدكتور [illegible] [illegible] على [illegible] الإلكترونية التي [illegible] الأساسي الدائم وكل ما يحتاج إليه في [illegible] تغطية الخدمات [illegible] أو ارسال المعلومات بالفاكس بحيث [illegible] على الإطلاق [illegible] الشبكات [illegible] [illegible] الإرسال المتكررة [illegible] بمصادر الحوسبة والاتصالات التي [illegible] تحقق من قريب أو من بعيد استقلالا عن عوامل المكان والزمان.

17. [illegible] الكثيرون من علماء الاجتماع [illegible] [illegible] [illegible] الحقيقية وقد [illegible] الإعلاميون العرب [illegible] [illegible] وقد ساعدت وسائل الإعلام الجديدة على [illegible] التي [illegible] ثورة في [illegible] [illegible] وضع الأخرين الذين يعيشون عيشة أفضل منه نصر محمد أحمد اسماعيل علي الإعلام العربي والوعي الاستهلاكي مجلة الوحدة العدد 54-1989 صفحة 107

الاستفادة بصفة مبكرة من الابتكارات في الحقل العلمي وجعل رمنية المستقبل زمنية حافزة تأتي بالتجديد لا زمنية عبء تدفع إلى السكونية (statique) والخمول (4). لذلك سعت تونس إلى كسب الرهان، ولكسب هذا الرهان فإنها تؤكد على ضرورة التعاون الفني والتكنولوجي مع الاتحاد الأوروبي حتى يكون خير تجسيم للتنمية المتضامنة" (5)

فإذن تطرح هذه المرحلة على سياسة التشغيل العديد من التحديات والتي يجب مجابهتها بتحديات مثلها، للفوز بالرهانات الجديدة، والتي تتطلب مجابهتها بالعمل على بناء نظرة إستشرافية لمشروع التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

وبما أنه لا نجاح لأي تنمية اجتماعية دون أن تكون مستجيبة لأهم المطالب والإنتظارات الاجتماعية، وإن أهم المطالب التي تفرض نفسها بإلحاح منذ الاستقلال إلا وهي مسألة التشغيل التي أرّقت ذاكرة المجتمع التونسي، فقد جعلت المخططات الاقتصادية من التشغيل الغاية من كل تنمية والوسيلة لتجسيد كرامة الفرد والركيزة لتحقيق التوازن الاجتماعي

إن ما نشهده من تحولات سريعة - والتي مست كل اقتصاديات العالم - وطبعا بدرجات متفاوتة حسب طبيعة التعامل والاستعداد وخاصة في مجال التقنيات الحديثة، ونذكر منها التقنيات الروبوتية (Robotique) والأوتوماتكية (Automation) والإعلامية L informatique - أدت إلى عديد التغيرات في مجال المخططات التنموية والتصورات الإستشرافية للتشغيل

وهنا نتساءل ما هو أثر هذه التحولات والقفزات النوعية في عالم تكنولوجيا المعلومات والاتصال على التشغيل المؤجر والمستقل، وعندما نتساءل عن أثرها فنحن نؤكد على ما هي الإضافات التي حملتها إلى عالم الشغل. وكيف ذلك - وهل ساعدت على خلق تزاوج ناجح بين العرض والطلب توالدت من خلاله فرص ذهبية للتشغيل وإذا كان ذلك كذلك، فما هي النتائج الحاصلة وهل هي مطمئنة وقادرة على تأمين مستقبل التشغيل في تونس؟

هناك من يرى أنّ الانفتاح وضرورة الزيادة في القدرة التنافسية للشركات التونسية يؤدي حتما إلى هذا التهافت على جلب التقنيات الجديدة عن طريق الاستيراد وهذا من شأنه تقليص إحداث مواطن شغل جديدة، وخصوصا في الصناعات المعملية التي كسبت فيها تونس تجربة متميزة، ولكن لماذا ذلك - لأن الآلة - حسب هؤلاء تعوّض العامل وتسلبه إرادته وحقه في الشغل (6)

لكن هذه الرؤية المناهضة لأثر الإعلامية الإيجابي على النهوض بالتشغيل ربما تجاهلت - بشيء من القصد - الأثر الإيجابي والسريع والعجيب لتكنولوجيا المعلومات والتي أدت إلى الرفع من نسبة تغطية الطلب الإضافي للتشغيل، وذلك نتيجة لانفتاح الاقتصاد التونسي على العالم منذ المخطط السابع

فالانفتاح على اقتصاديات العالم وما تشهده من تحولات هيكلية أدى إلى مزيد تدعيم القدرة التنافسية للاقتصاد التونسي وقدرته على خلق مواطن شغل جديدة ووراء ذلك عوامل عديدة، لعل أهمها ما نطلق عليه عادة بالثورة المعلوماتية - والتي غيرت بنية المعاملات وعدلت من صورة الأنا في تعامله مع الآخر، من التنازع إلى التضامن، ومن التصادم إلى التآلف ومن التحفظ إلى الانفتاح.. وعوضت علاقات المد والجزر والأخذ والرد والتقارب والتباعد والعنف والتآخي السابقة... بعلاقات انفتاحية تحكمها المصالح المشتركة (7)

وقد جاء ذلك نتيجة التحكم بصفة جيدة في الموازين المالية والتي طبعتها تكنولوجيا التعامل الرقمي بسيماتها الخاصة

فماهي إذن الملامح العامة للمشهد الإتصالي العالمي؟ وكيف أثرت في اقتصاديات العالم؟ وبالخصوص الاقتصاد التونسي الذي دخل في انتعاشة حيوية منذ تبنيه مشروع الاندماج في الاقتصاد العالمي مع أواسط الثمانينات، وما هو أثره المباشر المؤجر والذاتي على التشغيل في تونس؟ وهل مثل فردوس الفرص الرائعة لتجميد ما يطلق عليه البعض "بفيروس البطالة" وإكساب مشروع التنمية مناعة لا احتمال لمرض عضال ينتابه؟

2) الملامح العامة للمشهد الاتصالي العالمي:

لقد أفرزت التطورات التكنولوجية [illegible] من المجتمع الصناعي إلى المجتمع الإعلامي الشامل فلئن [illegible] الكهرباء أساس الثورة الصناعية، فإن قوام الثو[illegible]

الإتصالية نسيج عنكبوتي من الشبكات المعلوماتية والتي هي وليدة تزاوج ثلاثة نظم والتي يمكن ذكرها كالتالي :

أولا : الهاتف والفاكس والتلكس

ثانيا : المجال السمعي والبصري

ثالثا : الإعلامية

وقد أفضى هذا التزاوج إلى بروز نظام متعدد الوسائط (Multimedia)، والذي مهد السبيل إلى فتح مسالك جديدة، تخوّل معالجة كمّ هائل من المعطيات الرقمية وتوزيعها وخزنها ـ سواء كانت هذه المعلومات صورة أو صوتا أو نصا ـ وبذلك أصبحت المعلومة مادة استراتيجية لا تقل أهمية عن الطاقة. فقد اعتبر محمد جدلاوي أن قطاع المعلومات والاتصالات: يعتبر من أهم التطورات التكنولوجية التي شهدها العالم المعاصر، إلى درجة أن شبهه بالتطورات السحرية على مستوى الشكل والمضمون ويعطي لذلك مثلا الأنترنت التي تبقى الأكثر استفادة من هذه التطورات التكنولوجية المتجددة والتي أكسبها على حد قوله ـ ثقة المستخدمين في مختلف أرجاء العالم (8) وبفضلها أصبح العالم بمثابة "قرية إلكترونية" (9).

وبفضل كل ذلك أصبح من اليسير تحديد معلومة معينة حول موضوع محدد يرغب مستخدم الشبكة في الحصول عليها، وبتكاليف متواضعة. فلقد أصبح ممكنا الآن بفضل الحاسوب الإلكتروني والنظم الخبيرة تمثيل المعلومات بواسطة رموز سهلة المعالجة إلكترونيا، وتخزين هذه الرموز في ذاكرات (memoires) إلكترونية واسترجاعها واستغلالها في عمليات الإنتاج والتسويق والتنظيم والضبط (10).

فقد بين منصف العباري، أنه بفعل هذه النقلات النوعية، أمكن دعم إنتاجية المؤسسات وتعزيز قدرتها على المنافسة، نظرا لما توفّره من جودة ووفرة في السلع والخدمات (11).

فانطلاقا من هذه القفزات النوعية التي شهدها العالم لم تعد قوة الدول تقاس فقط بوفرة مواردها الطبيعية وقدرتها الاقتصادية والعسكرية، بل يقاس أيضا بمدى سيطرتها على تكنولوجيا الاتصال وتبادل المعطيات ونوعيتها المتنوعة وأشكالها الرقمية.

وفي هذا المجال بيّن عبد الحفيظ هرقام أن نسبة نمو الصناعات الاتصالية في البلدان المتقدمة بلغ 10% سنويا سنة 2000، ويتوقع أن يرتفع ذلك إلى 14% مع سنة 2010 (12) والذي يتيح تدريجيا التقليص من البطالة بالإضافة إلى إحداث مواطن عمل جديدة توفرها الصناعات المستحدثة نتيجة لذلك.

وانطلاقا من كل ذلك يدرك الدارس أهمية تهافت بلدان العالم، وخاصة المتقدمة منها كالولايات المتحدة الأمريكية على الصناعات الاتصالية بمزيد تطوير اقتصادياتها.

فلئن كان مدّ شبكة ضخمة من الطرقات بالولايات المتحدة الأمريكية في الستينات قد كان أهم مصدر لتطور الاقتصاد الأمريكي، فإن السلطات السياسية راهنت على قطاع الاتصالات بعد ذلك من خلال برنامج ضخم أطلقت عليه اسم ـ الطرق السيارة للاتصال ـ أو الطرق السيارة الالكترونية، وذلك قصد تحقيق ما أطلق عليه بالاقلاع الاقتصادي، إضافة إلى تقوية أسواقها الخارجية ووضع يدها على مراكز الضغط العالمي وجعلها تحت رقابتها. وكان لها ذلك فعلا بفضل قدرتها على امتلاك التكنولوجيا المتطورة.

وانطلاقا من هذه التحولات في العالم وسرعة نسقها يبدو عنصر الزمنية عنصرا فاعلا في هذه النقلات النوعية المتسارعة، والتي فرضت تقسيمات جديدة للعمل في العالم.. فهذا البرنامج الذي اكتسى بعدا عالميا يعتمد أنظمة معلوماتية، تعتمد نظما متكاملة (الهاتف والقمر الصناعي والكمبيوتر) لربط ما يطلق عليه بالمستفيد، سواء كان فردا أو مجموعة أو مؤسسة لتشكل ما يطلق عليه بالألياف البصرية (Fibres optiques) والتي شبهها ـ BILL GATES ـ صاحب مؤسسة مايكروسوفت المتخصصة في صنع البرمجيات LOGICIELS بالإسفلت أي تلك المادة المستعملة لتعبيد الطرقات وهو تعبير مجازي

بعد بأن هذه البرمجيات تعتبر بمثابة السكة للقاطرة (13) إذ تحمل هذه الألياف والكوابل (Cables coaxiaux) كمّا هائلا من الإشارات الرقمية، تجمع وتخزن وتحلل حتى تكون قابلة للاستغلال بالطرق الفنية للارسال والاستقبال من طرف المتقبل، الذي يطلق عليه بال...

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، ما هي مكونات الشبكة وكيف تعمل؟

الباقات الرقمية والتي هي ذات جودة عالية

وانطلاقا من هذه المعطيات الإعلامية المكثفة يطرح محمد جدلاوي السؤال التالي قائلا" بعد كل هذه المزايا التي لا تحصى ولا تعد" والتي توفرها الشبكة العالمية لتراسل المعطيات في مجال التشغيل، هو لماذا لا تستعمل هذه التقنية المعلوماتية الاتصالية كوسيلة وطريقة مفضلة لدى شباب الدول العربية للبحث عن شغل وكل ما يتعلق بالتشغيل (19)

لعل الجواب عن ذلك يتطلب منا دراسات واستبيانات حول ضعف الاقبال من طرف هؤلاء، مقارنة بما يتم في الدول الغربية، والذي يمكن بفعل هذه الوسائل من تحقيق إنجازات كبرى في مجال التعويل على الذات في البحث عن شغل ومن بينها فضاء الخدمات الحرة الذي يعتبر من أهم الفضاءات التي تمكن طالب الشغل من الاطلاع على عروض الشغل والتكوين المتوفرة وطنيا وجهويا وحسب القطاعات المختلفة، كما تمكن أصحاب المؤسسات ومختلف المتدخلين في سوق الشغل من الإطلاع على المهارات المطلوبة. هي تترجم ما حققته البشرية من تطورات تكنولوجية ونقلات نوعية في مستوى المعلومة والاتصال في العقدين الأخيرين

والسؤال الذي يطرح نفسه من حين إلى آخر، هو كيف تعاملت تونس ومن خلالها سياسة التشغيل مع هذه النقلات النوعية في عالم تكنولوجيا الاتصال؟ وكيف استفادت منها لتجعل من زمنية الاحداث زمنية حافرة بلغة F Prodel في كتابه "تصريف الحضارات" (La grammaire de la civilisation)

3)المنظومة الاتصالية الوطنية وموقع تونس في الشبكات الدولية:

لقد سعت تونس جاهدة للاستفادة بصفة مبكرة من هذه التحولات على الصعيد العالمي وما تدخله من تغيرات في بنية العلاقات الدولية وفي مستوى التعاملات الاقتصادية وما تحدثه من تقارب بينها... وذلك لبناء المشروع المجتمعي الحديث" القائم على تلازم البعدين الاقتصادي والاجتماعي

فكان أن اعتمدت سياسة الانفتاح لتحرير اقتصادها بعدما شهدت البلاد تفتحا سياسيا أبعد عنها شبح أزمة اختلال الموازين المالية وقيمة المبادلات. كل هذه العوامل جعلت تونس تعتمد إصلاحا هيكليا أعاد إليها انتعاشها وذلك تجسيما للمشروع المجتمعي الحديث، واستجابة لانتظارات المجموعة الوطنية والهياكل الاجتماعية

فقد عرفت تونس نقلات نوعية، وخاصة في مجال النهوض بالتشغيل، وبالخصوص تلك التي تهم الشباب فظهرت العديد من الحوافز والتشجيعات "من أجل شباب تونس في المدن والأرياف" وذلك من خلال القوانين والأوامر المشجعة من طرف الدولة سواء في العمل الذاتي أو المؤجر، وهذا يدل على أن سياسة التشغيل راهنت على أن تجعل من التشغيل صدارة أولوياتها الأساسية دائما

وكل ذلك جاء في إطار مقاربة تنموية متكاملة وشاملة عززت تجذر تونس بأصالتها وفي المقابل اندماجها في تيار الحداثة بموازين سعت لأن تكون ثابتة وقوية، وذلك من أجل الفوز برهانات المرحلة القادمة من تاريخها، في ظل التحولات العالمية المتسارعة

لقد سعت تونس إلى وضع إستراتيجية صلبة في إرساء منظومة وطنية اتصالية حديثة "تساهم داخليا في النهوض بالانسان وتكريس حقه في الاعلام والمعرفة وتزيد خارجيا من إشعاع بلادنا من خلال التعريف برصيدها الحضاري وبخياراتها ومكاسبها (20).

فقد بين تقرير البنك العالمي أهمية التحولات التكنولوجية وعلاقتها بالنقلات الحاصلة في سوق العمل مؤكدة أن (21)

Le changement technologique affecte l'emploi agrege de deux maniere : creation d'emploi par le biais de l'introduction de nouveaux produits et services elimination d'emploi en remplacement des Personnes par des machines

واستجابة للمتطلبات الداخلية وما تقتضيه من تشكلات جديدة في مستوى البنى التحتية والفوقية أيضا، سارعت تونس إلى الرقي" بالقطاع الإعلامي المتعدد العوامل، والتي تنقسم طبقا للمحاور التالية

1) القطاع السمعي البصري :

إنّ من المكونات الأساسية للمنظومة الاتصالية الوطنية

تلك التي تتعلق بالقطاع السمعي البصري، والذي شهد تطورا كميا ونوعيا تجلى في ازدياد عدد القنوات والتي نتج عنها ارتفاع حجم البث.

ونعلم جيدا مدى تأثير البث على التعريف ببرامج التشغيل وتقريبها من المستفيد. كما أصبح للمواطن حق التقاط القنوات الأجنبية عبر الهوائيات منذ صدور قانون جانفي 1998 في الغرض. فقد قابل هذا "التفتح الواعي على الآخر" (22) حرصا على التموقع في الفضاء العالمي، بعدما سعى إلى إدراك منزلة المشارك الفاعل في بناء النظام الاتصالي العالمي الجديد(23).

فلقد قرر رئيس الجمهورية بث برامج التلفزة الوطنية والإذاعتين الوطنية والدولية بداية من 7 نوفمبر 1998 بواسطة القمر الصناعي الأوروبي - يوتلست 2 - وقد مكن هذا الإجراء من أن تحتل تونس مكانة هامة على الصعيد العالمي.

2) تونس والشبكة العالمية لتراسل المعلومات (الانترنات):

من المعلوم أن الانترنات هي مجموعة شبكات، وهي ركيزة أساسية من ركائز ما تطلق عليه أمريكا الطرق السيارة للاتصال ويعود تاريخ إنشائها إلى سنة 1969 من طرف وزارة الدفاع الأمريكية فقد ولدت الانترنات في البداية كشبكة خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية، لتصبح فيما بعد ذات بعد عالمي مفتوحة لجمهور واسع من المستعملين.

وتعد تونس أول بلد عربي وإفريقي يقتحم عالم الانترنات، وقد لعب المعهد الاقليمي لعلوم الاعلامية والاتصال عن بعد دورا هاما في انخراط تونس في المنظومة الاتصالية العالمية وذلك بغية إقامة بنوك للمعطيات وشبكات للاتصال، تساهم في تطوير البحوث العلمية والتعريف بالابتكارات والمبادرات الفردية في مجال النهوض بالعمل المستقل وذلك بتركيز مواقع الواب sites

ولقد أدخلت هذه التطورات عديد المستجدات على عالم الشغل الايجابية، والتي ارتقت بمستوى التشغيل إلى مراتب مشرقة، بالاضافة إلى الاطلاع على فرص العمل بالخارج ومقاييس الانتدابات.

فقد تمّ خلال 1996 إحداث الوكالة التونسية للانترنات والتي شبهها محمد جدلاوي صاحب كتاب - طريقك إلى المستقبل - بكونها "تقنية معلوماتية سحرية" مبينا أهميتها في مجال النهوض بالتشغيل" فشبكة الانترنات اليوم تقدم عشرات الآلاف من عروض الشغل في جميع أنحاء العالم كما أنها تساعد على التبادل الفوري بين المشغلين وطالبي الشغل (24). وقد وصف منصف العياري هذا التهافت على الانترنات في أطروحته - الإعلامية والتشغيل في تونس - بما سماه بالإعلامية الجماهيرية (25)

3) الاستراتيجية التونسية لتكنولوجيا الاتصال:

لقد عرفت تونس منذ أواسط الثمانينات كثافة في نسق الاصلاحات الاقتصادية الهيكلية وإصلاح الجهاز المالي، مع التحكم في التضخم بالسيطرة على التداين الخارجي والحد من عجز الميزانية ولايكون ذلك إلا بتطوير تكنولوجيا المعلومة والاتصال، والتي تعتبر الرئة التي تتنفس بها التنمية البشرية والاقتصادية والوسيلة لفرض الوجود في ظل المنافسة العالمية، وخصوصا على المستوى الاقتصادي. فقد تحدث الباحث المغربي سعيد تنحاوي عن المنافسة المتوحشة والتي يجب مجابهتها بتعزيز القدرات الداخلية للبنى التحتية وجعلها لصالحها لا محنة عليها (26)

فإذا بنت تونس إستراتيجية تعتمد تأهيل شبكات الاتصال والخدمات للارتقاء بها إلى أعلى درجات الجودة وفق خمسة نقاط أساسية وهي كالتالي

أولا : الرفع من نسبة التغطية الهاتفية

ثانيا : تعميم النظام الرقمي في مستوى الشبكة وتأمين شبكات الاتصال الوطنية والدولية لتحسين جودة الخدمات.

ثالثا : تطوير خدمات الاتصالات المتنقلة وخاصة منها نظام الهاتف الخلوي.

رابعا : تركيز الشبكات الرقمية للخدمات المندمجة وتعميمها لتمكين المؤسسات من الاستفادة من عديد الخدمات.

خامسا : مزيد تطوير الخدمات ذات القيمة المضافة وتعميمها كالفيديو تاكس والأوديو تاكس (27)

الإستراتيجية الوطنية لتكنولوجيا المعلومات:

إنّ المتتبع للمخططات الاقتصادية التونسية ومكانة التشغيل فيها يلاحظ بأن سوق الشغل شهدت تغيرات

عديدة من حيث التصورات النظرية ومن حيث التطبيقات الميدانية وكذلك من حيث التحديات التي تواجهها داخليا وعلى المستوى العالمي. فعلى مستوى التحديات الداخلية تتمثل أساسا في:

– ازدياد حجم السكان النشيطين من 54% سنة 1966 إلى 62% سنة 1989 فإلى 69% سنة 2001، ليقفز إلى 77% مع سنة 2005 (28). ويمكن ذكر ذلك في الجدول التالي عن المعهد الوطني للاحصاء (بالألف)

جدول 1 : ارتفاع السكان النشيطين (بالألف)

	1989	1994	1997	1999	2000	2001	2002	2003
ذكور	1806.4	2119.3	2255.7	2320	2419.2	2468.4	2520.8	2572.7
إناث	494.2	653.1	722.7	793.9	796.5	824.3	854.9	887.8
المجموع	2300.6	2772.4	2978.4	3113.9	3215.7	3292.7	3375.7	3460.5

(المصدر: إحصائيات حول التشغيل - المرصد الوطني للتشغيل والمهارات، ديسمبر 2003، وزارة التشغيل)

– أما التحدي الثاني فيتلخص في تزايد عدد الشبان بالنسبة للعدد الجملي للسكان النشيطين من 20% سنة 1966 إلى 23 % سنة 1989 فإلى 30% سنة 2000 (29).

ولمجابهة هذه التحديات راهنت سياسة التشغيل على تكنولوجيا المعلومات وجعلها في خدمة النهوض بالتشغيل "وبصفة موازية سيقع إيلاء الطلب في سوق الشغل العناية اللازمة وذلك بتكثيف البرامج الموجهة لطالبي الشغل"(30)

وللتعريف بهذه البرامج أعتمدت تونس على منظومة معلوماتية متطورة ودقيقة، مكنت طالبي الشغل والتكوين من الانتفاع بخدماتها. وقد كانت ذلك بفضل إتباع سياسة اقتصادية تعتمد الانفتاح والأخذ بالتجارب الأخرى والاستفادة من الثورات العلمية الحاصلة في العالم تعزيزا لمناعة الاقتصاد الوطني وتحقيقا للتوازن الاجتماعي.

فقد بيّن تقرير البنك الدولي أن تونس انسابت وراء هذه التحولات من خلال استثمار متزايد للزمنية والتأهيل المتواصل للطاقات البشرية

Alors que la tunisie est de plus engagée dans un "(engagée) processus d'ouverture et de restruction de son économie et sur la base de l'experience internationale...

وهذا يقتضي الأخذ بآخر المستجدات على المستوى التكنولوجي، حتى تجعل من زمنية المستقبل زمنية حافزة ذاتي بالجديد على حد عبارة - فانو برودال - فلقد أصبحت الإعلامية اليوم رهانا حضاريا حاسما يطرح نفسه بإلحاح شديد على كل بلدان العالم (32).

I) العلاقة الترابطية بين التشغيل والإعلامية :

بعيدا عن المذهب القائلة بأن للاعلامية أثر سلبيا على التشغيل، وأن الانسان يعيش صراعا مع الآلة حسب Alfred Sauvy - وأنها تسلبه إرادته وتفقده شغله، وبالتالي فهي مفرزة للبطالة (33)، وجب التأكيد - من خلال ما شهده العالم من نقلات نوعية - أن للاعلامية أثرا إيجابيا وذا طابع يبعث على الدهشة والانبهار، كما أكد المحللون على أهمية العلاقة بين التشغيل والاعلامية فالدولة المصنعة لم يكن لها أن تتقدم بالتنمية البشرية لولا ما توصلت إليه من إكتشافات على المستوى التكنولوجي وبالخصوص المتعلق بالثورة الاتصالية

أما في ما يخص التجربة التونسية، فقد جعلت من التطور التكنولوجي في ميدان المعلومة والاتصال هدفا أساسيا للرقيّ بمستوى التشغيلية وتقريب الخدمة من المواطن وبأسرع وقت وبأقل تكاليف

ومن المعلوم أن مفهوم الاعلامية قد وقع استحداثه أول مرة سنة 1962 من قبل Philippe Dreyfus ويعني به المعالجة الآلية للمعلومات

وقد وقعت الموافقة على هذا الاصطلاح من قبل الأكاديمية الفرنسية سنة 1966 في إطار التعريف الآتي :

الإعلامية هي المعالجة العقلانية بواسطة الآلات أوتوماتيكية للمعلومات، وبالتالي يمكن أن نطلق عليها كمنهج مستخدم في دراسة أنساق العمل (34)

كما تطلعنا عديد الدراسات أن للإعلامية، تأثيرا سحريا على النهوض بإحداثيات الشغل ويمكن أن نرجع هذه الدراسات إلى ثلاثة سياقات.

أولا : السياق الاقتصادي . ويدل على أن الاستعمال المكثف للإعلامية أحدث ثورة عميقة في نسق الانتاج، وكذلك في مستوى البنى الفكرية لعلم إجتماع الشغل وعلم إجتماع المؤسسة، وما ينشأ داخلها من تفاعل مادي ورمزي يكسبان المؤسسة ثقافة خاصة وهي نتاج لتفاعل العديد من الفاعلين، وما ينشأ عن ذلك من علاقات ودية تساعد على الرقيّ بالمؤسسة وبإنتاجيتها (35) كما عبّرت عن ذلك الباحثة التونسية رياض الزغل

فبسط ما تنتفع به المؤسسة من الإعلامية تأمينها لمصالحها الاشهرية، والتي تنمّي حسن اشتغال المؤسسة وبالتالي تنمو علاقاتها فتزيد حاجياتها على طلب اليد العاملة، وهذا يناقض ما ذهب إليه البعض بأن الإعلامية جاءت لتحدث شرخا أعاق التشغيل وأطرد العديد من الأيدي العاملة (36).

ثانيا : السياق التكنولوجي . بعد أن كانت الإعلامية حكرا على عدد قليل من الشركات الكبرى في بداية انتشارها، سرعان ما أصبحت ميزة للمجتمعات الحديثة، أطلق عليها منصف العيادي مصطلح الإعلامية الجماهيرية (l'informatique de masse) (37). وكل ذلك أدى إلى "نشوء مجتمعات إلكترونية محوسبة (38)

ثالثا : السياق الثقافي : ما يميز المشهد الثقافي حول التطور التكنولوجي، أنه تميز بنفحات نقدية للاستعمالات المكثفة لتكنولوجيا المعلومات على الحياة الاجتماعية، فقد أكد wassly Lentif بأن الإعلامية مهددة للتشغيل، وبين أن المهن التي ستتضرر كثيرا بفعل الإعلامية هي التعليم، ويشاطره الرأي الدكتور عبد الوهاب بوحديبة بأن "الإعلامية لم تلغ النظام التيلوري للعمل، بل دعمته [illegible] عبر تطعيم الآلة بما يسمى بالنظم الخبيرة أو الذكاء الاصطناعي (39). إلا أن Loyotard أكد [illegible] مبينا أن التسابق نحو امتلاك التكنولوجيا المعلوماتية هو أشبه بالتصارع من أجل الفوز بالمستعمرات".

إذ يبدو من غير المستبعد أن تدخل دول العالم في حرب من أجل السيطرة على المعلومات كما حاربت في الماضي من أجل السيطرة على المستعمرات" (40). وهذا يعني ضمنيا ما تمثله التكنولوجيا الحديثة من أهمية على مستقبل الشعوب، وخصوصا تلك التي تهم التنمية البشرية والاقتصادية المتوازية ومن أهمها إبعاد مظاهر التهميش والعمل على التنقيص من نسب البطالة والسعي جاهدة للرفع من طاقة التشغيلية لخلق تزاوج ناجح بين العرض والطلب.

2) التحوّلات المستحدثة بفعل الإعلامية :

إنّ من أهم النتائج التي يمكن أن نستخلصها من خلال المد الإعلامي وتأثير تكنولوجيا المعلومات والطرق الحديثة للاتصال.. أنها غيرت موازين العلاقات الدولية في مستوى بنية الاقتصاد والسياسة والإجتماع، ومن خلال استقرائنا لأثر الإعلامية . الخفي والمتجلي . على التشغيل، وما أدخلته من تغيرات على علم إجتماع الشغل. يمكن أن نتوصل إلى بعض النتائج التالية :

أولا : تعتبر الإعلامية عاملا حاسما ومحددا في عملية الشغل، فهناك مؤسسات لم تعرف نقلة نوعية في حسن اشتغالها إلا بعدما اعتمدت على تكنولوجيا متطورة للإعلام والاتصال وبالتالي طورت من إنتاجها، وغيرت من شكل معاملاتها، وأمكن لها مجابهة التحديات المستحدثة في عالم الشغل

ثانيا : ساهمت الإعلامية في تنمي حركة الاستثمارات، وبالتالي خلق مواطن عمل جديدة أمكن من خلالها التحكم في ما يعرف "بنقص التشغيل".

ثالثا : من الظواهر التي أفرزتها الحوسبة والإعلام المتطور، ظهرة تعدد الاختصاصات وهذا من شأنه أن ينمي قدرات المؤسسة بمزيد تأهيلها على مستوى الأجهزة وعلى مستوى الخبرات. كما تنامت مراكز التكوين المهني بفضل قدرة المنظومة الوطنية للاتصال على تكثيف تراسل المعطيات، وبأسرع وقت ممكن استجابة للمتطلبات [illegible]

رابعا : تشير الاحصائيات [illegible] المؤسسات الاقتصادية حققت أرباحا كبيرة بفضل [illegible] بشكل

عقلاني وشامل، فهي قد مكنت المؤسسات من التصرف المحكم وتحسين ظروف العمل.

خامسا : أحدثت تكنولوجيا المعلومات الحديثة عناصر جديدة في ما يطلق عليه بثقافة المؤسسة بإحداثها "تنشئة مهنية جديدة (41) (sociologie professionnelle)

وهذه التنشئة المهنية غير ثابتة لأنها مرتبطة بعنصر الزمنية، الذي يكسبها أشكالا جديدة من التنظيمات، والتي لم تكن محسوبة في الأشكال التنظيمية السابقة.

وعلى حد هذا القول يؤكد الباحث رضا بوكراع أنه "ليس هناك شكل تنظيمي ثابت ومحدد تكنولوجيا (42)

II) تجربة الوكالة الوطنية للتشغيل والعمل المستقل في توظيف التقنيات الحديثة للمعلومات.

لقد راهنت الوكالة الوطنية للتشغيل والعمل المستقل على تعصير مصالحها المختصة لتنفيذ مهامها على المستوى الكمي والكيفي المحلي والجهوي والقطاعي. لذلك عملت على تطوير خدماتها عن طريق تطوير وسائل العمل بالاعتماد على التنظيم الهيكلي لمكاتب التشغيل وربطها ببعضها عن طريق تراسل المعطيات (25).

1) النظم المعلوماتية للوكالة الوطنية للتشغيل والعمل المستقل :

عملت الوكالة منذ 1995 على إرساء نظام معلومات يربط بين كافة مكاتب التشغيل ويمكن هذا النظام من :

أولا : تبادل المعلومات بينها بصفة مسترسلة، وهو ما يطلق عليه الأحواض المشتركة

ثانيا : تحليل المعطيات وإصدار المؤشرات والجداول الاحصائية.

ثالثا : توفير المعلومات حول عروض الشغل بالداخل والخارج والأطراف المتدخلة في ذلك

رابعا : [illegible] المعلومات المخزّنة سواء عن طريق المطارف أو الكومبيوتر في إطار ما يطلق عليه الخدمات الحرّة

خامسا : استغلال المعلومات المخزّنة حول العروض والطلبات من أي مكتب دون الاتصال المباشر والميداني

2) آليات تراسل المعطيات بالوكالة التونسية للتشغيل والعمل المستقل :

لقد عملت الوكالة منذ إحداثها على تعصير أساليب التصرف، ولاسيما نظام المعلومات الموجه للعموم، فتم تعميم الإعلامية على كل مكاتب التشغيل وذلك بهدف تقريب المعلومة من طالب الشغل أو من أصحاب المؤسسات أو من غيرهم من المتدخلين في سوق الشغل.

وتعتمد المنظومة المعلوماتية بالوكالة على موزع للخدمات الحرة إلى جانب وحدة الإعلام المتعدد الوسائط (المطارف) وقد مكنت هذه التكنولوجيات الحديثة من متابعة منتظمة لسجلات طالبي الشغل والتكوين وتحسين الخدمات وتطويرها وتعميمها لفائدة جمهور عريض من المستفيدين ويمكن ذكرها كالتالي :

أ) وحدة الاعلام المتعدد الوسائط :

لقد شرعت الوكالة منذ سنة 2000 في إعداد وتركيز وحدات متعددة الوسائط حول التكوين المهني والتشغيل والمهن.

وهي تعتبر من أهم الوسائط التي تعتمدها بهدف تقريب المعلومة من طالبي الشغل والباعثين لمشاريع خاصة، باعتماد اللغتين العربية والفرنسية، إضافة إلى الصوت والنص، مع صياغة سهلة للمعلومات التي تتضمنها.

ب) موزع الحر للخدمات :

هو عبارة عن منظومة معلوماتية تتوفر لمختلف الفئات الطالبة للشغل والتكوين وتمكنهم أيضا من كتابة سيرهم الذاتية، والتي بفضلها تمكن العديد من الحصول على شغل، وذلك عن طريق ربط الموزع بالانترنت، التي تمكن المتدخلين في سوق الشغل من الاطلاع على خصوصيات طالبي الشغل الذين تتوفر فيهم المواصفات المشروطة في عروضهم.

ج) الموزع الصوتي :

انطلقت الوكالة منذ سنة 2000 في إعداد وتركيز موزع

صوتيّ حول التشغيل وتتضمن قاعدة المعطيات للموزع ثلاثة محاور.

أولا : خدمات الوكالة في اتجاه مختلف الفئات من طالبي التشغيل والانتصاب للحساب الخاص وأصحاب المؤسسات. وتتضمن الامتيازات التي توفرها برامج النهوض بالتشغيل وآليات صندوق الادماج والتأهيل المهني، وبرامج التشجيع على بعث المؤسسات الصغرى وطرق الانتفاع..

ثانيا : معالجة استفسارات وتساؤلات المواطنين حول مختلف المسائل المتعلقة بالتشغيل.

ثالثا : عروض الشغل المتوفرة بكل الولايات مبوبة حسب الاختصاصات وحسب نوعية الشهادات وحسب قطاع النشاط.

الخاتمة :

لقد تأكد فعلا من خلال ما حققه مشروع التنمية الاجتماعية والاقتصادية من انقلاب نوعية ازدهار تكنولوجيا الاتصال، فتغيّرت معها أنظمة الانتاج، وبنية المعاملات الداخلية والخارجية. وقد أفرزت تكنولوجيا المعلومات والاتصال ما أصبح يعرف بالاقتصاد الجديد أي الاقتصاد الرقمي والذي يعتمد بشكل كبير على الانترنات وما تحمله من إستراتيجيات منهجية حديثة في مجال الخدمات المتطورة والتي أدخلت تغيرات هيكلية على مفهوم السوق، باعتمادها طرقا جديدة للعمل وذلك لتأمين استقرارها وتوسيع مجالات نشاطها حتى تكسب الرهانات وذلك بتأهيلها من حيث جودة الخدمات التي تقدمها، في مناخ عالميّ إتسم بتحولات جذرية وسريعة.

كما أحدثت الثورة المعلوماتية بأشكالها الجديدة في التراسل الرقمي عبر ما يسمى – بالنظم الخبيرة – أشكالاً جديدة من المؤسسات، لها قدرة كبيرة على التأقلم مع المستجدات وجعلها في صالحها، وهو ما يطلق عليه بثقافة المؤسسة، والتي تكسبها المتغيرات الحاصلة في الميدان التكنولوجي كل يوم أثوابا جديدة من التأقلم والمرونة في التعامل، أي بإعادة وضع قواعد وإستراتيجيات نشاطها، وهو ما يعرف بالاقتصاد الجديد.

فالتغيرات الحاصلة في المستوى الاقتصادي والاجتماعي كانت بالخصوص نتيجة تطور تكنولوجيات المعلومات والاتصال، والذي نتج عنه تطور ملحوظ في مجال البحوث العلمية والدراسات الميدانية.

الإحالات:

1. التشغيل في اقتصاد متحول، مؤلف جماعي، منشورات التجمع الدستوري الديمقراطي - نوفمبر 1998 صفحه 9

2 - عبد الوهاب بوحديبة : لأفهم فصول عن المجتمع - الدار التونسية للنشر 1992 صفحة 48

3 - صلاح الدين بن فرج : الشباب والتشغيل في تونس، موضوع شهادة الكفاءة في البحث، تونس 1985 صفحه 13

4- F.PRODEL , la grammaire de le civilisation-Ed/seuil - PARIS 1978 page 62

5 - خطاب رئيس الجمهورية التونسية - الندوة الدولية السابعة - حول الآفاق الجديدة للعلاقات الأوروبية المتوسطية، تونس 3 - 4 نوفمبر 1995 منشورات التجمع الدستوري الديمقراطي

6- ALFRED SAUVY : la machine et le chomage -Ed/DUNOD-PARIS 1980 pages 9

7- الدكتور الطاهر لبيب، الأنا والآخر، منشورات المركز الجامعي، تونس 1999

8 - محمد جدلاوي : طريقك إلى المستقبل، المركز التونسي للكتاب، ماي 2003 صفحه 35

9- محمد جدلاوي : نفس المصدر صفحة 36

10 - منصف العشري : الإعلامية والتشغيل في تونس، شهادة الدراسات المعمقة في علم الاجتماع، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية تونس الأولى - تونس 1997 صفحة 6

11- محمد جدلاوي : طريقك إلى المستقبل، المركز [illegible] 2003

12- عبد الحفيظ الهرقام : الشبكات الاتصالية الجديدة [illegible] تونس 1998 صفحة 46 - منشورات مركز [illegible]

13- جميل عمر : الموضوعية والتحليل في البحوث [illegible]، دار الآفاق الجديدة، بيروت، صفحه 10.

14. عبد الحفيظ الهرقام: الشبكات الاتصالية الحديثة، مصدر مذكور سابقا، صفحة 48.
15. منصف لعياري: الاعلامية والتشغيل في تونس، مصدر مذكور سابقا، صفحة 6
16- MICHEL CROSIER . l'acteur et le systeme ed/seuil PARIS 1977 page 128
17. منصف العياري: الإعلامية والتشغيل في تونس، مصدر مذكور سابقا صفحة 21
18. الباحثة حسن الحرامي، سياسة التشغيل في تونس والمؤسسات الصغرى، شهادة الدراسات المعمقة في علم الاجتماع، تونس 2002 صفحة 6
19. عبد الحفيظ الهرقام، الشبكات الاتصالية الحديثة، مصدر مذكور سابقا، صفحة 49
20. محمد جدلاوي: طريقك إلى المستقبل، مصدر مذكور سابقا، صفحة 40.
21. عبد الحفيظ الهرقام، الشبكات الاتصالات الحديثة، نفس المصدر صفحة 51
22 DOCUMENT DE LA BANQUE MONDIALE Republique Tunisienne strategie d'emploi Volume 2 juin 2003 rapport numero 25456
23. الدكتور الطاهر لبيب: الأنا والآخر، مصدر مذكور سابقا.
24. عبد الحفيظ الهرقام: الشبكات الاتصالية الحديثة، مصدر مذكور سابقا صفحة 33
25. محمد جدلاوي: طريقك إلى المستقبل، مصدر مذكور سابق
26. منصف العياري: الإعلامية والتشغيل في تونس، مصدر مذكور سابقا، صفحة 30
27- SAID TANJAOUI : les entreprises marocains - Ed/ L'HARMATTAN-PARIS 1996
28. منصف العياري: الإعلامية والتشغيل في تونس، مصدر مذكور سابقا، صفحة 31
29. التشغيل: التحدي الأكبر للتنمية والتوازن الاجتماعي، مجلة الوطن، تونس 1998 صفحة 2
30. التشغيل: التحدي الأكبر للتنمية والتوازن الاجتماعي، نفس المصدر صفحة 3
31. الميزان الاقتصادي لسنة 2004 صفحة 28
32 DOCUMENT DE LA BA[illegible] strategie d'emploi - VOLUME juin 2003 page 4
33. منصف العياري: الإعلامية والتشغيل في تونس، مصدر مذكور سابقا، صفحة 1
34- ALFRED SAUVY : la machine et le chomage. Op cit page 12
35. بيار أنصار: العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، بيروت 1992، صفحة 270
36 - RIADH ZGHAL : la culture de l'entreprise
37 GUNTER FRIEDRICKS : l'informatique aujourd'hui - Dossier : le monde - septembre 1982
38. منصف العياري: الإعلامية والتشغيل في تونس، مصدر مذكور سابقا، صفحة 30
39- REVUE INFORMATIQUE : aout 1979.
40. عبد الوهاب بوحديبة: آفاق التنمية والثقافة في الوطن العربي، منشورات الألكسو، تونس 1990، صفحة 14
41 J.LOYOTARD : la condition post moderne. Ed/CERES 1994 page 602.
42. منصف العياري: الإعلامية والتشغيل في تونس، مصدر مذكور سابقا صفحة 127

المراجع المعتمدة في البحث

1. التقارير السنوية للوكالة الوطنية للتشغيل والعمل المستقل (2001، 2002، 2003)
2. الميزان الاقتصادي لسنة 2004
3. مقتطف من خطاب رئيس الجمهورية، الندوة الدولية السابعة حول الآفاق الجديدة للعلاقات الأوروبية المتوسطية، تونس 1995
4. محمد جدلاوي: طريقك إلى المستقبل، المركز التونسي للكتاب، تونس 2002
5. حنان الحرامي: سياسة التشغيل في تونس والمؤسسات الصغرى، موضوع أطروحة الدراسات المعمقة في علم الاجتماع، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية 2002 تونس
6. منصف العياري: الإعلامية والتشغيل في تونس، أطروحة التعمق في البحث
7. صلاح الدين بن فرج [illegible] في تونس، شهادة [illegible] علم الاجتماع) تونس 1989
[illegible] منشورات [illegible] الدستوري الديمقراطي، تونس 2002
[illegible] بوحديبة: آفاق التنمية والثقافة في الوطن العربي، منشورات الألكسو، تونس 1990
[illegible] عبد الوهاب بوحديبة: لأفهم فصول عن المجتمع، الدار التونسية للنشر، تونس 1992

11- صحيفة الوطن، تونس 1998
12- عبد الحفيظ هرقام : الشبكات الاتصالية الحديثة - مطبعة شركة فنون الرسم، تونس 1998
13- ندوة إحتياجات سوق الشغل - تونس 2002
14- بيار أنصار : العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة نخلة فريفر، بيروت 1992
15- Document de la banque mondiale. stratégie d'emploi en Tunisie VOLUME II juin 2003
16- Document de la banque mondiale. strategie d'emploi en Tunisie VOLUME I juin 2003
17- ALFRED SAUVY : la machine et le chomage - Ed/dunod - PARIS 1980
18- MICHEL CROSIER : Lacteur et le systeme Ed/seuil 1972
19- Revue informatique , Aout 1979
20- GUNTER FRIEDRICKS : l'informatique aujourd'hui. DOSSIER le monde 1982
21- F.PRODEL : la grammaire de la civilisation -Ed/seuil 1978

على مشارف المرحلة الثانية من القمة العالمية لمجتمع المعلومات:(تونس)
الديمقراطية المعرفية:العوائق والفرص المتاحة*

مصدق الجلبدي**

لا يغيب على أحد اليوم أننا نعيش على صعيد الكوكب ثورة تكنولوجية معلوماتية ليس لها مثيل في تاريخ البشرية. كما لا يغفل أحد عن حقيقة عالمية هذه الثورة : إنها آخر حلقة نصل إليها إلى حدّ الآن في سلسلة العولمات. فبعد العولمة الاقتصادية (التي بدأت في صيغتها الأولى مع الميركانتيلية ثم تطورت كثيرا بعد ذلك إثر حدوث الثورة الصناعية) جاءت العولمة البيروقراطية (نظرية المركز/ الأطراف)، تلتها العولمة العلمية (التي مازالت مستمرة إلى الآن بسرعات متفاوتة من مجال علمي إلى آخر)، [illegible] أخيرا [illegible] العولمة المعلوماتية التي نعيش على إيقاعها على أكثر من صعيد وبأكثر من طريقة. من ذلك مثلا وعلى صعيد قطرنا التونسي، تتهيأ بلادنا لإيواء المرحلة الثانية من القمة العالمية لمجتمع المعلومات (1) ولعله من المفيد في هذه المناسبة المتميزة أن نتدارس موضوع على غاية من الخطورة والأهمية : لقد جاء في إعلان المبادئ الصادر عن مرحلة جنيف للقمة العالمية لمجتمع المعلومات ما يلي:"منافع ثورة تكنولوجيا المعلومات ليست موزعة توزيع متساويا في الوقت الحاضر سواء بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية أو في داخل المجتمعات"

وهذا القول الصادر عن هيئة عالمية ذات المصداقية العلية يدفعنا في تحقيقه إلى محاولة سبر أغوار هذا التفاوت الحاصل في الانتفاع من ثورة تكنولوجيا المعلومات

فما هي أولا منافع هذه الثورة التكنولوجية المعلوماتية؟ وفيمَ يظهر التفاوت في منافعها بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية أو في داخل المجتمعات؟

وما هي معوقات التوزيع المتكافئ لهذه المنافع بين مختلف الأطراف المعنية؟

وأخيرا كيف يمكن تجاوز هذا الوضع المجحف في حق البلدان النامية من جهة وفي حق أبناء المجتمع الواحد المحرومين من ثمار ومنافع ثورة تكنولوجيا المعلومات من جهة ثانية؟

قبل أن نشرع في معالجة هذه الإشكالية المركّبة سنحاول تنزيل ظاهرة العولمة المعلوماتية ضمن السياق التاريخي المعرفي البشري العام

إنّ هذه العولمة الأخيرة لم تقفز على سطح الحقائق التاريخية فجأة وإنما [illegible] مخاض عسير لسياسات التداول المعلوماتي، زادت من عسره تخلف الوسائل المادية التي كانت بحوزة البشرية إلى جانب تخلف العقليات وإرادة السيطرة [illegible] في دوائر السلطات الروحية أو السياسية للمجتمعات.

(**) كاتب وباحث تونس.

لقد تقدمت المعلومة باتجاه العولمة وفق جدلية مادية تاريخية سالبة أو وفق جدلية لا مادية - تاريخية Une dialectique historique virtuelle وذلك بفعل التناقض بين وسائل إنتاج المعرفة من جهة وعلاقات التداول المعرفي من جهة ثانية. ووسائل إنتاج المعرفة هي تباعا: 1- الإدراكات الحسية الانطباعية الساذجة /2- الوحي (النص المؤسس من خارج عقل الإنسان عموما أو الإنسان العادي بالنسبة للمطربات الكبرى حول العالم على نحو أقل تعميما)/ 3- شرح النصوص المقدسة (دينيا أو إيديولوجيا)/ 4- ختم النبوة (رفع الوصاية عن العقول بوجه عام) وميلاد العقل الاستدلالي الحر (العقل الحديث عموما والعقل النقدي بصفة أخص)/5- الثورة التكنولوجية المعلوماتية الحديثة (تشظي الكوجيتو في زمن ما بعد الحداثة وترشح العقل التواصلي لتعويضه) بطبيعة الحال، لا يخضع هذا التقسيم للاعتبارات المادية الاجتماعية. إنه يقع تحديده في الحقل اللامادي المتناظر مع الحقل المادي الاجتماعي على نحو نمذجي - معرفاني خاص Cognitiviste. ومن هنا نلاحظ التصرف اللانمطي في الدياكرونية الزمنية (بناء محور زمني نفسي - معرفي لا يشبه الزمن الفيزيائي أو المادي الاجتماعي).

أما أشكال التداول المعرفي فهي خمسة وهي التي سنتوقف عندها أكثر.

1. مرحلة المشاعية المعلوماتية :

في هذه المرحلة لا تفاوت يذكر بين عمار الأرض في ملكية المعلومة وتداولها حيث كان الجهل معمما على الجميع والسذاجة صفة لكل العقول. كان الإنسان البدائي يباشر الطبيعة العذراء بيدين عاريتين وبحواس متنبهة لروائحها وألوانها وملامسها وطعومها وأصواتها فمعرفته بها إذن كانت مجرد انطباعات ولم يكن أحد من البشر ليتفوق على آخر من مجرد جهد الانطباع لأنه بطبيعته فعل سالب يقبل التطبع، إلا لدى أصحاب العاهات والعلل المحرفة للمزاج. وفي مرحلة تكون المجتمع (الجماعة أو الزمرة : قطيع، قبيلة، عرق...الخ) يصطنع لنفسه نظاما رمزيا دلاليا مشتركا لا يشذ عنه أي واحد منهم. هذا النظام الرمزي يحاك من أساطير وماورائيات واعتقادات وأوهام وأحلام وهواجس وتعاويذ وطواطم. كل هذه الأمور كانت مشاعة بين الجميع أما حكماء القبيلة أو الزمرة وشيوخها فمهمتهم هي حفظ تراث الجماعة والتذكير به. من رحم هذه المشاعية المعرفية تولدت المرحلة الموالية:

2/ مرحلة العبودية المعلوماتية :

إن العبودية بمعناها الشامل تدين في جانب كبير منها إلى العبودية الخاصة بمصدر المعلومة، أي، التبعية المطلقة لمصدر خارجي عن عقل الإنسان في استمداد المعرفة حتى بأدنى أمور الحياة. هذه العبودية عبودية طارئة على الجنس البشري وما قصدتها الأديان السماوية بذاتها، لأن مآل هذه الأديان كان الختم النهائي للوحي كي البشر يتخصصون في معرفة الطرق الأسلم لمعيشتهم (الأمن الغذائي وتوزيع الخيرات) ويبحثون عن حلول للمخاوف الباعثة عليهم (الأمن النفسي أولا ثم السعادة الروحية ثانيا كما في المسيحية). في هذه المرحلة كانت المعلومة حكرا على النصوص المقدسة (الكتب السماوية أو كتب الحكماء ككتاب الطاو وحكم كونفشيوس... الخ)

جاءت هذه الكتب بتشريعات تحل مشاكل الجماعة اليومية وجاءت بعقائد تحل لديها مشكلة الخوف من المجهول ومن ظواهر الطبيعة العنيفة. لم يكن بإمكان البشر عندئذ إنتاج منظومات تأويلية مصمتة مما أنتجوه بمحض تأثير هواجسهم. كان مجموعة كبيرة من الأغوال والعنقوات والعفاريت والآلهة المخيفة ومازالت بعض رواسب هذه المرحلة مستمرة في المخزون النفسي للعوام إلى يوم الناس هذا.

وفي مرحلة العبودية المعلوماتية هذه لم يكن أي شيء يفلت عن النص "كل ما في العالم يوجد في النص" "وما فرطنا في الكتاب من شيء". الكلمات هي مساوية للأشياء. ولكن المشكل أن الذين مازالوا يحنون إلى هذا الزمن المعلوماتي القديم لا يقدرون على قراءة الكلمات إلا عندما [illegible] الأشياء [illegible] قبل قراءة العالم من علماء الطبيعة

تولى الكهان والمشعوذون ومدعو النبوة في أثناء ذلك

وبعده (وإلى اليوم كما سنعود إلى بيانه لاحقا) مهمة إنتاج واحتكار المعلومة المتحكمة في مصائر الناس، تقليدا منهم للأنبياء والحكماء. ظل الإنسان عبد الحرف مدة دهور حتى انتقل إلى المرحلة الموالية

3/ مرحلة الإقطاع المعلوماتي :

لا ينطق النص بذاته، لذلك تنسج حوله قراءات وتأويلات وخيالات وتسقط عليه رؤى ورغبات ومخاوف وتطلعات فيغدو في صورة اتساق كل هذه الأمور مذهبا أو ايديولوجيا أو دوغما لن يظل الفرد في هذه المرحلة عبدا للنص مباشرة كما كان يتهيأ له ذلك في السابق بل يصبح "رضيا" بالتعامل مع جنرالات النص ووسطائه أئمة المذاهب وشراح النصوص المؤسسة. لا يحق للفرد عندئذ أن يعيش إلا على جزء من الأرضية المذهبية أو الايديولوجية التي "اختارها"

تماما كما كان يفعل الأقنان على أراضي النبلاء الذي يسخرونهم لخدمتها مقابل أدنى درجات الانتماء أي أقصى درجة التبعية. إنها عبودية مقنعة مهذبة بالمذهب

قال لي مرة أحد الشباب المتحمسين لمذهب "آل البيت" محتجا على معنى "ويأتينا يوم القيامة فردا" الذي ذكرته به،" كيف يمكن لأي كان أن يفهم مراد النص لوحده؟ ما الذي يضمن لي حسن فهمي له؟ لا ضامن لذلك إلا من أوتي سره ومعناه أحد أئمتنا عليهم السلام. هم وحدهم الذي يتأولونه لنا" هذا أمر الارثودكسية الدينية ولا يختلف عنهم أرثوذكسيو اليسار الماركسي الذين يضلون طريقهم خارج نصوص ماركس ولينين وأنجلز. كذلك خلت الفلسفة التي نعتت زيفا بكونها إسلامية من أخص مقومات التفكير الفلسفي عندما أعلن الفرابي أن " لا رأي بعد رأي هذين الحكيمين [أفلاطون وأرسطو]". أغلقت الفلسفة أبوابها وتحول العقل إلى نقل كما أثرته عن الفيلسوف المهاجر

الأمر نفسه بالنسبة لسلسلة الكتب الملونة أو الفاقدة لكل لون في زمننا هذا

تلاحظون هنا بلا شك تداخل الأزمنة وهذه حقيقة نفس-معرفية لا يعيش كل الناس في زمان معرفي واحد الانتقال إلى مرحلة جديدة لا يعني اضمحلال عناصر المرحلة التي سبقتها. يستمر القديم جنبا إلى جنب مع الجديد وتتراكب المنظومات التأويلية أو تتصارع أو تتفاعل سلميا أو تتجاور فحسب.

كان العلم في عصور مضت موزعا بين المذاهب فهناك العالم السني والعالم الشيعي والعالم الأباضي الخ وكانت (ولازالت، بحكم قانون التخلف حتى وإن زخرف ذلك بشعار التنوع والتعدد، فلا قيمة لتنوع في الجهالة والتعصب). وكانت هنالك مدارس وجامعات لا تقام حول فكرة العلم بالكلي وبالكوني وإنما حول كليات مغشوشة، أي في تحويل قسري للجزئي إلى كلي واهم وكونيات ذاتوية. وفي فترة الحرب الباردة ظهرت سوسيولوجيا ماركسية وسوسيولوجيا محافظة أو ليبرالية وعلم نفس جدلي مادي(فيقوتسكي، فالون...) أو علم نفس اجتماعي جدلي مادي(أريك فروم، هورني..)وعلم نفس بورجوازي (أريكسون، هافرست، هارتمان..) والحقيقة العلمية. أين هي؟ بالرغم من بعض سذاجة هذا السؤال يمكن القول إن علم النفس قد قطع شوطا هاما نحو الكونية بالتخلي عن وهم الكونية. أي عندما أرسيت فروع علم النفس الثقافي، الأخذ بعين الإعتبار للسياقات الثقافية وتنوعها في صياغة الجهاز النفسي لدى الأفراد

كذلك الأمر بالنسبة لعلم الإجتماع أو الأنتروبولوجيا الفلسفية اللذين نسبا بالانتروبولوجيا الثقافية، كما تم التحول من التاريخ المكراوي إلى الميكرو- تاريخ نقف هنا على مفارقة ابستمولوجية: ادعاء بصحة مطلقة على أرضية الجزئي والخاص يصح(هذا الإدعاء) لا على أرضية كوكب معرفي متلاحم وإنما على أرضية كوكب متعدد القارات والبحور والمشارب الثقافية الواحد الحقيقي هو المتعدد والمختلف. ما العمل مع المذاهب العقدية الدينية لتشهد نفس هذا المصير؟ لقد عالجنا هذه المسألة في مقال سابق، أعلنا فيه انتهاء علم أصول الدين، واقترحنا بدله الدراسة العلمية للظاهرة الدينية في أفق تعددي ومن منظور تفهمي لاختلاف المعقوليات(2).

خلاصة هذا القول أن الإقطاع المعرفي قد شمل تاريخيا مختلف أنواع الفكر في مجالات الدين، والإجتماع وعلم النفس والتاريخ والإقتصاد

4/ مرحلة الرأسمالية المعرفية:

منذ أن أسندت للمعرفة صفة الكلية والكونية وتهيأت الظروف المادية المواتية (ظهور النمط الإنتاجي الصناعي) أدرجت ضمن محتويات مدرسية ووزعت بطرق معينة على برامج روعيت فيها عدة أمور كالتدرج المنطقي والمرحلة العمرية للمتعلمين التي أصبحت تعرف في ما بعد بالمراحل المدرسية ورفع شعار "التعليم حق للجميع". وظن المتحمسون للديمقراطية المعرفية وأنصار الطبقات الإجتماعية غير المحظوظة (اجتماعيا وثقافيا) أن عصر ازدهار هذه الطبقات قد حل وأن التفاوتات الإجتماعية تشرع في الزوال بمجرد تخرج الدفعات الأولى من خريجي الجامعات الشاملة لنصيب وافر من أبناء الفقراء والمحرومين حتى جاء علم اجتماع التربية يكشف لنا مع بورديو وباسرون (3) عن زيف هذا الشعار وأنه في الواقع لا تفعل المدرسة أكثر من أن تعيد إنتاج نفس التفاوتات الإجتماعية الحاصلة بين عائلات المتعلمين وأن لغة المدرسة المجردة والمهذبة لا يحسن التعامل معها إلا من تعود على سماع مثلها وتداوله في عائلته. فالعائلات من هذه الناحية نوعين كما يقول برنشتين (4) عائلات ذوات مدونة لغوية ثرية (Code elabore) وعائلات ذوات مدونة لغوية هزيلة (Code restreint). أبناء العائلات الأولى يرثون رأسمالا ثقافيا رمزيا مرتفعا بينما ليس في رصيد أبناء العائلات المحرومة اجتماعيا وثقافيا إلا معجمية وبنيات لغوية ومعرفية وضباع في غاية البساطة والفقر والتخلف.

وهكذا تغدو المدرسة متوفرة على خزائن معلوماتية لا يملك مفاتيحها إلا أبناء العائلات المحظوظة اجتماعيا وثقافيا فهذه هي الرأسمالية الرمزية المساهمة في تقوية الرأسمالية المادية. بطبيعة الحال، يمكن للصلات الفردية القوية بالمعرفة أن تحطم قيود الحتمية الإجتماعية مثلما نوه بذلك برنار شارلو وجان إيفس روشاكس(5)، وفي هذه الحال يتمكن بعض الأفراد من الوصول إلى المعلومة وتداولها بقدر من المهارة والفعالية

5. مرحلة المشاعية أو الاشتراكية المعلوماتية (الديمقراطية المعرفية):

منذ سنوات عديدة أخذ الشكل المدرسي في التوسع والامتداد والتحول إلى فضاءات اجتماعية جديدة وأكبر ثورة حصلت في هذا المجال هو انتشار مقاهي الانترنات التي يرتادها كل الناس بمختلف الأعمار والفئات والشرائح ومن أهم ميزات هذا الشكل الجديد في تداول المعلومة أنه وسع الحقل التداولي العمومي إلى أقصى حد. وبخلاف ما عليه الأمر في المدارس التي توزع مرتاديها على شعب دراسية واختصاصات تضيق عليهم دائرة الاطلاع المعرفي، فإن هذه المقاهي تترك لحرفائها الحرية في اختيار المعلومات التي يودون استهلاكها بحيث يمكن لطالب في الهندسة المدنية مثلا أن يطلع على الصفحات الثقافية لجريدة القدس أو لأستاذ تفكير إسلامي أن يطلع على بعض الجوانب العلمية لظاهرة الاستنساخ، كما يمكن لتلميذ من الجنوب التونسي أن يتعرف على نمط التفكير لدى أحد شباب القارة الأمريكية.

إن منافع الثورة المعلوماتية تكاد لا تحصى ولا تعد ولذلك فإننا سنقتصر على ذكر بعضها موزعين إياها على النحو التالي.

- منافع ثقافية إنسانية : إن سهولة تدفق المعلومات من طرف الكوكب إلى طرفه المقابل وفي كل الاتجاهات ليحقق بالمعنى القوي مفهوم التثاقف (L acculturation) بين الشعوب والحضارات والثقافات والأمم. وييسر إلى حد كبير التعارف بين الأفراد والجماعات الرسمية وغير الرسمية المنتمين إلى مختلف الثقافات. ولا يخفى على أحد فائدة هذا التعارف والإطلاع على فكر الآخر وإنجازاته. إنه بدرجة أولى يقلص إلى أبعد حد مسألة التمركز حول الذات والإنغلاق فضلا عن رفع سوء الفهم الحاصل في كثير من الحالات بين هذا الطرف وذاك والإثراء المتبادل للرصيد المعرفي والثقافي العلمي والأدبي في مختلف المستويات

إن ثورة تكنولوجيا المعلومات هي الآن بصدد تخليق إنسان جديد يجمع بين الكونية والخصوصية معا. وهو ما يستحق إفراد قسم دراسي له داخل اختصاص الأنتروبولوجيا بوجه عام والانتروبولوجيا الثقافية بوجه

- منافع تعليمية : تربوية :

إن من أخص خصائص الطرق التربوية الحديثة هو

تمركزها حول قطب المتعلم، وهذا من ثمرات الفلسفة الإنسانية لروسو وغيره من فلاسفة التربية من ناحية، ومن ثمرات المدرسة البنائية Le constructivisme لرائد علم النفس النشوئي جان بياجيه من ناحية ثانية، إلى جانب عدد من الروافد الأخرى كالتجديدات البيداغوجية الحاصلة على يد عدد من رواد البيداغوجيا النشيطة كدكرولي ومنتسوري وجون ديوي وغيرهم. إن حلم البيداغوجي بجعل المتعلم هو مركز العملية التربوية برمتها أصبح بالإمكان الآن تحقيقه بفضل ثورة تكنولوجيا المعلومات كيف لا وقد أصبح بإمكان المتعلم اليوم أن يتحرر من وصاية الكهل ضمن هذا الفضاء المعرفي التربوي السيبرنيطيقي الذي أعطى الأولوية للتفاعل والتواصل وردود الأفعال المتكافئة على حساب هيمنة أحد الأقطاب في العلاقة التربوية التقليدية. لقد أصبح المتعلم في هذه الوضعية الجديدة شريكا تربويا حقيقيا يؤثر في مجرى التمشيات التعليمية التعلمية على نحو واضح ولم يعد للمعلم أو المدرّس بصفة عامة من دور سوى دور الوساطة الميسرة والمرشدة لعمل المتعلم واختياراته.

- منافع مدنية : وصفة المدنية هنا نستوحيها من مفهوم المجتمع المدني. إن سهولة الوصول إلى المعلومة وتبادلها مع الآخرين قد سهلت على المجتمعات المدنية تحقيق قدر كبير مما يعرف بالديمقراطية المعرفية أو الديمقراطية المعلوماتية، فأن تكون المعلومة محتكرة بسبب الطرق التقليدية في حفظها، بيد بعض الأطراف فقط داخل مجتمع ما فإن هذا لا يؤهل بقية الأطراف للمشاركة الواعية والمسؤولة في صنع القرار. واحتكار المعلومة الذي يعيق عن إشراك الأغلبية المستنيرة في اتخاذ القرارات في مختلف مستوياته أمر مناف للديمقراطية بمعناها الحديث ويشكل خطرا على استقرار المجتمع المدني.

ولا نقصد بذلك المستوى السياسي بالذات بل وخاصة كل المستويات الوسيطة في الإدارة والمعمل والمدرسة ومركز الأبحاث والكلية وحتى في مستوى أصغر خلية اجتماعية : الأسرة نفسها. إن الحاسوب العائلي الموصول بشبكة الانترنات يسهم بشكل فعّال في تنشيط الحوارات بين أفراد الأسرة ويضعف بشكل إيجابي البنية الباترياركية للأسرة العربية، فيخدم ذلك مفهوم المرأة (الزوجة) ومفهوم الطفل (ذكرا كان أو أنثى) ويضفي مفهوما جديدا على الرجولة ضمن مفهوم أوسع هو مفهوم الإنسان الواعي المتحرر من العقد النفسية - الإجتماعية المرضية.

- منافع اقتصادية:

لقد أخّرنا الحديث عن المنافع الاقتصادية لثورة تكنولوجيا المعلومات إلى هذه المرحلة وذلك عن قصد، وهو ما عكس ما يذهب إليه الذهن في العادة وذلك لأن هذه المنافع لا تتحقق دائما بصفة مباشرة من خلال التداول الواسع المحلي والعالمي للمعلومات بل إنّ قدرا عظيما من المنافع الاقتصادية يتحقق بفضل العناصر السابقة التي ذكرناها: الثقافية والتربوية والمدنية فالتنمية منظومة شاملة ومركزها هو الإنسان وهذا الإنسان متعدد الأبعاد. ولقد يسرت منظومات تكنولوجيا المعلوماتية المرور من النمط التنموي الإنتاجي القديم وفق ما رسمته التايلورية (التي من خصائصها العلاقة العمودية بين صاحب العمل والعامل ومراقبة المنتوج في نهايته) إلى نمط اقتصادي جديد يعرف بمقاربة الجودة L'approche de l'excellence (6)

وفي مقاربة الجودة تستبدل العلاقة العمودية بين صاحب العمل والعمال بعلاقات أفقية بين مختلف الأطراف الفاعلة في عملية الإنتاج وتراقب جودة المنتوج في كل مراحله بمشركة حقيقية للعمال المؤهلين. إن ثورة تكنولوجيا المعلومات قد يسرت كما ذكرت ظهور هذه المقاربة وتطبيقها وإنجاحها. وإن مفهوم الفاعل الإجتماعي L'acteur social الذي نحته Raymon Boudon (سنة 1972) (7) ليجد هنا كمل تحققه في زمن هذه الثورة المعلوماتية لم يعد هنالك من مبرر لهدر أي طاقة مادية كانت أو بشرية.

بطبيعة الحال، بإمكاننا الحديث عن المنافع الاقتصادية للثورة المعلوماتية بطريقة أكثر مباشرة فنذكر مثلا الحصول على المعلومة المفيدة للباحثين والتجار والمستهلكين وعقد الصفقات (وهو أمر سيزداد سهولة مع ضبط آليات محكمة ومضمونة للتوقيع الإلكتروني) إلى غير ذلك من المنافع المباشرة، إلا أننا أردنا أن نؤكد أكثر

على عمق التأثير الذي تمارسه ثورة تكنولوجيا المعلومات على الصعيد الاقتصادي من خلال الإشارة إلى تأثيرها الوسيط في الإنسان الذي هو في رأينا أثمن ثروة تنموية على الإطلاق

ما ذكرناه هنا من منافع الثورة المعلوماتية لا يستوفي لا من قريب ولا من بعيد كل أوجه المنفعة الحاصلة أو الممكن حصولها على هذا الصعيد وإن هي إلا مجرّد أمثلة لتقريب فكرة هذه المنافع إلى الأذهان

وإنّ ما يخفيه لنا المستقبل من مفاجآت بهذا الخصوص يستحيل على كل عقل التنبؤ به بكل دقة وبالكامل

فهل أن توزيع هذه المنافع توزيع متكافئ بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية؟

من خلال عديد المؤشرات يمكن القول بأننا مازلنا بعيدين جدا عن تحقيق غاية كونية كهذه

لنأخذ مثلا التفاوت الكبير في النسب المائوية بين عدد مستعملي الحواسيب أو المبحرين عبر الانترنات أو المتراسلين ألكترونيا بين الدول المتقدمة (أمريكا وأوروبا مثلا) والدول النامية (الدول العربية مثلا) فمازالت البلدان العربية على هذا الصعيد لا تتعدى النسب ذات الأعداد المكونة من رقم واحد: الاثنان بالمائة أو الأربع بالمائة أو الستة بالمائة، بينما تتجاوز النسب الحاصلة لدى البلدان المتقدمة هذه الأعداد بكثير

يمكننا أيضا أن نتناول مؤشرا آخر على هذا التفاوت المعلوماتي، وهو عدد صفحات الواب العربية مثلا ونظيراتها الفرنسية أو الانقليزية

لنعط مثالا واحدا وهو في ذاته جزء صغير مما تروجه المؤسسات المستعملة للمعرفة الرقمية في الغرب إن المكتبة الوطنية بفرنسا والتي تحوي أكثر من عشرة ملايين عنوان كلها متوفرة على شبكة الانترنات (8)، هذا مثال واحد عن بلد أوروبي ويكفي كمقابل له لدينا نحن العرب أن نستحضر أية جامعة أو مكتبة عربية لنرى الفارق العملاق بيننا (نحن العرب) وبينهم (هم الأمريكيون والأوروبيون).

بطبيعة الحال لا يعني هذا عدم وجود جهود متواصلة لردم الهوة "الرقمية" بين هذين العالمين والدليل على ذلك المؤتمرات العالمية التي تعقد في بعض البلدان العربية (القاهرة مرتين مثلا وتونس التي تستعد لاحتضان القمة العالمية لمجتمع المعلومات) والسعي الحثيث الذي نشاهده في بلدنا من قبل الدولة لمد شبكة استخدام الحواسيب والانترنات على أوسع نطاق في المدن والأرياف، وفي الجامعات والمدارس الإبتدائية ونوادي الأطفال وحتى المعاقين لم يحرموا من هذه الفرصة، تم مثلا تركيز وحدة حواسيب خاصة بالمعاقين والمكفوفين في المركز الجهوي للإعلامية الموجهة للطفل بقابس ومع ذلك وبالرغم من كل هذه المساعي فالفرق بين الدول المتقدمة والدول النامية بما فيها بلدنا تونس مازال واضحا إن لم نقل كبيرا جدا

بقي الآن السؤال الكبير حول الأسباب المكرسة لهذا التفاوت

إن أسباب ذلك عديدة وتقع على عدة مستويات نذكر

- الأسباب التاريخية: ومن أهمها الاستعمار الذي حرم عديد البلدان من قدر وافر من إمكاناتها وثرواتها وصرف طاقات أبنائها نحو مقاومته عوضا عن الانصراف إلى معركة البناء والتنمية.

- **الأسباب الثقافية**: أو العوائق الثقافية تتمثل خاصة في انغلاق قطاعات واسعة من المجتمع على نفسها وانخداعها بكونها ذات إرث حضاري وثقافي وعلمي ( ) يغنيها عن الالتفات إلى ما يجدّ لدى الآخر الغربي من تطورات سريعة شملت كل مناحي الحياة بما فيها هذا الجانب، الجانب التداولي المعلوماتي

ومن الأسباب الثقافية كذلك هو سيادة عقلية احتكار المعلومة من الحزائن التي أصبحت مجسّدة حتى في صلب البرمجيات العربية الإلكترونية و الأقراص المدمجة العربية نفسها بعدم تمكين المستعمل مثلا من تحميل القرص أكثر من مرة أو مرتين، بينما يبادر الغربيون ذلك بتطوير برمجياتهم وتجديد محتويات أقراصهم المدمجة باستمرار [illegible] عندئذ إلى تحيين معلوماتهم بمتابعة الجديد [illegible] في الانتفاع بثمرات التكنولوجيا المعلوماتية لا يقع فقط بين المستوى المتقدمة والبلدان النامية بل إنه يمتد كذلك إلى داخل كل مجتمع

على حده وخاصة بين أفراد المجتمعات النامية كالمجتمعات العربية.

من تجربتي الشخصية (فضلا عن الاحصاءات الرسمية المبيّنة لهذا الضرب من التفاوت المعلوماتي أو "الرقمي") أطلع على حالات تعتبر من المنظور الكوني الجديد حالات غريبة في هذا المستوى.

من ذلك مثلا أن تجد رئيس جمعية ثقافية أو تربوية لا يمتلك أدنى خبرة في استعمال الحاسوب وحفظ المعلومات واستخراجها من الأنترنات كما أنني أعرف عددا من الباحثين في مستوى الدكتورا لايحذقون إلى الآن الإبحار عبر الانترنت أو التراسل الإلكتروني.

لم أشأ أن أتحدث عن حالات الأحياء الفقيرة أو بعض الأرياف لأن أسباب التفاوت في الانتفاع بثمرات الثورة التكنولوجية المعلوماتية تتجاوز في نظري المسائل المادية ومسائل الإمكانيات، إنها تمتد إلى مستويات أشد تعقيدا وهي مستويات الوعي والعقلية. مازال المثقفون وشطر كبير من الباحثين في بلادنا على هامش العالم "الرقمي" ولم يصحوا بعد من طواعية العصر السبراني (Cybernetique) ولعل سبب ذلك يعود إلى طبع تربوي تقليدي توارثوه Un Habitus بالمعنى الذي تحدث عنه بورديو Bourdieu في La Distinction أو "الورثة" Les Heritiers (مع جاك باسرون) فمنه مما يرث الفرد من عائلته ومن محيطه يرث الرأسمال الثقافي الرمزي، وكيفية الحصول على المعلومة وإنتاجها يتبع هذا الرأسمال الثقافي الرمزي.

وهذا الوضع يمثل بطبيعة الحال عائقا كبيرا أمام تقدم البحث العلمي في بلادنا وعائقا كبيرا أمام التنمية إن كثيرا من الباحثين لم يمتلكوا إلى الآن حتى وعي الصاحب ابن عبّاد الذي روى عنه ابن خلكان أنه كان يصطحب معه في أسفاره حمل ثلاثين جملا من الكتب، فلما أن ألف الاصفهاني "أغانيه" (كتاب الأغاني) ونظم فيه معارف من سبقوه واختصرها بطريقة منهجية، استغنى به الصاحب بن عباد عن كل الكتب الأدبية الأخرى [illegible]

عند بيت البيرو [illegible] الثورة [illegible] حمل أثقال من الكتب يجدها جميعا منظمة ضمن نصوص مترابطة Des hyper-Textes في قرص

مدمج واحد أو في "فلاش ديسك".

كيف نقلص من الفوارق "الرقمية" بين بلدان الشمال وبلدان الجنوب وبين أفراد المجتمع الواحد كذلك؟

هذا ما علينا التفكير فيه الآن، وإنه لمن محاسن "الصدف" أن نتصدى لمعالجة هذا الموضوع ونحن على أبواب القمة العالمية لمجتمع المعلومات التي ستنعقد بتونس في الأيام القادمة.

- على الصعيد الدولي : ليس كثيرا على الدول الغنية أن تقتنع بضرورة مساعدة الدول النامية على الانتفاع الأقصى من الثورة التكنولوجية المعلوماتية الحالية وذلك بسببين على الأقل.

- أولا: تسديد بعض دينها التاريخي لهذه البلدان التي استغلت ثرواتها طوال أحقاب مما مكنها من توفير ما سماه أنور عبد الملك بـ" فائض قيمة تاريخي" مكنها بدوره من إنجاز ثورتها الصناعية التي سهلت عليها لاحقا توفير الإمكانات اللازمة لإنجاز ثورتها المعلوماتية.

- ثانيا: إن من مصلحة تلك البلدان المتقدمة نفسها أن تجد شريكا كفءا تتعامل معه بلغة واحدة كونية وأن تجد سوقا واسعة لترويج منتوجها المعرفي.

ولكن بما أن الذكاء البشري ليس له لون أو عرق فإن على البلدان المتقدمة، ألا تحرم أبناء البلدان النامية وألا تحرم نفسها بالذات من الاستفادة من كل ذرة من ذرات هذا الذكاء بإعطائه الفرصة حتى ينمو ويبدع وينتج بضاعة معرفية راقية. وإننا لنأمل أن تحقق قمة تونس قدرا وافرا من هذا الهدف.

- على الصعيد العربي : لقد انطلقت بعد محاولات التنسيق بين الجهود لتطوير الإمكانات العربية في مجال تكنولوجيا المعلومات ولكن هذه الجهود مازالت بحاجة إلى مزيد من البذل والابتكار والمبادرة وإلى التخلي عن روح التجارة بمعناها الضيق.

- على الصعيد الداخلي (الوطني)

على هذا الصعيد نحتاج إلى مواصلة الجهد لتكريس المزيد من الديمقراطية المعرفية الرقمية وإلى طلب مساعدة المؤسسات الاقتصادية للمؤسسات التربوية في

هذا المستوى، كما نحتاج خاصة إلى القيام بحملة توعية لصيقة متواصلة داخل أوساط المثقفين من أدباء وباحثين لإقناعهم بجدوى الولوج إلى الفضاء السيبرني من جهة وبيسر ذلك لمن توفرت لديه القناعة من جهة ثانية

هذه بعض الأفكار والمقترحات التي نتقدم بها لكل الفاعلين الاجتماعيين بمختلف مستوياتهم للمساهمة في بناء وتخليق الإنسان الكوني والإنسان العربي والإنسان التونسي الجديد.

فهل سنكون في مستوى الحدث وهل سنكون في مستوى الآن (بدون هنا!)؟

الإحالات:

* هذه المحاولة تحصّلت على الجائزة الأولى في مسابقة الخفاجة حول مجتمع المعلومات والفجوة الرقمية التي نظمتها وزارة التعليم العالي ووزارة تكنولوجيات الإتصال (التقسيم الخماسي إضافة بعد المسابقة)

1. انظر مثلا جريدة La Presse, 18 Juin,2005

2. انظر مقال "علم أصول الدين هل حان زمن القطيعة، الحياة الثقافية عدد جانفي،2005

3. Bourdieu et Passeron dans "les Heritiers" (1964) et "La Reproduction" (1970)

4. Basil Bernstein dans "Langage et classes sociales (1975)

5. Bernard Charlot et Jean-Yves Rochex d[illegible] et Savoir dans les banlieues et ailleurs (…992)

6. انظر مثلا التقرير الذي أعده للأمم المتحدة jacques Delors "l'éducation. un trésor caché dedans"

7. Raymc… …udon dans "l'Inégalité des chances" (1972).

8. انظر مثلا سعيد يقطين، "النص والنص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي"، دار الإنتماء، بيروت، الرباط، 2005

العولمة والثورة المعلوماتية و القيم الدينية في تونس

محمد فوزي المهاجر *

إن العولمة * ـ باعتبارها تداخل واندماج للاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة والسلوك والأموال والأسواق والقوى العاملة والتقنية ضمن إطار عالمي "كوني"، لا يعترف بسيادة الدول وحدودها وخصوصيات المجتمعات الإنسانية وهوياتها الثقافية (1)ـ هي عملية تاريخية مستمرة، ذات جوانب متعددة.

ولاشك أن ثقافة العولمة التي نعيشها اليوم، هي ثقافة السمعي ـ البصري التي تمارس الاغتصاب الثقافي غير آبهة بالهويات والقيم والأخلاق (2) إلا أن ذلك لا يعني أن تنحصر الشعوب بين التبعية المطلقة والانكفاء، بل لابد من اختيار طريق يسعى إلى إدخال نوع من النسبية والتاريخية للثقافات الخاصة من جهة ولما هو متاح عالميا من جهة ثانية

ويبدو أن بلادنا (تونس) ـ التي تنتمي لمنطقة البحر الأبيض المتوسط، هذا المركز العقدي ـ الثقافي الكوني الأول ـ تسعى لامتلاك الأدوات التي تهدف، إلى أن تحقق عبرها "الجراحة الثقافية للعولمة نفسيا" ولا أدل على ذلك من انخراطها في سيرورة دفاع إيجابي انطلاقا من سعيها لتحسين الإنتاج والإنتاجية، ووضع منظومة لتأهيل كل القطاعات والمجالات الحياتية، والانفتاح على الآخر (ثقافيا واقتصاديا وعلميا)، عبر الثقة في النفس، والأخذ بروح التكنولوجيات الحديثة. وما احتضانها للمرحلة الثانية (تونس) للندوة الدولية لمجتمع المعلومات، إلا استجابة طبيعية في هذا الاتجاه لأنه لا يمكن التحدث عن مستقبل للشعوب والبلدان بغير أن نضع في الاعتبار مستقبل المجتمع العالمي.

وإن مجتمع ما بعد الحداثة الذي نتحدث عنه اليوم، يقوم على نمط جديد وهو مجتمع المعلومات الكوني"، الذي يأتي بعد مراحل مر فيها التاريخ الإنساني، تميزت كل واحدة منها بنوع من أنواع التكنولوجيا : فمن تكنولوجيا الصيد، إلى الزراعة، إلى تكنولوجيا الصناعة، وأخيرا المعلومات. وقد أوضح السيد يسين* أن سمات مجتمع المعلومات هذا تستمد أساسا، من سمات تكنولوجيا المعلومات ذاتها، والتي يمكن إجمالها في ثلاث .

ـ أن المعلومات غير قابلة للاستهلاك أو التحول أو التفتت، لأنها تراكمية، تقوم على أساس المشاركة في عملية التجميع، والاستخدام العام والمشترك لها بواسطة المواطنين.

ـ قيمة المعلومات هي استبعاد عدم التأكد، وتنمية قدرة الإنسانية على اختيار [illegible] قرارات [illegible]

ـ أن سر الواقع الاجتماعي العميق لتكنولوجيا المعلومات، أنها تقوم على

(*) جامعي وباحث. تونس

أساس التركيز على العمل الذهني (أو ما يطلق عليه أتمتة الذكاء)، وتعميقه (من خلال إبداع المعرفة، وحل المشكلات، وتنمية الفرص المتعددة أمام الإنسان) والتجديد في صياغة النسق، وتعنى بتطوير النسق الاجتماعي.

وتبعا لذلك يلخّص بعض الباحثين مجتمع المعلومات في الملامح التالية:

1 ـ المنفعة المعلوماتية (من خلال إنشاء بنية تحتية معلوماتية تقوم على أساس الحواسب الآلية العامة المتاحة لكل الناس) في صورة شبكات للمعلومات المختلفة، وبنوك المعلومات، والتي ستصبح هي بذاتها رمزا للمجتمع.

2 ـ الصناعة القائمة ستكون هي صناعة المعلومات التي ستهيمن على البناء الصناعي.

3 ـ سيتحول النظام السياسي لكي تسوده الديمقراطية التشاركية، وتعني السياسات التي تنهض على أساس الإدارة الذاتية التي يقوم بها المواطنون، والمبنية على الاتفاق، وضبط النوازع الإنسانية، والتأليف الخلاق بين العناصر المختلفة.

4 ـ سيتشكل البناء الاجتماعي من مجتمعات محلية متعددة المراكز ومتكاملة بطريقة طوعية.

5 ـ ستتغير القيم الإنسانية وتتحول من التركيز على الاستهلاك المادي، إلى إشباع الإنجاز المتعلق بتحقيق الأهداف.

6 ـ أعلى درجة من مجتمع المعلومات، ستتمثل في مرحلة تتسم بإبداع المعرفة من خلال مشاركة جماهيرية فعالة، والهدف النهائيّ هو التشكيل الكامل لمجتمع المعلومات الكوني (2).

وبناء عليه يمكننا ملاحظة، أن مجتمع المعلومات الذي ترسمه هذه الأطاريح الفكرية، لا يعدو أن يكون ضربا من الأحلام. فهل يمكن تحويله إلى واقع؟

يجيب سيد يسين على هذا السؤال بنعم، معتمدا في ذلك على ثلاثة أدلة:

الأول: أن الكونية ستصبح هي روح الزمن في مجتمع المعلومات القادم ويرجع ذلك إلى الأزمات الكونية المتعلقة بالنقص في الموارد الطبيعية وتدمير البيئة الطبيعية، والانفجار السكاني، والفجوات العميقة الاقتصادية والثقافية بين الشمال والجنوب.

الثاني: أن تنمية شبكات المعلومات الكونية باستخدام الحواسب الآلية المرتبطة ببعضها عالمي، وكذلك الأقمار الصناعية، ستؤدي إلى تحسين وسائل تبادل المعلومات، وتعميق الفهم، مما من شأنه أن يتجاوز المصالح القومية والثقافية والمصالح الأخرى المتباينة.

ثالثها: أن إنتاج السلع المعلوماتية سيتجاوز إنتاج السلع المادية، بالنظر إلى قيمتها الاقتصادية الإجتماعية، وسيتحول النظام الاقتصادي من نظام تنافسي يقوم على السعي إلى الربح إلى نظام تأليفي ذي طابع اجتماعي يسهم فيه الجميع.

إلا أن كل ذلك لا يعني أن تشكيل مجتمع المعلومات الكوني عملية هينة، ذلك أنه يقف دونها تحديات عظمى ينبغي مواجهتها، وأول هذه التحديات المعركة الدائرة الآن حول ديمقراطية المعلومات، والتي هي الشرط الذي لابد من توافره لتفادي الشمولية والسلطوية.

وديمقراطية المعلومات تنهض على أسس: حماية خصوصية الأفراد، وتعني الحق الإنساني للفرد لكي يصون حياته الخاصة ويحجبها عن الآخرين. والحق في المعرفة، وتعني حق المواطنين في معرفة كل ضروب المعلومات الحكومية السرية، التي قد تؤثر على مصائر الناس تأثيرا جسيما. ونأتي بعد ذلك إلى حق استخدام المعلومات، وتعني بذلك حق كل مواطن في أن يستخدم شبكات المعلومات المتاحة وبنوك البيانات، بسعر رخيص وفي كل مكان وفي أي وقت. وأخيرا حق المواطن في الاشتراك المباشر في إدارة البنية التحتية للإعلام الكوني، ومن أبرزها عملية صنع القرار على المستويات المحلية والحكومية والكونية.

ومن التحديات التي يواجهها تشكيل مجتمع المعلومات أيضا، تنمية الذكاء الكوني، أي القدرة التكيفية للمواطنين [illegible] جهة الظروف [illegible] متغيرة بسرعة (3).

هكذا نتبيّن أن العولمة تطرح على الشعوب تحديات ومخاطر كبرى، على رأس قائمتها مخاطر الأحادية الثقافية

والفكرية ومشكل التعامل مع الثورة العلميّة والتكنولوجيّة*** ،وضغوط التحديدات الاقتصاديّة والتشكك بين الأنا والآخر

وإننا واعون بأن سيرورة العولمة تتّجه بالإنسانيّة لنظام سلّم قيم عولمي (منظومة قيميّة) جديد، دعامته التكييفات والمواءمات للحياة الإقتصاديّة والسياسيّة والثقافية والأخلاقيّة. وبناء عليه فإن التحدي الذي تواجهه الإنسانيّة اليوم دون تردّد، هو الحفاظ على القيم والأخلاقيات الذاتيّة في وقت يعلم فيه الجميع أن أيّ بلد يرفض هذه العولمة سيكون مصيره السقوط لا محالة

إن انتقال العالم من العصور الوسطى إلى عصر التنوير، ومن الإقتصاد الفلاحي إلى الصناعي. ثمّ من الموجة الصناعية إلى الموجة المعلوماتيّة التي تمثل ذروة الحداثة يحتّم على الجميع إدراك أنه ليس من حقه أن يرفض الأمر الواقع بشكل اعتباطي ولكن ليس له أيضا قبوله بكلّ بساطة، بل لا بدّ من اتّخاذ موقف نقدي تجاه السائد. أي موقف نقبل بمقتضاه العولمة إذا كنّا سنتحكّم فيه، ونرفضها إذا كانت هي تحكمت فينا لتقذف بنا في متاهات تمسّ قيم الحقّ والخير والعدل والسلام

هكذا نتبيّن أن اختيار تونس لاحتضان المرحلة الثانية لقمّة مجتمع المعلومات، هو إدراك منها أن العولمة ليست فكرا فحسب، ولكنّها وقائع تقنيّة فرضت نفسها على الساحة الكونية فالمهمّ إذن ليس رفض الظاهرة ولكن التساؤل: ما الذي تستوجبه؟ أو كيف يمكن الاستعداد لها؟ وماهي الآليات التي تمكّننا من التعامل معها، مع الحفاظ على الخصائص الذاتيّة والقيم الإنسانيّة(الدينيّة والوضعيّة) الأصيلة التي تكفل مصلحة الإنسان عامة؟

ولا ريب أن لظاهرة العولمة كما يؤكد المفكّر المغربي "محمد عابد الجابري" علاقة متينة أيضا بالبعد الثقافي، إنها تكرّس للثنائية في الهويّة ثنائيّة التقليدي والعصري، الأصيل العتيق والحداثي لذا لا بدّ من حسم مشكلات التجدّد والتطوير، و إعادة البناء لأن الحاجة إلى الدفاع عن الهويّة الثقافيّة لا تقلّ عن الحاجة [illegible] والأدوات التي لا بدّ منها [illegible] العولمة وحيث أن هذه الأخيرة تنسيق فلا يمكن مواجهته إلاّ من داخله . فلا سبيل إذن إلى مقاومة سلبيّات العولمة إلا من داخل العولمة نفسها، بأدواتها وبخرائجها، وفي قيمها وتجاوزاتها (4)

إننا في هذا العصر إذن نمرّ بفترة انتقاليّة، إنها مرحلة العولمة السياسية والإقتصاديّة والثقافيّة، تبعا لتعمّق آثار ثورة علميّة وتكنولوجيّة، وامتداد ثورة الاتصال الكونية. هكذا يبدو أن عهد الهويّة التي تصاغ بشكل شمولي قاهر قد انتهى وولّى

إن هذه المرحلة الجديدة التي نعيشها قد أثبتت إذن تهافت كلّ الأنساق الفكريّة المغلقة والصيغ الشموليّة الجامدة للأيديولوجيات والأديان، التي حاولت صياغة عقل الإنسان وفق مشيئة مجموعة من الأحبار والكهّان والمشائخ الذين تجاهلوا الرّوح الحقيقية للدين التي تقوم على التسامح والحوار والإنفتاح

وإدراكا منا أن الهويّة الثقافيّة المميّزة للشعوب لا تنفصل عن الثقافة الإنسانيّة ككلّ، نؤكّد في هذا الإطار ما ذهب إليه "السيد يسين" أن مشكلة التفاهم الدولي هي مشكلة علاقات الحضارات ومن هذه العلاقات يجب أن يظهر مجتمع عالمي جديد على أساس من التفاهم والاحترام المتبادل. ويجب أن يتبنّى هذا المجتمع العالمي الجديد نزعة إنسانيّة جديدة، بحيث تتحقّق فيه العالميّة من خلال الاعتراف بالقيم المشتركة بين الحضارات المختلفة(5). يقول الفيلسوف القرطبي ابن رشد (1126-1198م) " لا بدّ أن يستمع الإنسان أقاويل المختلفين في كلّ شيء يفحص عنه، إن كان يجب أن يكون من أهل الحقّ من العدل أن يقام بحججهم من ذلك ويذب عنهم، إن لهم أن يحتجوا بها، ومن العدل أن يأتي الرجل من الحجج لخصومه [أي لمحاوريه] بمثل ما يأتي لنفسه" (6) هكذا يبدو أن ثوابت الفكر العربي الإسلامي إيلاء الراي الآخر المختلف مكانة مركزيّة في صياغة الحقائق، ويظهر ذلك من خلال قول ابن رشد سالف الذكر

من هنا ندرك أن هذه المرحلة التي نعيشها يجب أن تشهد محاولات جديّة لأنصار الديانات (السماويّة خاصّة)، من أجل صياغة مواقف وآراء منفتحة تشبع الجانب الرّوحي في الإنسان من جهة، وتقوم بدورها الإصلاحي من أجل المحافظة على قيم العدل والحريّة والأخلاق من جهة ثانية لأنه لا أحد يستطيع أن ينكر ما للعامل الديني من أهميّة بالغة في حياة الإنسان، حيث بلغ تأثيره في

المجتمعات البشرية من العمق والحضور ما جعل المختصين في العلوم الإجتماعية المعنية بالدين كعلم الإجتماع والأنثروبولوجيا وغيره يجمعون على الإقرار بأن للدين قيمة ووظيفة كبيرة وجدوى اجتماعية معلومة.

من هنا يجب أن يوضع في الاعتبار أن هذه الصيغ الدينية الجديدة لا يمكن أن يكتب لها النجاح إلا إذا أسقطت الأنماط الجامدة والصور المتحجّرة فلا بدّ أن يأخذ في الاعتبار إذن، مسألة التفتّح على الثقافات ومحاورتها بالتي هي أحسن إنه حوار يهدف إلى تكريس نزعة إنسانية جديدة تقوم على الحرية والتسامح واحترام الآخر في اختلافه.

ولا شكّ أن هذا الحوار قديم، قدم الحضارات نفسها ولكن الحاجة به - كما يقول سكريتير الأمم المتحدة الحالي كوفي أنان" - اليوم أصبحت أكثر إلحاحا من ذي قبل". إن الأفراد الذين يعيشون في خوف مفتقدين فهم الثقافات الأخرى، أقرب إلى اللجوء لأعمال الكراهية والعنف والتدمير ضدّ عدوّ متخيّل" (7)

بناء على هذا يمكننا إدراك أن صيغة خطاب ديني جديد(في عصر العولمة والثورة المعلوماتية) تمرّ عبر الأخذ في الاعتبار، لما توصّلت له الثورة التكنولوجية، والعلوم الإنسانية عامة. من أجل الحصول على خطاب مستحدث قادر على الإستجابة لروح الدين السمحة من جهة، ولمواكبة اللحظة التاريخية التي نعيشها من جهة أخرى

وإننا على يقين من أن روح الإسلام تستجيب كما يجب أن يكون لهذه المرحلة والمسلم يدرك جيدًا أن أحكام شريعته تدور حول محور مركزي هو الحفاظ على "المصلحة الإنسانية"، التي "تقدم وتراعى حتى على النصوص والإجماع". لذلك من الواجب في عصرنا الراهن اعتماد مبدأ "المصلحة" الإسلامي، عبر إيجاد منهج يجعل من محاورة الغير هدف لخدمة الحاجة الإنسانية." ولا شكّ عند كلّ ذي عقل صحيح أنّ الله عزّ وجلّ راعى مصلحة خلقه في مبدئهم ومعاشهم .. ومعادهم.." (8)

إننا في حاجة إذن إلى إعادة إحياء ثقافي بالمعنى الكامل، وضرورة التركيز على العقلانية والمنهج العلمي ويشهد التاريخ الثقافي للعرب المسلمين أنهم يمتلكون كأحسن ما يكون لهذه الأدوات التي تقرّ الاختلاف والتنوّع، رغم إيمانهم بالأصل الأنطولوجي الواحد وتدعو إلى الإنصات إلى الآخر والتعاون معه، والتحرّر من كلّ الرواسب الثقافية المغلوطة، تبعا لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (سورة الحجرات 49: 13) ولم يقل لتتنابذوا بل حثّ على التوادد والتحابب لا التسابب والتضارب والتعارف يقتضي تقاربا واتصالا بين المتعارفين وتسليما باختلاف كلّ منهما عن الآخر ولا يستمرّ الأمر بالتعارف مطلقا إلا إذا استمرّ التغاير والإختلاف بين الناس المخاطبين بهذه الآية الكريمة وروى أحمد عن معاذ بن جبل أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ الخلق كلهم عيال الله، أحبهم إليه أنفعهم لعياله﴾. فلا أجلّ من ذلك ولا أبلغ ولا أسمى.

بناء على كلّ ما تقدّم نستنتج أن عالمنا المعاصر يشهد مرحلة جديدة وصفها بعض الباحثين بأنها بداية تشكّل حضارة جديدة شعارها "وحدة الجنس البشري" ومما ساعد على تخليق هذه الحضارة الجديدة ليس فقط تحوّل النظم السياسية والإقتصادية، ولكن التحوّل من المجتمع الصناعي إلى مجتمع المعلومات العالمي(9)

وإننا على يقين من أن القواعد الأخلاقية للإسلام تتفق مع متطلبات هذه المرحلة التي تمرّ بها الإنسانية، وإن محاولات بعض الباحثين صياغة نسق للأخلاق الكونية يحكم التفاعلات بين الدول والثقافات والبشر يتّفق مع روح الإسلام، الذي ينكر المركزية الدينية، ويرى في تعدد الشرائع سنّة من سنن الله في الإجتماع الديني لا تبديل لها، يقول تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾ (المائدة 5: 48) وقال تعالى أيضا ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ (هود 11: 118-119). فالله تعالى خلقهم للتنوّع والاختلاف، ويريد [illegible]

[illegible] تنوعها وترابطها [illegible]

الخالق المعبود وفي الإيمان والعمل الصالح الذ[illegible] الإنسان أينما كان.

هكذا نتبيّن أن عقيدة الإسلام خلقت من تفكير المسلم، تفكيرا سليما يمكّنه من حسن معاملة الغير وقبول الرأي المخالف وهو مؤمن بصحّة عقيدته ومطمئن لما قاله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (المائدة 5:105). كما أوصى بحسن معاملة المخالفين الذين لم يظهروا عداوة للمسلمين في قوله : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ (الممتحنة 60: 8).

وباستقرائنا أيضا لمقومات موروث الفكر العربي الإسلامي نجد أنه يحترم اختلافات محاورة الآخر، وحرية الرأي، وإن المقومات التي وضعها وشرطها ما تزال صالحة حتّى اليوم، كأسلوب في التعامل بين الأفراد والجماعات بما يتضمّنونه من معتقدات وثقافات وإيديولوجيات. ونستخرج صورة هذا الآخر من كتب الملل والنحل، ومن المقالات، ومن الرسائل الفلسفية، ومن روايات الرحالة ومشاهداتهم، ومن كتب الجغرافيين والمؤرخين والفقهاء وغيرهم... يقول المفكر والجامعي التونسي "محمد الطالبي" في هذا الإطار : إن الرأي عندي هو أنه لا بدّ من أن نكسر حلقة العداء والإنخراط في العنف وردّ العنف. سواء كان ذلك كلاميا أو جسديا ونحاول أن نسمع صوتا آخر. ذلك هو مقصد الحوار أن نجد سبيلا في نطاق الاحترام المتبادل إلى قبول الغير كما هو وكما يريد أن يكون، وأن نجد في نفس الوقت سبيلا للتفاهم ولاكتشاف الفروق التي لا جدال فيها. وعلينا ألاّ ننسى أنّه يمكن أيضا أن نكتشف القيم المشتركة، وهي عديدة وأساسية تلتقي حولها وفيها كامل الأديان على صعيد واحد: محبة الله ورفض العنف، ومحبة العدل ورفض الظلم. وهي قيم أساسية، يمكن على أساسها أن ننمّي التفاهم، وننمّي الإخاء، وأن نبذر بعض البذور التي نأمل أنّها ستنبت في يوم من الأيام ثمارا حسنة، ثمارا تجعل البشرية قابلة للتعدد، قابلة للاختلاف، قابلة للتعايش السلمي. وقد دافعت أخيرا عن هذه الفكرة في [illegible] وندوات [illegible] : Respect l'être [illegible] وتعبيرة واضحة ومعناها باللغة العربية: "الإصرار على الاحترام" لأنه احترام يرفض أن يتزحزح قيد أنملة عن احترام الغير، مهما كانت الحالات ومهما كانت الأوضاع" (10)

من هنا نصل إلى أن المجتمع الإسلامي الحديث، في حاجة أكيدة إلى إعادة صياغة ثقافة جديدة تخلّص المسلم - الذي يحيا عصر العولمة والثورة التكنولوجية الحديثة - من النظرة الشوفيّة التي تخلط بين ما هو ديني وما هو دنيوي، وتحرّره من عقلية الخوارق التي تلغي دور الواقع والظروف المستحدثة، وتنفي العوامل الفاعلة والأسباب الموضوعية، ويمكّن المسلم من الإقتناع بأن لا وجود لحضارة يمكنها الاكتفاء بنفسها إنّها ثقافة لا تنفي القيم والثوابت الإسلامية السمحة بل ترسّخها، لأنها تؤكّد على الحقيقة التي تساعد على تخليص عقل المسلم الحديث من دعوى استغناء الحضارة الإسلامية عن التفاعل مع الحضارات الأخرى، وأن يعي استحالة عيشه وحيدا في هذه القرية الكونية الحديثة بتكنولوجياتها وثورتها المعلوماتية.

بناء على ما تقدم نستنتج أن العولمة منظومة جديدة للأفكار والقيم والسلوك، تهدف إلى إيجاد منظومة ثقافية جديدة. إنها ثقافة تقوم على قيم المنافسة وقانون البقاء للأفضل. إنها ثقافة تحكمها نزعة الهيمنة وإرادة اختراق الثقافات الوطنية الأخرى فلا بدّ إذن من الاستعداد لها كأحسن ما يكون، عبر الانخراط في مشروع الارتقاء بالخصوصي إلى مستوى عالمي، وما أخذ بلادنا (تونس) بناصية التكنولوجيات الحديثة، والانخراط في الثورة المعلوماتية، إلا استجابة في هذا الصدد ولا أدلّ على ذلك من تقدير العالم لها حين شرّفها باحتضان المرحلة الثانية من القمة العالمية لمجتمع المعلومات، التي ستعقد ببلادنا في نوفمبر 2005 فلا بد إذن من الاستعداد لهذا الحدث كأحسن ما يكون، لأنه فرصة لبلادنا حتى تبرهن للعالم أنها مواكبة لكلّ تطوراته العلمية والثقافية وهي فرصة لبلادنا حتى تبرهن للعالم أنها مواكبة لكلّ تطوراته العلمية والثقافية وهي فرصة لمثقفينا كي يبرزوا وجهة نظرهم من هذه التغييرات الجذرية التي تمرّ بها الإنسانية.

ونخلص من كل هذا إلى، أن دور المثقفين والباحثين، لا ينبغي أن يقف أبدا عند حدود معارضة العولمة من ناحية، أو قبولها كحتمية تاريخية لا مفرّ منها من ناحية أخرى. بل لا بدّ

لهم أن يخوضوا في صياغة بدائل مقترحات سياسية واقتصادية وثقافية لإجراءات العولمة أي لا بدّ من البحث عن أساليب تحديثية لمؤسساتنا الاجتماعية والفكرية للنفاذ إلى الرأي العام العالمي [illegible] من أجل إبراز رحابة تصورات الثقافة تجاه هذه الظاهرة [illegible] من مصلحة الجميع أن ندرك أن الاختلاف والتنوّع والإنصات إلى الآخر، والتحرر من رواسب الثقافات المغلوطة، كلها سلوكات من صميم محافظتنا على [illegible] الإنساني الذي كرّمه الله تعالى ثمّ إنّ هذه الحضارات لا تتناقض مع قيم ونقف [illegible] تستجيب لها كأحسن ما يكون لأنها في النهاية تهدف إلى رعاية مصلحة الإنسان.

الإحالات:

[illegible] حروب وسلام في القرية الكونية وتعني [illegible] تعريفة Globalization مصطلح [illegible] الكونية [illegible] احتواء العالم عبر تنميط الثقافات والقيم والأفكار [illegible] العولمة عن مفهوم Universalization التي تسعى للارتقاء بالخصوص بالمستوى العالمي، والتي هي طموح مشروع وتعكس رغبة في الأخذ والعطاء. (انظر: أحمد ثابت، العولمة وتداعياتها على الوطن العربي مجلة المستقبل العربي [illegible] فكرية شهرية، تعنى بقضايا الوحدة العربية، يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، العدد [illegible] ص [illegible])

1. [illegible] محمد الأمين [illegible] العرب والعولمة: ما العمل؟ [illegible] الثقافة والديمقراطية في مواجهة العولمة [illegible] العالم بين صدام الحضارات [illegible] مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، الطبعة الأولى، بيروت 2001، ص 30.

[illegible] مستشار بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية (مصر) [illegible] علم الاجتماع السياسي بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية و[illegible]

2. [illegible] سيد يسين، العالمية والعولمة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2002، ص: 26-27.

3. انظر نفس المرجع، ص: 27-28.

[illegible] [illegible] رئيس الدولة زين العابدين بن علي يؤكد في كلماته للمحافل الدولية على اتساع الفجوة الرقمية بين البلدان المصنعة والبلدان النامية [illegible] الكلمة الأخيرة التي [illegible] الوزير الأول السيد محمد الغنوشي أمام القمة الأفرو آسيوية بجاكرتا)

4. انظر محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مجلة فكر ونقد، السنة الأولى، العدد 6، فبراير 1998، ص 5-10.

5. [illegible] رونالد دراير [illegible] حوار الثقافات [illegible] من سنة [illegible] إلى سنة [illegible] مؤتمر أوروبا والعالم عقد في لشبونة [illegible] أكتوبر [illegible] انظر أحمد سيد [illegible] حوار الحضارات في عالم متغير، مداخلة قدمت في مؤتمر صراع الحضارات أم حوار الثقافات، منظمة التضامن، القاهرة، من 10 إلى 2 مارس 1997.

6. ابن رشد (أبو الوليد)، تهافت التهافت، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، المجلد الثاني، ص 26.

7. عن مقدمة كتاب "عقول الانقسام" (وهو عبارة عن تقرير أعدته مجموعة من المفكرين من [illegible] العالم [illegible] من أجل [illegible] الخصوصية الحضارية و[illegible] الأمم في منظومة [illegible] واحدة) [illegible] ميكرسكو وهو [illegible] الأمم المتحدة في موضوع حوار الحضارات سنة 2001. (انظر [illegible] عصفور [illegible] حوار بين ثقافات وشروطه، [illegible] عدد 98، ص [illegible])

8. انظر مصطفى زيد، المصلحة في التشريع الإسلامي، ونجم الدين الطوفي، ترجمة وتحقيق دار الفكر العربي، دمشق، ط 1، 1954، ص 35.

[illegible] السيد يسين، الحوار الحضاري في عصر العولمة، دار نهضة مصر للطباعة [illegible] 2002، ص 260، 261.

[illegible] ...ment, Un respect têtu, nouvelles Cite, Paris 1989 [illegible]

10. الطالبي (محمد)، عيال الله: أفكار جديدة في علاقة المسلم [illegible] حوار مطوّل أجراه شكري مبخوت [illegible] حسن بن عثمان، سلسلة شواغل، دارة حسن بن عثمان، دار سراس للنشر [illegible] 1992، ص 169.

****** وما الانخراط في الثورة المعلوماتية إلا استجابة طبيعية في هذا الاتجاه

نص جديد ينشر لأول مرة بالفرنسية لغوستاف فلوبير:

حياة وأعمال ر.ب. كروشار*

ترجمة : حسونة المصباحي

مهدى إلى السيدة البرونة دودفان ولدت أورور دوبين (١)

ولد بارتولومي، ديسيس، رومن كروشار في "م نيكرفيل ـ نيس ـ كيكارميل"، التابعة لأسقفية "ليزيو" وقد وضعته أمه، وهي فلاحة بائسة، فجأة، ودونما ألم في معصرة للسدّر ـ حيث كانت تعمل عندئذ ـ حتى أن كروشار اعتاد أن يقول في مابعد " سيدنا المسيح ولد في اسطبل وأنا في معصرة" طرفة لم يكن يتعب من تكرارها وهو يعلّم الأطفال الصغار العقائد الدينيّة

ولم تتميّز سنواته الأولى بأي شيء يذكر. فقد أمضاها في الريف حيث كان يحرس الدواب دون أن يظن أن أحد أكبر أحبارنا كانت له بدايات متواضعة هو أيضا. لكن عوض أن يضيّع وقته في ما لا يعني، مثلما يمكن أن يفعل ذلك آخرون كثيرون، كان يحصّص ساعاته ليغنّي الأناشيد الدينيّة تحت الأشجار ناحتا بسكينه أشياء خشبيّة صغيرة ومختلفة ترمز للتقوى والورع وفي قلب مثل هذه الانشغالات، فاجاه ذات يوم المونسنيور كويس، أسقف الأبرشيه، وهذا الحبر الورع، لم يتمكن من حبس دموعه، أمام هذه البراءة، وهذه الطهارة بعد أن طرح أسئلة على الفتى كروشار وأصبح معجبا بأجوبته سلّمه إلى راعي كنيسة "فوكرندوي" وبعد ذلك بثلاث سنوات، قبله ضمن العشرين بأسمحة الدراسيّة والتي كان يرعاها هو نفسه في معهد "ليزيو"

غير أن آمال المونسنيور، خيّبت في بداية الأمر بشكل عريب. فكروشار، وبرغم انكبابه على الدراسة، كان دائم الأخير في الصف، وكان يبدو غبيّا حتى أن الادارة قرّرت طرده من المعهد، ووالداه اللذان كانا قد شرعا تحت رعاية المونسنيور يحلمان بالحصول على الثروة، أصيبا باليأس عندما قرّر كروشار الحج الى "هوكوميل" ليلتمس مساعدة السيدة مريم العذراء ورعايتها ثم عاد إلى المعهد وكان يوما طلب فيه من التلاميذ كتابة موضوع انشائي وحصل كروشار على المرتبة الأولى

ابتداء من هذا الوقت، لم تعد حياة كروشار سوى سلسلة من الانتصارات

ولا سنة واحدة لم يحصل فيها على الجوائز الأولى وبذلك امتدّ صدى نجاحاته بعيدا في الأسقفيّة. وكان الناس سعداء برؤيه هذا الشاب الذي كان يهرب من المدائح ليتحصّن في غرفته حيث ينشغل بجدّ واجتهاد بثقافة الآداب الدينيّة والدنيويّة

وكان في نهاية المحاضرات والدروس المخصّصة للبلاغة عندما كتب لحفل توزيع جوائز المعهد، مسرحيّة تراجيديّة ـ سنيّة عنوانها : "تدمير سدّوم" وكان الموضوع صعبا ودقيقا غير أن كروشار عرف كيف يتحاشى

مخاطره ومزالقه بل إنه دفع بعيدا بكل ما يتصل باللياقة حتى إنه كان من الصعب على من قرأوا المسرحية، معرفة مضمونها ولكن مقتضيات الأدب والنظام في المعهد (وربّما عوامل أخرى) منعت عرض المسرحية ولا بد من الاعتراف بأن كروشار تكدّر بسبب ذلك شديد التكدّر.

وكان ذلك سببا من الأسباب التي جعلته يلقي بنفسه في عالم المنطق وحبه لتوماس الأكويني أصبح كبيرا جدا إلى درجة أنه أصبح يشغل جزءا من لياليه في قراءة وإعادة قراءة هذا الفيلسوف وبما أنه كان هناك دائما كتاب من كتبه في المبيت تحت الوسادة، فإنّ زملاءه كانوا يقولون بنوع من الحكمة إنه كان ينام مع "ملاك المدرسة (2) وبفضل هذا العمل الدؤوب والمتواصل، ولا ننسى أن ذلك تمّ بفضل رعاية تلك التي لم ينس أبدا فضائلها شرع شحاذة في التبشير والوعظ في كاتدرائية "بيوحيث"، وعلى مدى أيام الصوم الكبير ظلّ الناس مشدودين إلى ما كانت تنطق به شفتاه.

ولم تكن له عذوبة "بورداللو" أو ربما لم يكن يمتلك أدب "موسيون" غير أنه كان يقترب بالأحرى من "ماسكارون" من حيث الرونق في الوجه والأسلوب، ومن "شوميني" من حيث اللطافة، ومن الأب "بريدان" من حيث الحدّة والحميا(3)

بل إن هناك جانبا يمكن أن نؤاخذ عليه بلاغة كروشار، وهو إنها - أي هذه البلاغة - قوية إلى حدّ ما، أحيانا ولكي نستعمل العبارة الآسيويّة، هي شائبة مسموح بها لأصحاب المواهب الكبيرة وأمير الخطباء اللاتينيين تيم نفسه بالسقوط فيها عقب إقامة في جزيرة "رودس".

وقد كانت طريق النطق عند كروشار، في مستوى أسلوبه ولأنه وهب صوتا رنّانا فإنّه كان يرعد و مثل أشعيا جديد كان يفصل أن يكون عاريا، ذلك أنه كان مجبرا غالب الأحيان عند الانتهاء من خطبته أن يغير ثيابه ثلاث مرات من فرط غزارة العرق الذي كان ينصبّ منه وبسبب ذلك، ضعف تنفسه وبدا صدره وكأنه يحترق بنيران بلاغته. لذا قرر كروشار أن يركن إلى الراحة وقد استغل الفرصة للاتصال بالماركيز كريفاروتس، وهو سفير لدى ملك نابولي، وكان يرغب في أن يأخذه معه، ليقوم بزيارة إلى إيطاليا

حالما وطئت قدماه أرض "بفاندر" العجوز (4) انشغل كروشار بحماس شديد بالفنون الجميلة الميداليات، اللوحات، الأشياء العتيقة وكان يدرس ويسجل الملاحظات، ويلتهم كل ما كان يقع بين يديه حتى أنه رغب في تعلم اللغة العربيّة بمساعدة مرتدّ عن دينه تعرف عليه في "بارتينوب" القديمة وبسبب ذلك، أشاع أعداؤه أن كروشار على وشك أن يضع العمامة على رأسه

واعتقد كروشار أنه ليس من المشرّف له أن يجيب على مثل تلك النميمة البوصيحة غير أنه أحس أن عشقه للأدب يأخذه بعيدا وبعد ثلاث سنوات راغبا في العودة إلى فرنسا طلب أن يكون خوري أسقفية "ما ينكمب" التي لم تكن مهمة غير أنها منحته لما حصل على ما كان يسعى إليه، فرصة الانصراف، في أوقات الراحة إلى إعماله التي يمكن أن نذكر أهمها

- برج بابل- ثلاثة أجزاء

- أصالة الوحي حسب ما تؤكد ذلك كتابات مختلفة اكتشفت عند سكان شمال إفريقيا المتوحشين متبوعة بقاموس وبكتاب حول نحو لغة هؤلاء السكان

- الإلحاد المهزوم، جوابا على مقالات مختلفة لـ م.س. مجلدان.

- ارشيتوفال، أو مخاطر الطموح، رواية منشورة غفلا من اسم صاحبها.

- احتفالات كانفان مهداة إلى جماعة الـ "R.P.A"

- الشيطان وجانسينوس(5) حوار حسب ذوق اراسموس

- في ما [illegible] الداخل، وقدرة وبنية سفينة نوح والعدد الأصلي للحيوانات التي وضعت فيها والتي نشاهدها مجملة بصور جديدة، أربع مجلّدات

- كتاب الصلاة المسحوب من الآباء اليونانيين مع الاحالات لقواعد القدس ابنيس

- حياة المونسنيور كويس - 8 مجلدات

وبرغم هذه الأعمال التي أصدرها الواحدة تلو الأخرى، فإن كروشار ظلّ مجهولا لولا أن ظرفا خارقا دعاه إلى مسرح أكثر اتساعا: كانت مخطوطة أحد الأمراء تحكم فرنسا آنذاك، ولكي تحرر سيدها منه، وهو وزير ماهر، وسياسي محنك، (يقوم بإفادته بأخبار كل ما يجدّ السيد... علينا أن نتفهم الخشية التي تمنعنا من الادلاء باسمه) فكرت أنه قد يكون من المفيد استقدام كروشار إلى باريس كمدير لهذه الشخصية المرموقة.

هذا المكان الجديد لم يدهش كروشار وقد احتفظ وسط أبّهة قصر "فرساي" وبذخه بتلك الثقة الشكورية التي كان يتميّز بها في الأرياف أو سرعان ما عرف كيف يصبح مقبولا في البلاط بلطافة فكره، وسهولة معاملاته مع الأخويين حتى أنه على مائدة الدوق دولاروش غيون أكل وحده دجاجة رومية بأكملها وثلاث سجلات والمونسنيور شوميندول (نفسه الذي كانت لحفيده نهاية مأساوية في سجون مالطة والذي بالرغم من أنه رجل حرب عظيم لم يكن يعيش إلاّ من المواد اللبنية) أصيب بالذعر بسبب شهيته وصرخ "آب كروشار، أنت أول رجل لاهوت وأول فرشاة للمملكة!"

وبعد ذلك بستة أشهر، غادرت محظوظة الأمير البلاط، ومثل لويز دولافاليير كانت تعدّ نفسها لبناء العالم بحسب فضائلها بعد ما كانت قد دمرته بأخطائها. ومنذ ذلك الحين، أصبحت كل السيّدات المرموقات يتنهدن لأنّ لهن مديرا يدعى الأب كروشار ... وكثير منهن لم يكن يفارقنه طول النهار وكانت هناك أميرات جليلات يطلبنه في كل دقيقة ولكي يأتي بسرعة كانت السيدة لافيلاك ترسل له بكرسيها والآنسة بريشتو كانت [illegible] باستطاعتها أن [illegible] كروشار [illegible] بعد الراهبات، أو أفضل من ذلك، عند سيدات "مأسر" اللائي ليس لهن غير ارتشاد واحد

حالما يصل، كنّ يهرعن إليه جميعا مثل ضيعات ظمئات لشرب الموجات المنعشة لكلماته وعلى مدى السنوات التي أمضاها هناك لم يرغبن في غيره، واستعملن كل الوسائل والطرق الممكنة وغير الممكنة للاحتفاظ به والمونسنيور مهران باريس فشل هو نفسه في إبعاده. كان حبّاً شبيها بحب المهتديات حديثا إلى الدين بالنسبة للمونسنيور كامبراي، وبحبّ الراهبات الكرمليات بالنسبة للسيد بيرول وفي النهاية، كان يبدو لهن أنه من المستحيل أن يتقبلن العفو إلاّ عن طريق كروشار.

ذلك أنه يعرف كيف يحب؛ وذلك أنه يعرف القلوب. وهو ماهر في استكشاف الانفعالات والعواطف عند الآخرين، وكان يمير ضعفها، وبإمكانه أن يلقي لهن بحبل النجاة. أو أنه يجد لهن أخطاء هنّ حتى يتمكّن من الوصول إلى شاطئ النجاة وكان يقول: "لا تتركن الذنب يعذّبكن هذا الاضطراب هو في الحقيقة خميرة كبرياء. إن السقطات ليست كلها خطيرة. والعيوب والذنوب يمكن أن تكون أحيانا سلالم للصعود إلى السماء". ومثل القديس فرانسوا دوسالس الطيب، كان يسمّي المنبر "الحمارة"

وكان يخاطب حتى التائبات والنادمات عن خطاياهن قائلا: "كيف حال الحمارة؟" ولم يكن يريد أن يكون غليظ القلب مع هذه الدابة المسكينة. وأخيرا كن الناس الأشدّ ورعا وتقوى، يتفقون أنه كان يجعلهم يحققون كل يوم تقدما في الاكتمال. وآخرون قالوا إنهم كانوا يشعرون بمتعة في التحاور مع الأب كروشار أكثر من تلك التي يفوزون بها عند عناق عشيقاتهم وحبيباتهم

ولكن حتى وإن أظهر نوعا من التسامح في ما يتصل بالأخلاق حدّ أنه اتهم بالموليبية (6)، فإنه كان حازما في كل ما يتعلق بالعقيدة الأساسيّة رافضا كل شيء خارج الكنيسة، ولكل فضيلة من دونها، وعندما كان يسأل عن حكماء العصور القديمة كان يقول: "أنا على يقين أن الله جعلهم قبل موتهم مسيحيين بطريقة أو بأخرى" منذ القديس ايبيفان، لم يكن هناك بالتأكيد رجل أكثر نقمة وسخطا على البدع والهرطقات فكرة الهرطقة ذاتها كانت تطعنه في الصميم ولم يكن باستطاعته أن يرى جنسينيا

من دون أن تولد في نفسه الرغبة في ختمه

وفي السنوات الأخيرة من حياته، أصبح كروشار سمينا لذا لم يعد يخرج من مكتبه مطلقا وعلينا أن نعترف أن قواه العقلية شهدت هبوطا حادا مع ذلك احتفظ ببهجته الدائمة وقد أعطى الدليل القاطع على ذلك في الدقائق القليلة التي سبقت وفاته، إذ أنه قال مازحا من اسمه "أعتقد أن الجرة(8) سوف تتكسر"

فليسمح لي في النهاية، أن أؤكد مع الذين اقتربوا منك بأنك كنت ياكروشار، مصطفا ومختارا من الله!"

الإحالات :

* هذا النص نشرته "لوموند [illegible]" الفرنسية في عددها رقم [illegible] الصادر مطلع شهر أكتوبر 2005 وجاء في المقدمة التي خصصتها [illegible] السيد [illegible] هو الذي عثر على هذا النص [illegible] [illegible] في الوثائق القديمة وفي نوفمبر [illegible] [illegible] [illegible] الأهمية

ويقول المقدمة أيضا إن هذا النص المذكور عثر عليه في ملف [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] التي كانت تربطهما علاقة [illegible] وثيقة بصاحب "مدام بوفاري" وقد حاول فلوبير أن يرسم [illegible] شخصية [illegible] كروشار [illegible] أحد [illegible]

1. هو أحد أسماء الكاتبة الفرنسية جورج صاند

2. Docteur Angelicus ذلك هو لقب توماس الأكويني

3. [illegible] كروشار [illegible] من القرن السابع عشر والثامن عشر

4. شخصية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

5. [illegible]

6. [illegible] مذهب [illegible] أو [illegible]

7. هذا لعب بالكلمات فكلمة "Cruche" [illegible] في [illegible]

تقريبا من التوحش فهي تضفي الصفة البشرية على العلاقة بين الصياد (أو البحار) وفريسته وذلك من خلال تصورّها للخصّ وفق مثال علاقة القرابة بين من تربطهم علاقة الزواج أو - بصفة أكثر مباشرة - بين قرائن Conjoints (وهي مماثلة تصبح سهلة من خلال المماثلة التي تقوم بها كل لغات العالم وحتى اللغات الخاصة بنا في العبرات العامة الإصطلاحية، بين فعل الأكل والتسافد) وهكذا يظهر القنص وصيد الأسماك بوصفهما توحشا باطنيا Endo-Canibalisme

تعتقد شعوب أخرى كما تعتقد نفس الشعوب أحيانا أن كمية الحياة الكلية الموجودة في الكون عند كل فترة ينبغي لها أن تظلّ دائما في حالة توازن وعلى الصياد أو البحار الذي يقتطع منها جزءا - إذا جاز التعبير - أن يسدده على حساب معدل الحياة لديه؛ وهناك اعتبار آخر يتمّ وفقه النظر إلى التغذية المكونة من اللحم بوصفها شكلا من أشكال التوحش: وهو توحش ذاتي Autocannibalisme هذه المرة بما أن المرء، وفق هذا التصور، يأكل نفسه معتقدا أنه يأكل غيره

قبل ثلاث سنوات تقريبا، بينت لفرا La Repubblica في مقالة تقع تحت عنوان (Siamo tutti cannibali - بتاريخ 10 - أكتوبر 1993)، بخصوص الوباء المعروف بوباء البقرة المجنونة الذي لم يكن آنذاك حديث الساعة مثلما هو اليوم، بينت أن أنواع الأمراض Pathologies المتشابهة التي أصابت الإنسان أحيانا - مثل الكورو Kuru (3) في غينيا الجديدة، وحالات جديدة من مرض الـ Creutzfeld Jacop في أوروبا (كنتيجة لتجريع مستخلصات أدمغة بشرية قصد معالجة اضطرابات في النمو) كانت مرتبطة بممارسات تتعلّق بالتوحّش بمعناه الأصلي، مما استوجب توسيع مفهوم هذا الأخير حتى يكون من الممكن إدماج كل هذه الأنواع من الأمراض داخله وها إن اليوم يتم إعلامنا بأن المرض المنتمي لنفس الصنف والذي يصيب الأبقار في بعض البلدان الأوروبية (والذي يشكل خطرا مميتا بالنسبة إلى المستهلك) قد انتقل عن طريق الأطعمة المتأتية من لحوم البقر والتي تقدمها علف للحيوانات فقد نجم المرض عن تحويل الإنسان للبقر إلى حيوان متوحش Cannibale وفق مثال لا يعدّ في الواقع جديدا عبر التاريخ، ذلك أن بعض النصوص تثبت أن سكان باريس الجوعى قد التجأوا أثناء الحروب الدينية الدامية في فرنسا في القرن التاسع عشر، إلى تناول خبز مصنوع من دقيق عظام آدميين كانت تستخرج من سراديب الأموات لتطحن

لذلك فإن للعلاقة بين التغذية المكونة من اللحم وهذا التوحش الموسّع إلى حدّ منحه مفهوما كليا، جذورا عميقة جدا في الفكر وهي تبرز مجلاة في المحل الأول مع ظهور وباء البقر المجنون، بما أن الخوف من الإصابة بمرض قاتل، ينضاف إليه الرعب الذي يثيره فينا تقليب للتوحش الذي يمس الآن الأبقار فنحن نعلم من الوضوح بالتأكيد، بسبب تكيفنا منذ سنواتنا الأولى أثناء الطفولة، ونحا إلى لحوم تعويضية غير أن استهلاك اللحم قد انخفض بصورة مذهلة لكن كم كان عدد الذين - قبل هذه الأحداث - كلما مرّوا أمام دكان جزار إلا وأحسّوا بالإنزعاج وقد رأوه مسبقا عبر منظار القرون القادمة؟ ذلك أن يوما سيأتي، تكون فيه فكرة وجود بشر في الماضي يربون كائنات حية من أجل الغذاء يذبحونها ويعرضون لحمها مقطعا في الواجهات بكل سرور، أمرا يبعث بلا ريب على الاشمئزاز أي على نفس الشعور الذي كان يثيره في رحالة القرن السادس عشر والقرن السابع عشر وجبات اللحم البشري للمتوحشين الأمريكان والأوقيانيين أو الأفارقة

وما الانتشار المتنامي لحركات الدفاع عن الحيوان إلا شاهد على ذلك : فنحن ندرك بشكل بيّن أكثر فأكثر التناقص الذي تسحب فيه أخلاقنا Moeurs، أي وحدة الخلق مثلما تبدّت عند دخول سفينة نوح ونفي هذه الوحدة عن طريق الخلق نفسه، عند الخروج.

"أوغيست كونت" هو على الأرجح من بين الفلاسفة الذين انشغل انتباههم أكثر من غيرهم بمسألة العلاقات بين الإنسان و الحيوان وقد أعطى لهذا الانشغال شكلا فضّل المعلقون تجاهله فأسندوه أي الظواهر الشاذة التي يكرس لها نفسه أحيانا هذا العبقري العظيم، ومع ذلك يستحق الشكل المعني بالحديث أن نتوقف عنده

يقسم "كونت" الحيوان إلى ثلاثة أصناف. يضع في الصنف الأول الحيوانات التي تمثل بصفة أو بأخرى خطرا ملموسا للإنسان ويقترح بكل بساطة إبادتها.

أما الصنف الثاني فهو يضم الأنواع التي يحافظ عليها الإنسان ويربيها من أجل الغذاء : أي الأبقار والخنازير وحيوانات الفناء . وقد غيّر الإنسان منذ آلاف السنين هذه الأنواع تغييرا عميقا إلى درجة أننا لا يمكن أن نسميها حيوانات وعلينا أن نرى فيها "مختبرات غذائية Laboratoires nutritifs" تنشأ داخلها المركبات العضوية الضرورية لبقائنا.

وإذا أطرد "كونت" هذا الصنف الثاني من الطبيعة الحيوانية فهو يدمج الصنف الثالث في نطاق الإنسانية ويضم هذا الصنف الأنواع الاجتماعية Sociables حيث نجد من يصاحبنا بل نجد في العالم المعاون النشيط أي حيوانات " بالغنا كثيرا في تقصيها الذهني" بعضها لاحم مثل الكلب والقط، وبعضها الآخر لا يملك مستوى ذهني كاف، بحكم طبيعته العاشبة، ليصبح قابلا للاستخدام. ويطلب كونت تحويل هذا الصنف من الحيوانات إلى حيوانات لاحمة، وهو أمر غير مستحيل على الإطلاق في نظره بما أن في النرويج يقدّم السمك المجفف كغذاء للماشية عندما يقل العلف. وبذلك ستصل الحيوانات العاشبة إلى أقصى درجة يمكن أن تبلغها طبيعة الحيوان. وبحصول هذه الحيوانات على قدر أكبر من الحيوية والذكاء عن طريق نظامها الغذائي الجديد، ستكون أكثر تهيؤا لأن تكرس نفسها لسيدها وتنقاد لخدمة الإنسان ويمكن أن نوكل إليها المراقبة الأساسية لمصادر الطاقة والآلات ليتفرغ البشر بالتالي للقيام بمهام أخرى انه لأمر طوباوي بالتأكيد لكنها يوتوبيا لا تختلف مع ذلك عن تحويل المعادن الذي يكمن في أصل الكيمياء الحديثة وبتطبيق فكرة التحويل Transmutation على الحيوانات، فإن كل ما نفعله هو توسيع اليوتوبيا بنقلها من النظام الماسي إلى النظام الحيوي الأساسي Ordre Vital.

إن هذه النظرات التي تعود إلى قرن ونصف تسكّنة لعدة اعتبارات وهي تصفي في الوقت نفسه لاعتبارات أخرى طابع التنفيض. فمن الصحيح جدا أن الإنسان يتسبب بصورة مباشرة أو غير مباشرة في زوال أنواع لا تحصى وأن أنواعا أخرى أصبحت معرضة حقا لهذا الخطر.

ولننظر على سبيل المثال إلى ما يجري للدببة و للذئاب ووحيدي القرن والفيلة والحيتان، إلخ... بالإضافة إلى أنواع الحشرات والأنواع الافقارية الأخرى التي تدمرها يوما بعد يوم التأثيرات السلبية للإنسان على الوسط الطبيعي.

إنها لنظرة تنبّئية أيضا . وإلى درجة لم يكن بوسع كونت أن يتخيلها . تلك النظرة المتعلقة بالحيوانات التي يجعل منها الإنسان مصدرا لقوته ويخضعها بلا رحمة لشرط واحد هو شرط المختبرات الغذائية. إن تربية الأبقار والخنازير والدجاج بحسب نظام المجموعات En Batterie يعدّ أكثر الأمثلة فظاعة. وقد عبّر البرلمان الأوروبي مؤخرا عن قلقه الشديد بهذا الشأن.

وإنها لفكرة تنبئية أخيرا تلك الفكرة القائلة بأن الحيوانات التي تشكل الصنف الثالث الذي تصوره كونت ستصبح بالنسبة للإنسان حيوانات نشيطة معوّنة مثلما تشهد بذلك المهمات المتنوعة أكثر فأكثر والتي يوكل بها لأسياد . الكلاب، والاعتماد على قردة مدربة خصيصا لمساعدة أصحاب القصور الجسدي الكبير، والآمال التي تعد بها الدلافين.

إن تحويل الحيوانات العاشبة إلى حيوانات لاحمة هو أيضا تنبّئي ، وتبرهن على ذلك مأساة الأبقار المجنونة، لكن في هذه الحالة لم تجر الأمور بحسب توقع كونت. وإذا حوّلنا حيوانات عاشبة إلى حيوانات لاحمة فإن هذا التحول ربما لا يكون في البداية أصيلا Original مثلما قد نظن. وقد تمّ التأكيد على أن المجترّات Les ruminants ليست حيوانات عاشبة حقيقيّة لأنها تغتذي خاصة بالحيّيات Micro-Organismes التي تغتذي بدورها بالنباتات المتخمّرة في معدة مكيفة خصيصا لذلك.

كما إن هذا التحول لم يجر بالخصوص في صالح الحيوانات النشيطة المعينة للإنسان بل على حساب هذه الحيوانات التي وصفها كونت بأنها مختبرات عاشبة : وهو خطأ حاسم قد نبّه إليه هو نفسه، فهو يقول " إن الإفراط

في طبيعتها الحيوانية قد يضربها - وهو لا يضر بها هي فحسب بل بنا نحن أيضا ؛ أو لم نحول - مختبرات(نا) الغذائية - بصورة لا إرادية بالتأكيد - إلى مختبرات قاتلة عن طريق الإفراط في طبيعتها الحيوانية (وهو إفراط ناتج عن تغييرها لتكون أكثر من لاحمة أي متوحشة Cannibales) ؟

لم يكتسح مرض جنون البقر كل البلدان بعد فإيطاليا في اعتقادي سالمة منه إلى حد الآن. وربما سينسى هذا المرض قريبا : إما أن يختفي هذا الوباء من تلقاء نفسه مثلما يتكهن بذلك العلماء البريطانيون، أو إنه يتم اكتشاف تلاقيح أو وسائل علاجية، أو إن سياسة صحية صارمة تضمن صحة الحيوانات المخصصة للذبح لكن يظل من الممكن أيضا تصور سيناريوهات أخرى

ثمة توقع - خلافا للأفكار المسبقة - بأن هذا المرض قد يتخطى الحدود البيولوجية بين الأنواع وعندما يصيب كل الحيوانات التي نغتذي بها، قد يستقر بصورة دائمة ليتخذ موقعا له بين الآفات التي أنتجتها الحضارة الصناعية والتي تعرّض إشباع الحاجات لدى الكائنات الحية إلى الخطورة بشكل متزايد

وإننا منذ زمن لم نعد نتنفس سوى هواء ملوث كما أن الماء الملوث هو الآخر، لم يعد تلك النعمة التي كنا نعتقد أنها لا محدودة فنحن نعلم أنه مقدر كميا في مجال الفلاحة وكذلك في الاستعمالات المنزلية و منذ ظهور الأيدز أصبحت العلاقات الجنسية تمثل خطرا مميتا. كل هذه هذه الظواهر تشوش وستشوش بصورة بالغة شروط الحياة البشرية معلنة عهدا جديدا، سيتخذ فيه مكانه، مباشرة في المرتبة الموالية، هذا الخطر الآخر القاتل الذي ستمثله في المستقبل التغذية المكونة من اللحم.

إن ذلك لا يمثل العامل الوحيد الذي يجبر الإنسان على التراجع ففي عالم من المتوقع أن يكون عدد سكانه الجملي قد تضاعف في أقل من قرن ستصبح الماشية وحيوانات الدجين الأخرى منافسا خطرا بالنسبة للإنسان لقد أثبتت التقديرات في الولايات المتحدة أن هذه الحيوانات تستهلك كغذاء لها ثلثي الإنتاج من الحبوب ولا ننسى أن هذه الحيوانات تعطينا عن طريق لحومها وحدات حرارية

أقلّ مما استهلكته مدة حياتها (نسبة الخمس بالنسبة إلى الدجاجة بحسب ما سمعت).

وسيحتاج سكان العالم في نموهم المتزايد بشكل سريع لضمان البقاء إلى الإنتاج الحالي من الحبوب برمته ولن يتبقى شيء للماشية ولحيوانات الفناء، بحيث سيكون على كل البشر أن ينسخوا نظامهم الغذائي حسب نظام الهنود والصينيين الذين يشمل لديهم لحم الحيوان جزءا بسيطا جدا من حاجتهم للهيولينات Proteines والحريرات. بل ربما يتوجب التخلي عن الأمر نهائيا ذلك أنه في حين يتزايد عدد السكان تتناقص مساحة الأراضي القابلة للزراعة بسبب الانجراف والتمركز السكاني في المدن Urbanisation وتنخفض مدخرات الهيدروكربور كما تتضاءل الموارد المائية

ويعتقد الخبراء بالمقابل أن البشرية إذا أصبحت تغتذي بالكامل بالنبات دون سواه فإن المساحات المزروعة تكفي لعدد مضاعف للسكان

ومن الجدير بالذكر أن استهلاك اللحوم في المجتمعات الغربية يميل تدريجيا نحو التراجع كما لو أن هذه المجتمعات بدأت تغير نظامها الغذائي وفي هذه الحالة، كل ما سيفعله وباء البقرة المجنونة - إذ يبعد المستهلكين عن اللحوم - هو تسريع نسق التطور الجاري وسيضيف فقط إلى هذا الأخير مركّبا زهديا Composante Mystique ناتجا عن الشعور الشائع بأن جنسنا يدفع ثمن مخالفته لنظام الطبيعة.

سيتكفل المهندسون الزراعيون بالزيادة في مقدار الهيولينات في النبتات الغذائية، وعلماء الكيمياء بإنتاج الهيولينات بكميات صناعية لكن هذا المرض الدماغي الإسفنجي encéphalopathie Spongiforme (وهو الإسم العلمي لمرض البقرة المجنونة ويطلق أيضا على أمراض قريبة منه) حتى وإن استقر بصفة دائمة فإننا نراهن على أن شهية أكل اللحم لن تزول مع ذلك وسيصبح فقط إشباعها فرصة نادرة، ومكلفة وفي غاية الخطورة (ويوجد في اليابان مثال عن ذلك تقدمه سمكة الفوغو(4) وهي سمكة شهية يقال إنها لذيذة الطعم، لكن إذا لم يتم إفراغ

حشاف بشكل كامل، يمكن أن تكون سماً قاتلا) سيكون اللحم على لائحة الطعام في ظروف استثنائية وسيستهلك بامتزيج نفسه من الإجلال الورع والقلق اللذين كانا يهيمنان على الوجبات الآدمية لدى بعض الشعوب، حسب الرّحالة القدامى ففي الحالتين يتعلق الأمر في آن واحد بانصهار المرء في الأجداد وامتزاجه - تحت مسؤوليته - بالمادة الأساسيّة الخطرة لدى الكائنات الحية التي كانت عدواً أو هي أصبحت كذلك. عندما تزول تربية الماشية تماما لانعدام مردوديتها، فإن تلك اللحوم التي تباع في المغازات الفاخرة جدا، لن نحصل عليها إلا عن طريق الصيد. وقطعاننا القديمة التي تركناها وشأنها ستكون قنيصة مثل أي قنيصة أخرى في الغابة التي سيسودها التوحش.

لا يمكننا أن نجزم بأن توسع حضارة تدّعي بأنها عالمية سيوحد الكون. وعندما تتكدس مجموعة سكانية في تجمعات مدينيّة كبرى Megalopoles(5) بحجم الأقاليم مثلما نشاهد ذلك الآن، فإنها - بعد أن تم توزيعها أحسن توزيع منذ عهد قريب - ستخلي بعض الفضاءات التي هجرها سكانها نهائيا إلى وضعيات عتيقة، وستجد أساليب الحياة الأكثر غرابة هنا وهناك مكانا لها وبدلا من أن يتجه تطور الإنسانيّة نحو الرتابة فإنه قد يعمق التباينات Contrastes، بل يخلق تباينات أخرى متيحا المجال لسيادة التنوع.

إن درس الحكمة الذي ربما قد نستخلصه يوماً من الأبقار المجنونة هو القطع مع عادات تعود إلى آلاف السنين.

الإحالات:

* - هو عالم إناسة واجتماع معاصر ولد في بروكسال في العام 1908 وعمل أستاذا في البرازيل والولايات المتحدة الأمريكية ودرّس علم الإناسة الاجتماعي في الكولاج دي فرانس طبق مبادئ علم اللغة على الظواهر الثقافية واعتبر أن المنهج البنيوي يمكن أن يلعب دورا في العلوم الاجتماعية.

من مؤلفاته: البنى الأولية للقرابة (1949)، المدارات الحزينة (1955)، علم الإناسة البنيوي بجزءين (1958-1973)، الفكر البري (1962)، النيء والمطبوخ (1964)، من العسل إلى الرماد (1967) وعنوان النص الأصلي لهذا المقال هو "La Leçon de sagesse des vaches folles" نشر في Magazine littéraire، العدد الخامس (خارج السلسلة) الثلاثية الرابعة 2003

1- حاول أهل هذه المدينة الشهيرة في تاريخ الشرق القديم وهم من نسل نوح، كما ورد في الكتاب المقدس، أن يشيدوا برجا يصعد إلى عنان السماء، فعوقبوا ببلبلة ألسنتهم، ولم يفهم بعضهم بعضا، مع أنهم كانوا يتكلمون لغة واحدة. ويعد البعض هذه القصة تعدد اللغات

2- هو سفينة نوح التي أنقذت الحياة البشرية والحيوانية من الطوفان. أبناء نوح هم سام وحام ويافث وهم أسلاف الجنس البشري كما هو وارد بالكتاب المقدس (التكوين: 6-10).

3- مرض يتلف الجهاز العصبي المركزي بسبب فيروس بطيء، عرف لدى سكان غينيا الجديدة الأصليين

4- Le Fugu سمكة مفضلة جدا في اليابان، رغم أن أحشاءها تحتوي على سم فتاك

5- اسم أطلق في الأصل على منطقة بوسطن - واشنطن الممتدة على السواحل الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة الأمريكية وهو يعني عموما التجمعات الكبرى للمدن وضواحيها

النّوع المقاوم

نــص : سـتيفـن كـنج
ترجمة : فـرج الترهوني

عاجلا أم اجلا سيواجه كل طالب طب هذا السؤال. ماهو مقدار الصدمة الذي يمكن للمريض ان يتحمله؟ يجيب المدرسون على اختلافهم، على هذا السؤال بإجابات مختلفة. لكن في الحقيقة ان الإجابة ماهي الا سؤال آخر: ما مدى إصرار المريض على المقاومة لكي يعيش؟

26 يناير

مضى يومان منذ أن قذفتني العاصفة هنا تجولت في الجزيرة هذا الصباح فقط، ويا لها من جزيرة! طولها 270 خطوة من الحدّ إلى الحد، وعرضها 190 خطوة عند أبعد نقطة، وحسب ما يبدو لي فلا يوجد بها ما يمكن أكله

اسمي ريتشرد باين، وهذه هي مذكّراتي إذا ما عثر علي، فسيمكنني التخلص منه بسهولة، حيث لا يوجد لدي نقص في أعواد الثقاب، أو في الهيروين يوجد الكثير منهما، وليس لهما أي قيمة في هذا المكان، ها ـ ها عليه سأكتب المذكرات، وعلى كل حال سيساعد ذلك على مرور الوقت

إذا ما أخبرتكم بالحقيقة كاملة ـ ولم لا؟ فلدي كل الوقت لذلك ـ لا بد أن أبدأ بالقول أن اسمي الحقيقي هو رينشارد بنزيتي، وقد ولدت في القسم الإيطالي من مدينة نيويورك كان أبي جينيا كبيرا(1) لقد أردت أن أصبح جرّاحا، وكان يسخر مني وينعتني بالجنون، ويطلب مني أن أحضر له قدح نبيذ آخر، وقد توفي بمرض السرطان، وسررت لذلك

مارست لعب كرة القدم في المدرسة الثانوية، وكنت أفضل من لعب الكرة في مركز الظهير، وأجهدت نفسي في اللعب خلال السنتين الأخيرتين. كرهت لعب الكرة، ولكن لم يكن لي من خيار، إذا كنت متحدرا من تلك المناطق، وترغب في الإلتحاق بالجامعة، فتذكرتك الوحيدة هي ممارسة الرياضة، ولهذا مارست اللعب، وحصلت على منحة دراسية رياضية

عند التحاقي بالجامعة مارست اللعبة فقط إلى أن أصبحت علاماتي تؤهلني لمنحة دراسية كاملة.

توفي ابي قبل التخرّج بستة أسابيع لقد كان ذلك درسا مناسبا لي. هل ظننتم أنني كنت أرغب في التقدم إلى تلك المنصّة لاستلام شهادتي، وعندما أنظر صوب الحضور أرى كرة الشحم يجلس هناك؟. هل الدجاجة بحاجة إلى رفع علم تتبنى نفسها؟ لقد اشتركت في جمعية أخوية أيضا(2) لم تكن من الجمعيّات المهمة ليس لوجود عضو فيها يحمل اسم بنزيتي، ولكنها جمعيّة في كل الأحوال

لماذا أكتب هذا؟ يكاد الأمر أن يكون مضحكا كلا، أسحب هذه الجملة، لأن الأمر مضحك بالفعل. ها في هذه الجزيرة متناهية الصغر، التي تستطيع البصق من حدها إلى حدّها يجلس الدكتور الكبير باين على صخرة، مرتديا سروال منامته وقميصا داخليا، يكتب قصة حياته هو أشعر بالجوع لا يهم، أكتب قصة حياتي البائسة إن أردت فعلى الأقل ... عن التفكير في معدتي إلى حدّ ما

غيرت اسمي إلى باين قبل التحاقي بكلية الطب، وقد قالت أمّي إنّ قلبها قد انفطر لذلك. أيّ قلب تعني؟ بعد وفاة أبي بيوم واحد، خرجت تطارد ذلك البقال اليهودي في ناصية الشارع. وبالنسبة لشخص أحبّ ذلك الإسم كثيرا، فقد كانت في عجلة لتغيير ما يخصها منه إلى سابلنبرنر.

منذ كنت في المدرسة الثانوية وأنا أرغب في أن أصبح جرّاحا حيث ألبس القفّازات قبل بدء المباراة، وأغسل يديّ جيدا بعد ذلك. لأنه إذا أردت أن تصبح جرّاحا ماهرا فعليك أن تعتني بيديك. كان بعض الأولاد يسخرون مني بسبب ذلك وينعتونني بخراء الدجاج، ولكنني لم أتشاجر معهم بسبب ذلك. لقد كان في لعب الكرة مايكفي من المخاطر. لكن هناك طرق أخرى للرد عليهم. أكثر من سبّب لي المشاكل هوي بولتسكي وهو فتى ضخم، غبي، ممتلئ وجهه بالنمش. كنت أعمل في بيع الصحف، وأبيع معها أوراق اليانصيب، وأتحصل من ذلك على بعض المدخل. تتعرف لى بعض الناس، تنصت إلى ما يقال، وتكوّن بعض العلاقات. لا مفرّ من القيام بذلك إذا أردت الخروج إلى ميدان الصراع في الشارع. نقدت ريكي برازيو، أضخم طالب في المدرسة، عشر دولارات، لكي يحرر... ثم هوي بولتسكي قلت له اعمل على تخريب فمه وسأدفع لك دولارا عن كل سنّ تأتيني بها. أحضر لي ريكي ثلاثة أسنان ملفوفة في ورقة. وقد كلّفه إنجاز هذا العمل خلع اثنين من أصابعه، وهكذا ترون المشكلة التي كدت أقع فيها.

في كلية الطب وبينما كان الأغبياء الآخرون، ينهكون أنفسهم للنهاية في محاولة للحصول على دخل عن طريق العمل كنادل في المطاعم، أو بيع أربطة العنق، أو تنظيف الأرضيات، حافظت على مهنتي السابقة وهي الرهان على مباريات كرة القدم والسلة، والتزمت بالمحافظة على علاقات جيدة بالمنطقة التي ترعرعت فيها، وفي نفس الوقت كنت على ما يرام في دراستي.

لم أبدأ في بيع المخدرات إلا أثناء فترة الإمتياز عندما كنت أعمل في أحد أكبر المستشفيات في مدينة نيويورك. في البداية لم يتعد الأمر بيع أوراق الوصفات الطبية. كنت أبيع الرزمة المحتوية على مائة ورقة إلى بعض الأشخاص من المنطقة ويضع هو بدوره عليها أسماء مزوّرة لأربعين أو خمسين طبيبا، وكنت أزوّده بنماذج مختلفة... لكتابة نفس... صفحا، ويقوم بعد... ببيع تلك الوصفات... يتراوح من عشرة إلى عشرين دولارا للوحدة، وقد كان المدمنون بأنواعهم يحبّون ذلك.

بعد فترة اكتشفت سوء التنظيم الذي عليه مخزن الأدوية في المستشفى، ولم يكن أحد يعرف الكميات المورّدة من المصروفة، وعرفت أنّ بعضهم يسرقون كميّات كبيرة من تلك الأدوية. لم أفعل مثلهم بالطبع. كنت حذرا على الدوام، إلى أن تخلّيت عن حذري - وتخلى عني حظي. ولكن سأقف على رجلي من جديد. فأنا غالبا ما أفعل.

لم أعد أستطيع الكتابة الآن. إنّ رسغي يؤلمني والقلم لا يكتب جيّدا. لا أدري لماذا ينتابني القلق. فعلى كلّ حال، سيأتي من سينقذني قريبا.

27 يناير

انطلق القارب بعيدا ليلة البارحة، وغرق في مياه عمقها حوالي عشرة أقدام إلى الجانب الشمالي من الجزيرة ومن يهتم؟ لقد أصبح قاع القارب يشبه الجبن السويسري بعد أن مرّ على تلك الصخور المدببة، وكنت قد أنزلت منه كل ما يمكن الإستفادة منه: أربعة جالونات مياه، وعدّة خياطة، وعدّة إسعافات أولية، وهذه الكراسة التي أكتب فيها الآن، والمفترض أن تكون سجلا لتدوين ملاحظات التفتيش على القارب. يا له من شيء مضحك من سمع من قبل عن قارب نجاة بدون طعام على متنه؟ آخر تاريخ مدوّن فيه هو 8 أغسطس 1970 ويوجد أيضا سكينان، أحدهما قاطع، والآخر لا، ثمّ شوكة وملعقة. سأستعملهما عند تناول عشائي لهذه الليلة المكوّن من صخور محمّرة. ها ها على الأقل بريت قلمي.

عندما أغادر كومة الصخور هذه الملطّخة بفضلات الطيور، سأرفع دعوى قضائية كبرى على خطوط لباراديز البحرية المساهمة. إنّ ذلك بحدّ ذاته لجدير بأن يعيش الإنسان لأجله، وسأظلّ حيا. سأخرج من هذه المحنة لا يجب أن يكون لديكم أي شكّ في ذلك سأجتاز هذه المحنة.

(فيما بعد)

عندما قمت بإحصاء ما لدي نسيت شيئا واحدا كيلوجرامين من الهيروين النقي الذي يبلغ ثمنه في حدود 350.000 دولارا حسب قيمته في شوارع نيويورك. أمّا هنا

فلا يساوي شيئا إنّه أمر مضحك أليس كذلك؟ ها ـ ها

28 يناير

حسنا، لقد أكلت ـ إذا أصفقتم على ذلك أكلا. كان طائر نورس يحطّ على إحدى الصخور في وسط الجزيرة، حيث تتكوّم الصخور لتكوّن ما يشبه جبلا صغيرا مغطّى بأكمله بفضلات الطيور التقطت قطعة حجر بالكاد تنطبق عليها أصابع يدي ثم تسلقت إلى أقرب نقطة يمكنني الوصول إليها. ظلّ الطائر واقفا هناك على صخرته، ينظر إليّ بعينيه الزرقاوين اللامعتين، وقد استغربت كيف لم تخفه القعقعة الصادرة عن معدتي؟

قذفت الحجر بكل ما أملك من قوة، فأصابه في جنبه أطلق النورس صرخة عالية وحاول الطيران بعيدا، ولكنني كنت قد كسرت له جناحه الأيمن، وركضت خلفه بينما هو يحاول القفز بعيدا، وبإمكاني رؤية الدم يسيل فوق ريشه الأبيض. لقد جرّني ابن الكلبة هذا إلى مطاردة طويلة وعندما كنت على الجانب الآخر من كومة الصخور، علقت قدمي في فراغ بين صخرتين، وكاد كاحلي أن ينكسر

بدأ التعب يتسرّب إليه أخيرا. وفي النهاية أمسكت به في الجانب الشرقي من الجزيرة وهو يحاول الوصول إلى الماء والسباحة بعيدا عندما أمسكت به من ذيله فاستدار إلى الوراء ونقرني، ثم تمكنت من الإمساك برجليه بإحدى يديّ، بينما وضعت يدي الثانية على رقبته التعيسة وكسرتها لقد شعرت بنشوة لسماع ذلك الصوت تعرفون نعم، جاهز ها! ها

حملته إلى "مخيمي"، ولكن قبل أن أنتف ريشه وأنظف أحشاءه استعملت مطهرا بسبب الجرح الذي سببه لي بمنقاره، فعادة ما تحمل الطيور أنواعا عديدة من الجراثيم، وآخر ما ينقصني هنا هو الإصابة بميكروب معد

سارت العملية التي أجريتها للطائر على ما يرام لم أتمكن من طهيه لعدم وجود أي نوع من الحياة النباتية، أو الحطب، وحتى القارب كان قد غرق، وعليه أكلته نيئا حاولت معدتي أن تقذفه مباشرة تعاطفت معها ولكن لا يمكن السماح بذلك قمت ببلعه بطريقة عكسية إلى أن اختفى الشعور بالغثيان عادة ما تكون النتيجة إيجابية.

هل يمكنكم أن تتخيلوا أن هذا الطائر كاد أن يكسر كاحلي، ثم ينقرني؟ إذا ما أمسكت بنورس آخر في الغد فسأعذّبه العذاب الأكبر لقد أقلت هذا من العقاب حتى وأنا أكتب، باستطاعتي رؤية رأسه المقطوع المرمي على الرمال وعينيه السوداوين، اللذين يبدوان وكأنهما ينظران إلي بهزء حتى وظلال الموت تغشاهما

ترى هل للنوارس أمخاخ بأي حجم كان؟

وهل هي صالحة للأكل؟

29 يناير

لا يوجد أي طعام اليوم. حطّ نورس بالقرب من قمة جبل الصخور، ولكنه طار قبل حتى أن أتمكن من "تمرير الكرة إليه" ها ـ ها لقد نما شعر ذقني ويستحثني لحكه إذا ما رجع ذلك النورس وأمسكت به، فسأفقأ عينيه

كما ظنّ أنني قد أسلفت، فقد كنت جرّاحا ماهرا، وقد طردوني.. في الحقيقة إنه لشيء مضحك، يمارسون نفس الفعل، ويتظاهرون بالإستقامة عندما يقع أحد ما في الشرك. فلتذهب إلى الجحيم يا جاك، فلدي ما يخصّني إنه القسم الثاني لأبقراط وللمنافقين

جمعت ما يكفي من النقود جراء مغامراتي كطالب، وكطبيب امتياز (وفقا لقسم أبقراط، يفترض أن يكون الشخص محترما وتحلى بالأخلاق، ولكن لا تصدقوا ذلك) كان ذلك كافيا لفتح عيادة محترمة في جادة بارك، وقد ساعدني ذلك حيث ليس لدي أب غني، أو مؤسسة لترعاني أسوة بالكثير من "رفاقي" كانت قد مرّت تسع سنوات على وفاة أبي عندما افتتحت عيادتي ووضعت عليها لافتة تحمل اسمي، ثم توفيت أمي قبل ستة من سحب رخصتي لممارسة الطبّ

كنت جشعا أجمع المال بأي طريقة عقدت اتفاقا مع نصف دزينة من صيادلة الحيّ الشرقي على الأقل كنا نتبادل إرسال المرضى أجريت العمليات الجراحيّة ووصفت لهم أدوية لفترة ما بعد العملية بالطبع لم تكن جميع العمليات ضرورية،ولكنني لم أقم بأي منها ضد رغبة المريض، ولم تصادفني حالة مريض يرفض تناول الدواء أجرى بعضهم

عملية استئصال رحم عام 1965 أو غدّة درقية عام1970، ولا يزالون يتعاطون أقراص تخفيف الألم، بعد خمس أو عشر سنوات من إجراء العملية أو أقنعتهم بتناولها. وكنت أفعل ذلك أحيانا، ولست الوحيد طبعا. هؤلاء المرضى ميسورون وبإمكانهم تحمل تكاليف هذه العدة أحيانا وبعد إجراء عملية صغرى، يجد أحد المرضى صعوبة في النوم، أو صعوبة في الحصول على أقراص للحمية، أو أقراصا مهدئة. من السهل ترتيب كل ذلك... ها ! طبعا. لو لم يحصلوا عليها مني فسيوفرها لهم شخص غيري.

أخيرا وقع لوينثال في قبضة مصلحة الضرائب. هذا النعجة. لوّحوا في وجهه بخمس سنوات سجن، فزودهم بنصف دزينة من الأسماء، وكنت من بينهم. وكان أن راقبوني فترة وعندما انقضّوا علي، فقد كنت عندهم أثمن بكثير من الخمس سنوات. كنت في ذلك الوقت أمارس صفقات أخرى مثل الوصفات الطبيّة التي لم أترك التعامل بها. إنّه أمر مضحك، فلم أكن بحاجة إلى مثل هذه الممارسات. ولكنها أصبحت عادة لدي فمن الصعب التخلي عن دخل إضافي.

حسنا، كنت أعرف بعض الأشخاص، فحذفت بعض الحيوط، ورميت عدّة أشخاص للذئاب. لم أكن أحبّ أحدا منهم. كان كل من وشيت به للسلطات، ابن كلبة حقيقي.

يا يسوع، كم أنا جائع

30 يناير

لا أثر للنورس اليوم يذكّرني ذلك باللافتات التي يضعونها على عربات بيع الخضار في منطقتنا لا يوجد طماطم اليوم دخلت إلى الماء حتى خصري، أحمل السكين حادا في يدي، ووقفت ساكنا تماما في مكان واحد، بينما الشمس تلهبني بأشعتها لمدة أربع ساعات. وقد ظننت مرتين أنني سأغيب عن الوعي، ولكنني قمت بالعد عكسيا إلى أن مرّ الأمر بسلام. لم أر سمكة واحدة.

31 يناير

قتلت نورسا آخر بنفس الطريقة التي اتّبعتها مع الأول.

وكنت جائعا جدا لألحق به أي تعذيب، كما كنت أمنّي نفسي نزعت أحشاءه والتهمته، ثمّ عصرت معدته، أكلتها أيضا أمر عجيب عندما تشعر بحيويتك تعود إليك ثانية لوهلة بدأ الخوف يتسرّب إلي عندما كنت أستلقي هناك في ظلّ حبل الصخور، حيث تخيلت أنني أسمع أصوات كل من أبي، وأمي، والأسوأ من ذلك صوت ذلك الرجل الصيني الضخم الذي باعني الهيروين في سايجون، وبه لثغة في لسانه، ربّما بسبب شق جزئي في صدغه

خيّل لي صوته يأتي من غير مكان محدد قائلا : " هيّا هيّا استنشق منه قليلا، لن تعد تشعر بالجوع إنه رائع. " ولكنني لم أتعاط المخدرات من قبل على الإطلاق ولا حتى الأقراص المنوّمة

قتل لوينثال نفسه هل أخبرتكم بذلك؟ لقد شنق هذا النعجة نفسه في مكتبه السابق، وحسب وجهة نظري فقد أسدى للعالم معروفا

لقد رغبت في استعادة ممارسة المهنة ثانية، وأخبرني بعضهم أنّ ذلك ممكن ولكنه قد يكلف مبالغ كبيرة، أكثر مما حلمت به لدي مبلغ 000 40$ مودعة في أحد صناديق الأمانات. فقررت سحبها وتشغيلها ربّما سأحصل على ضعفها أو على ثلاثة أمثالها وقد كان ذلك السبب الذي ذهبت من أجله لرؤية روني هانيبي الذي لعبت معه كرة القدم في الجامعة، وكنت قد أسديت معروفا لأخيه الأصغر طالب الطب عندما قدّمت له بعض المساعدة أثناء فترة تخصّصه أمّا روني فكان يدرس القانون أليس ذلك في غاية الطرافة؟ في المنطقة التي ترعرعت فيها كنّا نطلق عليه "روني، منفّذ القانون" لأنه غالبا ما يقوم بتحكيم مباريات الكرة والهوكي، وإذا لم توافق على قراراته فلك الخيار في أن تغلق فمك، أو يسهل عليك بقبضته كان البورتوريكيون ينادونه رونيووب، وقد أسعده ذلك التحق هذا الشخص بالجامعة، ثم كلية القانون، واجتاز امتحان ممارسة المهنة من المرّة الأولى، ثمّ فتتح مكتبا في المنطقة القديمة فوق حانة نعش سول أغمض عيني الآن، ولازلت أراه يقود سيارته الكونتنتال البيضاء في ذلك المكان. إنّه بحقّ أكبر حوت قرش مانح للقروض في المدينة.

كنت أعرف أنّ روني سيساعدني، وقال لي :"هناك خطورة، ولكنك تستطيع دائما أن ترعى نفسك، وإذا

استطعت إدخال المادّة إلى البلاد سأعرّفك على بعض الأشخاص، أحدهم نائب عن الولاية" زودني باسمين، أحدهم هو ذلك الصيني الضخم المدعو هنري لي تسو، أمّا الآخر فهو فيتنامي يدعى سولم نقو، كيميائي مهمته اختبار بضاعة الصيني لقاء بعض المال. كان الصيني يقوم ببعض الألاعيب على زبائنه. ويقدم لهم أكياسا بلاستيكيّة مليئة ببودرة التلك، أو منظفات الأنابيب أو نشا الذرة، وقد قال ... أن ألعب لي ستقتله يوما ما

1 فبراير

شهدت طائرة وقد مرّت فوق الجزيرة تماما حاولت تسلّق قمّة جبل الخور لألوّح لها فوقعت رجلي في الحفرة وهي نفس الحفرة اللعينة التي وقعت فيها يوم مثلي للطائر لأول أعتقد أنني قد كسرت كاحلي كسرا مركبا، حيث صدر عنه ما يشبه صوت البندقيّة. كان الألم لا يطاق فصرخت وفقدت توازني وظللت أدوّر يداي كدولاب مثل رجل مجنون، ولكنني سقطت إلى أسفل ووقعت على رأسي، فتحوّل كل شيء إلى سواد لم أفق إلاّ عند الغروب. فقدت بعض الدم حين صدمت رأسي أما كاحلي فقد انتفخ مثل دولاب سيارة، وأصبت أيضا بلسعة شمس. أعتقد أنني لو مكثت في الشمس ساعة أخرى لتقرّح جلدي، جررت جسدي إلى هذا المكان و مضيت ليلة البارحة ارتجف وأبكي بسبب إحساسي بالإحباط. طهّرت جرح رأسي وهو فوق الفص الصدغي بقليل، وربطته بالشاش بطريقة محكمة. إنه لا يعدو أن يكون جرحا خارجيا في فروة الرأس، مع ارتجاج بسيط في المخ، ولكن كاحلي قد تعرّض لكسر سيئ في مكانين وربما ثلاثة.

كيف سأطارد الطيور الآن؟

لا بدّ وأنّها كانت طائرة تبحث عن الناجين من السفينة كالاس أثناء العاصفة وخلال الظلام لابدّ أنّ قارب النجدة قد انحرف بعيدا عن مكان غرق السفينة، وقد لا يعودون للبحث في هذا المكان.

يا إلهي إنّ كاحلي يؤلمني كثيرا

2 فبراير

وضعت علامة على المساحة المسطحة البيضاء من الشاطئ، في الجزء الجنوبي حيث غرق القارب وقد استغرق مني القيام بذلك اليوم بأكمله، مع بعض فترات الراحة في الظل، وغبت عن الوعي مرّتين كتخمين أولي، يمكنني القول إنني قد فقدت 25 رطلا من وزني، أغلب ذلك بسبب الجفاف، ولكنني أستطيع من مكاني الحالي رؤية الحروف التي مكثت اليوم بأكمله في كتابتها كان منظر الصخور السوداء على الرمال البيضاء يقول النجدة، بارتفاع أربعة أقدام عن الأرض لا يمكن لطائرة أخرى أن تخطئ رؤيتها.

في حال قدوم طائرة أخرى

قدمي تنبض باستمرار، ولا يزال الانتفاخ موجودا أمّا تغير اللون عند الكسر المزدوج فينذر بالسوء بعد أن ازدادت مساحته لقد ساعد ربطي له بقميصي بقوة في تسكين الألم بعض الشيء، ولكنه لا يزال من السوء بحيث أغيب عن الوعي، بدلا عن النوم

بدأت في التفكير في إمكانيّة لجوئي إلى عمليّة بتر

3 فبراير

ازداد الانتفاخ والتغير في لون الجلد سوءا سأنتظر حتى الغد، وإذا أصبحت العمليّة ضروريّة، فاعتقد أنّ بإمكاني القيام بها، إنّ لدي ثقاب لتعقيم السكين الحاد ولدي إبرة وخيط من حقيبة الإسعافات، وسأستعمل قميصي كرباط

لدي حتى كيلويّن من " مسكّن الألم" ولو أنّه مختلف عن النوع الذي كنت أصفه كعلاج، ولكنّهم كانوا سيستعملونه لو حصلوا عليه صدقوني إن تلكم العجائز ذوات الشعر الأزرق على استعداد لشمّ ملطّفات الجوّ لو اعتقدن أنّ ذلك كفيل بمنحهن بعض النشوة

4 فبراير

لقد قرّرت بتر قدمي. لم أتناول طعاما لمدّة أربعة أيام الآن، وإذا انتظرت أطول من ذلك فسأعرّض نفسي لخطر الإغماء أثناء سير العمليّة بسبب الصدمة والجوع وعندها قد أنزف حتى الموت ... تحسيس مثلي ...

أرعب بالإستمرار في الحياة، لا زلت أتذكر ما كان يقوله موكردج في درس مبادئ التشريح يقول موكي العجوز، كما كنّا نسميه، عاجلا أم آجلا سيوجه كلّ طالب طبّ هذا السؤال - ما هو مقدار الصدمة الذي يمكن للمريض أن يتحمله؟ ثمّ يحرك عصاه على خريطة الجسم الإنساني مشيرا إلى الكبد والكلى، والقلب، والطحال، والأمعاء. في الحقيقة أيّها السادة إنّ الإجابة على هذا ما هي إلاّ سؤال آخر. ما مدى إصرار المريض على المقاومة لكي يعيش؟

أظن أنّ بإمكاني أن أفعلها

أنا متأكد من ذلك

ربّما أكتب الآن لكي لا أفكر في المحتوم، ولكن خطر لي الآن أنني لم أنه قصة سبب وجودي هنا ربّما يتوجب عليّ تكملة القصة، حيث قد تفشل العملية. سيستغرق الأمر بضع دقائق، وأنا متأكد من تبقّي ما يكفي من ضوء النهار لإنجاز العملية. فالوقت حسب ساعتي ماركة البولسار هو التاسعة وتسع دقائق صباحا. ها

طرتُ إلى سايجون كسائح هل يبدو لكم ذلك شيئا غريبا؟ ليس بالضرورة، لأنّ آلافا من الناس يذهبون هناك بالرغم من حرب نيكسون. هناك أيضا من يذهب لرؤية السيارات المحطمة ومباريات صراع الديكة

كانت البضاعة لدى صديقي الصيني. حملتها إلى انقو الذي أعلن أنها بضاعة وأخبرني أنّ لي - تسو قد مارس إحدى ألاعيبه قبل أربعة أشهر مما تسبب في قتل زوجته عندما أدارت مفتاح سيارتها الأوبل ومنذ ذلك الوقت لم يمارس أية ألاعيب

مكثت في سايجون لثلاثة أسابيع، وحجزت لنفسي مكانا لرحلة العودة على متن باخرة الركاب "كالاس" لم تكن عمليّة صعودي بالبضاعة على الباخرة صعبة، حيث قام انقو لقاء أجر بسيط بالإتفاق مع اثنين من رجال الجمارك بالسماح لي بالصعود بعد تفتيش صوري لحقائبي، أمّا البضاعة فهي داخل حقيبة من النوع المستعمل من قبل طواقم الطيران، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء النظر إليه

قال لي انقو: "إنّ المرور عبر الجمارك الأميركيّة هو أكثر صعوبة، ولكن تلك هي مشكلتك" لم يكن في نيّتي المرور بها عبر الجمرك الأميركي لأنّ روبي هانيلي قد اتفق مع أحد الغطاسين لكي يقوم بعمليّة معقدة مقابل مبلغ 3 000 دولار (عندما أفكر في الأمر الآن) كان من المفترض أن أقابله منذ يومين في أحد الفنادق الرخيصة ويدعى السانت ريجس في سان فرانسيسكو

كانت الخطة تقضي بأن أضع البضاعة في علبة لا يدخل إليها الماء، مربوط إليها ساعة توقيت وعلبة بها صبغة حمراء، ويتمّ رمي هذه العلبة قبل رسوّ السفينة على الرصيف، ويقوم شخص غيري بهذا العمل طبعا

خلال قيامي بالبحث عن نادل أو طباخ ما، لديه رغبة في الحصول على دخل إضافي، ويكون من الحكمة - أو الغباء لكي يلتزم الصمت في هذه الأثناء غرقت السفينة

لا أعرف كيف حدث ذلك أو لماذا، كان هناك عاصفة ولكن بدا لي أنّ السفينة متوازنة وتقاوم تلك العاصفة وعند الساعة الثامنة تقريبا من مساء يوم 23 حدث انفجار في مكان ما في الطوابق السفلية. كنت في صالة الجلوس في ذلك الوقت، ومباشرة تقريبا بدأت الكالاس تميل نحو اليسار

شاهدت الناس يهرولون في كلّ اتجاه، والزجاجات تسقط من أرفف الحانة وتتكسر على الأرضيّة ورأيت رجلا يترنح قادما من الأسطح السفليّة وقد احترق قميصه وانشوى جلده ثم بدأت مكبرات الصوت تطلب من الناس التوجه إلى أماكن قوارب النجاة التي خصصت لهم أثناء التدريب الذي أجري عند بداية الرحلة ولكن الركاب ظلّوا يركضون هنا وهناك، لأنّ قليلين منهم هتموا لحضور التدريب أمّا بالنسبة لي، فلم أحرص دائما على الاهتمام عندما يتعلق الأمر بحياتي

عدت إلى غرفتي، أخذت أكياس الهيروين ووضعت كلا منها في جيوبي الأمامية ثم توجهت إلى موقع قارب النجاة رقم 8، وبينما أنا أصعد سلالم إلى السطح الرئيس، سمعت صوت انفجارين آخرين، وبدأت السفينة تميل بصورة أكبر كانت الأمور على السطح في حالة فوضى تامة، رأيت امرأة صارخة تمسك طفلا في يديها وتمرّ بجانبي ثمّ ازدادت سرعتها عندما انطلقت على السطح المبلل المائل فاصطدمت بالحاجز الواقي عند فخذيها، ثم قذفت للخارج، رأيتها تدور مرتين في الهواء، وتفقد ابنها في الثالثة، ثم لم

أعد أراه. جلس رجل متوسط العمر على السطح في وسط ساحة المعمعة يشدّ شعره، بينما آخر يرتدي ملابس الطباخين على وجهه ويديه آثار حروق بالغة، يترنّح من مكان لآخر ويصيح: "ساعدوني! لا أستطيع الرؤية ساعدوني! لا أستطيع الرؤية"

عمّت الفوضى أنحاء المكان، وانتقلت بطاقم السفينة كالوباء. لا بدّ أن تعرفوا أن الوقت بين الانفجار الأول وغرق السفينة هو عشرون دقيقة. رصّت بعض نقاط تجمّع قوارب النجاة بالركاب المولولين، بينما خلت نقاط أخرى من أي شخص كادت نقطتي الواقعة في الجانب المائل صوب البحر أن تكون خالية تماما، عدا وجود بحار واحد بوجه ممتقع مليء بالبثور

قال لي وعيناه تدوران بجنون في محجريهما: "دعنا نرمي بهذا الدلو القديم الصفيق في الماء إنّ هذه السفينة اللعينة ستغرق قريبا"

كان تشغيل جهاز انزلاق القارب في غاية السهولة، ولكن بسبب اضطرابه تشابكت حبال البكرة التي في طرفه، ونتيجة لذلك سقط القارب لمسافة ستة أقدام وأصبح معلقًا في الهواء وبقيت مقدمته منخفضة عن مؤخرته بقدمين

استدرت لأساعده، وعندها بدأ في الصراخ لقد نجح في فك تشابك البكرة ولكنّ يده علقت. بدلا من الحبل رأيت الحبل يئزّ مدخنا على راحة يده المبسوطة وتتطاير معه قطع اللحم، ثم قذف به في الماء

رميت بسلام الحبال خارج السفينة وهبطت مسرعا، ثم فصلت القارب عن حبال الإنزال، وبدأت أجدّف وهو ما مارسته أحيانا في رحلات ترفيهية في البيوت الصيفيّة لأصدقائي، أما الآن فأجدّف لأنجو بحياتي كنت أعرف أنه ما لم أبتعد بسرعة عن السفينة المحتضرة قبل أن تغرق فإنها ستجذبني معها إلى القاع

لم تمرّ خمس دقائق إلا وقد غرقت. ولم أتوقع كل هذا الجذب القوي، فاضطررت للتجديف مثل المجنون لأظلّ في نفس المكان، أما السفينة فاختفت بسرعة، وفي مقدمتها لا يزال بعضهم متمسكون بالحاجز ويصرخون. لقد بدوا لي مثل مجموعة من القردة

ازدادت العاصفة سوءا، وفقدت أحد المجدافين لكنني نجحت في الإحتفاظ بالآخر، وقضيت الليل بأكمله فيما يشبه الحلم، كنت أطرح الماء من القارب، ثمّ أمسك المجداف وأحركه بقوة لأوجه مقدمة القارب إلى الموجة الضخمة القادمة. قبل الفجر بقليل من صباح يوم 24، بدأت حدة الأمواج تشتدّ خلفي مما أدّى إلى اندفاع القارب بسرعة إلى الأمام لقد كان ذلك مرعبا ولكنه مبهّج في نفس الوقت، فجأة نزعت كافة الألواح من تحت قدمي، وقبل أن يغرق القارب رُمي به على كومة الصخور المهجورة هذه. لا أعرف حتى أين مكاني ليس لدي أدنى فكرة فلم تكن الملاحة أبدا محلّ اهتمامي ها.ها

لكنني أعرف ما يتوجب عليّ عمله. ربّما ستكون هذه آخر كلمات أكتبها ولكن بشكل ما أعتقد أنني سأنجو الم فعلتها دائما؟ بالإضافة إلى أن زراعة الأطراف متطورة هذه الأيام. ستكون رجل واحدة كافية لأمارس حياتي.

لقد حان الوقت لمعرفة إذا ما كنت ماهرا، كما أظنّ.

لقد نجحت

أكثر ما شغلني هو موضوع الألم بإمكاني تحمل الألم، ولكنني اعتقدت أنه في مثل حالتي الضعيفة فإنّ الجوع والألم مجتمعين، يمكن أن يسببا فقدان الوعي قبل أن أنتهي من العمليةّ.

ولكنّ الهيروين حلّ المعضلة

فتحت أحد الكيسين وشممت مرتين بقوة من فوق صخرة مستوية - الأولى خلال الفتحة اليمنى، والثانية من اليسرى. كان الأمر يشبه شمّ ثلج يبعث خدرا بطيئا في الدماغ مبتدئا من أسفل. شممت الهيروين بمجرد أن انتهيت من كتابة مذكرات الأمس وكان ذلك عند الساعة 9:45 وعندما نظرت إلى ساعتي في المرة الثانية كان الظل قد انحسر عني والوقت هو 12:41. لقد ذهبت في إغماءة، ولم أحلم قط أن يكون الأمر بهذا الجمال، ولست أدري لماذا كنت مستهزئا بالأمر من قبل لقد اختفى الألم، والعذاب، والشعور بالتعاسة، وحلّ مكانها شعور بالنشاط والخفة

في هذه الحالة بالضبط قمت بإجراء العملية

شعرت صبعا بمقدار هائل من الألم، وأغلبه في المرحلة الأولى من العملية ولكن بدا وكأنّ الألم منفصل عني، كأنّه ألم شخص آخر لقد ضايقني ولكنه كان مثيرا إلى حدّ ما هل تفهمون ذلك؟ لو سبق وأن استعملتم دواء مكوّنا من المورفين القوي فربما ستفهمون ما أعني في هذه الحالة بالضبط قمت بإجراء العملية. إنه يفعل أكثر من تحييد الألم حيث يخلق حالة عقلية خاصة، ثم تحلّ السكينة. الآن أفهم لماذا يدمن الناس عليه، ولو أنّ "الإدمان" تبدو كلمة غير صائبة هنا، وأكثر ما تستخدم من قبل الذين لم يجربوه أصلا

في منتصف العملية بدأ الألم يصبح وكأنه شيء شخصي كانت أمواج من الإغماء تغمرني، ورنوت بشوق إلى كيس الدقيق الأبيض المفتوح ولكنني أجبرت نفسي على النظر بعيدا لو أنني أشفط شمّة أخرى فسأنزف حتى الموت، كما لو أنني فقدت الوعي. بدلا من ذلك مارست العد العكسي مبتدئا بمائة

كان النزيف هو العامل الأكثر حرجا، وكطبيب كنت على دراية بذلك. فلا يجب فقد أي نقطة دم بدون سبب لو أن مريضا نزف أثناء العملية في المستشفى، فيمكن تزويده بالدم بسهولة، أما هنا فليس لديّ مثل هذه الإمدادات. إنّ ما فقدته - عندما انتهيت من العملية كان لون الرمال تحت ساقي أسود - فلن أسترجعه إلى حين قيام المصنع الداخلي في جسمي بإعادة تصنيعه. لم يكن لديّ مثبّتا أو مرقأة أو خيطا صبيا

بدأت العملية في الساعة 12.45 تماما وانتهيت منها الساعة1.50 وقمت على الفور بتخدير نفسي بالهيروين بكمية أكثر من السابق ومباشرة غبت في عالم رمادي بدون ألم وبقيت فيه حتى الساعة الخامسة وعندما غادرته كانت الشمس تقترب من خطّ الأفق الغربي تدفع نحوي أثرا ذهبيا خلال سماء المحيط الزرقاء. لم أرقى حياتي روعة هذا المنظر. . لقد عوّضت هذه اللحظة كل هذا الألم. بعد ساعة تناولت شمّة أخرى، لكي استمتع بالكامل بمنظر غروب الشمس

بعد الغروب بقليل قمت بـ

قمت بـ

انتظروا هل أخبرتكم أنني لم أتناول شيئا منذ أربعة أيام؟ وأن المصدر الوحيد المتوفر لدي لأستعيد حيويتي المفقودة هو جسدي؟ وفوق كل ذلك، ألم أخبركم مرة بعد الأخرى أنّ النجاة هي أمر من اختصاص العقل؟ العقل المتطوّر؟ لن أبرر نفسي بالقول أنكم كنتم ستفعلون نفس الشيء. مبدئيا لا أظنّ أن من يقرأ كلماتي الآن من الجراحين، وحتى لو كنت تعرف آلية عملية البتر، فربما كنت سترقع الجرح بطريقة خرقاء غير متقنة، بحيث تنزف حتى الموت، و حتى لو نجوت من العملية والصدمة، فلن يخطر ذلك على تفكيرك المتمدّن. لا عليكم إنّ آخر شيء أفعله قبل مغادرة هذه الجزيرة هو إتلاف هذا الكتاب. كنت في غاية الحذر

لقد غسلتها جيدا قبل تناولها

7 فبراير

كان الألم الصادر عن الرِّجْل المقطوعة موجعا للغاية ويشتد مرّة أخرى ولكنني أظنّ أن الأمر الأسوأ هو الرغبة في الحكّ التي تسببها عملية التئام الجرح وتماثله للشفاء. لقد فكّرت هذه العشية في كل أولئك المرضى الذين كانوا يشكون من عدم قدرتهم على تحمل عدم إمكانية حكّ الجرح أثناء عملية الالتحام، وكنت أبتسم وأخبرهم بأنهم سيشعرون بتحسّن غدا، أما في داخلي فكنت أقول إنّ هؤلاء المنتحبين الذين لا يستطيعون التحمل، هم ناكرون للجميل، ولكنني أفهم وضعهم الآن لقد كدت بضع مرات أن أنزع الرباط عن رجلي، وأقوم بحكها غائصا بأصابعي داخل اللحم النيء الرطب، وأن أنزع تلك الغرز الخشنة لأدع الدم يسيل على الرمال أي شيء، أي شيء لأتخلص من هذه الحكة الفظيعة المسببة للجنون.

كنت في هذه الأوقات أعدّ عكسا من المائة، وأشمّ الهيروين

ليس لدي فكرة عن كمية الهيروين التي دخلت إلى جسمي، ولكنني أعرف أنني كنت مخدرا بشكل شبه كامل منذ إجراء العملية إنّ ذلك يخفّض من الإحساس بالجوع. عبالكاد أشعر به كل ما هنالك هو صوت هضم خفيف وبعيد في معدتي، ويمكن تجاهله بسهولة، ولكن لا يجب

القيام بذلك لأنه ليس للهيروين أى قيمة غذائية. قمت باختبار نفسي بالزحف من مكان لآخر لأقيس ما أملك من صحة، إنه تقلّ باستمرار

يا إلهي الرّحيم، أرجو ألاّ أضطر لذلك، ولكن.. يبدو أنّ عملية أخرى ضرورية.

(فيما بعد)

مرّت طائرة أخرى، وكانت مرتفعة جداً لتراني، كلما رأيته هو ذيلها يحفر في السماء، لقد لوّحت لها على كل حال، لوّحت وصرخت، وعندما اختفت بكيت

حلّ الظلام الآن ولا يمكنني الرؤية. الطعم. فكّرت في كافة أنواعه من طبق لازانيا أمي، و الحمص المصنوع بالثوم والإسكرجو، وطبق الكركند وأضلع العجول المشوية وشرائح المشمش، ومشويات تندى وفطيرة الكعكة الكبيرة ومعها بوظة الفانيليا المصنوعة في البيت التي عادة ما تقدم بعد الوجبات في كنيسة الأم الرائعة في النجادة الأولى، وكل ما يخرج من الفرن من البسكويت المملّح، إلى سمك السلمون، والألسكا الى لحم الخنزير المشويّ مع حلقات الأناناس وحلقات البصل والبطاطس المقلية التي تجعلك تمطّ شفتيك وأنت تأخذ رشفات طويلة من الشاي البارد المثلّج

94،95،96،97،98،99،100

إلهي إلهي إلهي

8 فبراير

هذا الصباح حطّ نورس آخر على كومة الصخور، وقد بدا كبيرا وسمينا كنت أجلس في ظل الصخور، وهو ما أعتبره مخيمي الخاص وقد رفعت رجلي المبتورة بدأ لعابي يسيل بمجرد أن حطّ الطائر، يسيل مثل لعاب الكلب البافلوف، يسيل دون مقدرة على إيقافه، كأنني طفل، كأنني طفل.

التقطت قطعة حجر بالكاد تقبض عليها راحتي وبدأت أزحف صوبه [اجتزت ثلاثة ونحن في الربع الأخير، بعرز بينزيتي الكرة للخلف(بابن، أعني باين)](3) لم يكن لدي أي أمل، حيث سيطير حتما ولكن عليّ المحاولة لو أستطيع الحصول عليه، هذا الطائر السمين المتغطرس فسأرجئ العملية الثانية إلى أجل غير مسمى، أخذت في الزحف نحوه بينما جذعتي ترتطم بالصخور مرة بعد الأخرى مما كان يرسل شرارات من الألم في كل جسمي، وانتظرت أن يطير في أي لحظة كان يتفقد قوّاته وبين فينة وأخرى ينظر إلي بعينيه السوداوين البعيضتين الكريهتين، وعندها أتجمد في مكاني كالصخرة وأشرع في العد العكسي إلى أن يبدأ في الحركة من جديد كنت أشعر بمعدتي تمتنئ بالثلج لكل حركة من جناحيه، واستمرّ لعابي في السيلان ولم أتمكن من منع ذلك لقد كان لعابي يسيل كما طفل

لا أدري كم مكثت أتربص ساعة؟ اثنتان؟ وكلما اقتربت أكثر ازدادت شدة ضربات قلبي، وأصبح النورس شهيا في نظري بصورة أكثر بدا وكأنه يعذبني وتكوّن لدي الاعتقاد بأنني ما إن أقترب منه لمسافة رمي الحجر إلاّ ويأخذ في الطيران أخذت يداي وساقاي ترتعشان، وجفّ ريقي، وأخذت جذعتي تنبض بعنف من الألم واعتقدت أنني أعاني من آلام الانقطاع عن تناول المخدر لكن أليس مبكرا على حدوث ذلك؟ فلم يمض علي أكثر من أسبوع منذ بداية تعاطيّ له!

لا يهم فأنا في حاجة إليه ولا يزال لدي الكثير منه، الكثيرإذا ما اضطررت للمعالجة منه عندما أعود للولايات المتحدة فسأراجع أحسن مصحّة في كاليفورنيا وأنا أبتسم، ولكن هذه ليست المشكلة الآن، أليس كذلك؟

عندما وصلت إلى الموقع المناسب لرمي الحجر لم أرغب في قذفه فقد تملكني يقين مجنون أنني سأخطئه، ربما بمسافة قدم. إذن لا بد لي أن أقترب أكثر وعليه استمررت في الزحف فوق الكومة من جديد كان رأسي مائلا للخلف والعرق يتصبب من جسدي المهرول أما أسناني فقد أخذت تتعفّن هل أخبرتكم عن ذلك؟ لو كنت شخصا متشائما لعزوت ذلك لأكلي للـ

ها! تعرف أكثر من ذلك أليس كذلك؟

توقفت ثانية. لقد أصبحت أقرب إليه مما كنت للنورسين الآخرين، ولا أزال غير قادر على قذفه بالحجر لقد قبضت على الحجر حتى آلمتني يدي ولم أستطع رميه، لأنني أعرف ماذا سيعني الخطأ في إصابته

لن يهمّ إذا استعملت كلّ البضاعة! سأقاضي أولاد الكلاب هؤلاء، وسأعيش في رفاهية ما تبقى من حياتي، حياتي الصغيرة الطويلة

أظنّ أنني كنت سأزحف إلى أن أصل إليه لو لم يبدأ في الطيران كنت زحفت إليه وخنقته ولكنه فرد جناحيه وطار صرخت فيه وارتكزت على ركبتي ورميت بحجري بكل ما أملك من قوّة، وأصبته!

صدرت عن الطائر صرخة حادة مخنوقة وسقط في الجنب الآخر من كومة الصخور أخذت في الصراخ والهذيان وبدأت الزحف إلى الجنب الآخر عابرا فوق قمة الكومة، غير عابئ الآن بارتطام جذعتي بالصخور وفتح الجرح من جديد فقدت توازني وسقطت على رأسي، لم ألاحظ ساعتها ولكن نتج عن ذلك انتفاخ كبير في مكان الضربة. إنّ كل ما أفكر فيه هو ذلك الطائر، وكيف أصبته بحظي المعتاد، حتى إنني أصبته في جناحه!

كان يترنح صوب الشاطئ على الجانب الآخر مستندا إلى جناح واحد، والجزء السفلي من جسمه أحمر مبلل لقد زحفت بأسرع ما أستطيع، ولكنه زحف أسرع مني سباق المعاقين! هاها! كنت على وشك الإمساك به. لأن المسافة بيننا أخذت تقل ـ لولا يداي. إذن لا بد أن أعتني بهما جيدا، فربّما سأحتاجهما ورغم حرصي فقد تسلّخت راحتاي، وانكسر زجاج ساعتي البولسر على صخرة حادة. عندما وصلنا إلى الممر الضيق على الشاطئ، زحف الطائر صوب الماء وملأ المكان زعيقا، ومددت يدي لأمسك به فقبضت على حفنة من الريش التي طارت في يدي، ثمّ وقعت في الماء الذي دخل فمي، فصرت أسعل وأنفض الماء

زحفت إلى الداخل أكثر، حتى إنني حاولت العوم. سقط الرباط عن جذعتي وبدأت أغوص في الماء، وبالكاد استطعت الوصول إلى الشاطئ، أرتعد من الإجهاد ويعصرني الألم، أبكي وأصيح وألعن النورس الذي ظلّ طافيا هناك لمدّة طويلة مبتعدا شيئا فشيئا تذكّرت في لحظة أنني كنت أستعطفه لكي يعود، ولكنني أعتقد أنّه كان ميتا عندما انجرف خلف سلسلة الصخور

ليس هذا بعدل

استغرق مني الزحف عائدا إلى مخبئي حوالي الساعة شممت كمية كبيرة من الهيروين، ورغم ذلك لا أزال غاضبا من النورس بما أن الإمساك به مستحيل فلماذا كان يغريني؟ لماذا لم يطر من البداية؟

9 فبراير

بترت قدمي اليسرى واستعملت سروالي لربطها أمر غريب فقد كان لعابي يسيل طوال مدّة العملية، يسيل، يسيل بدون تحكم مني، مثل ما حدث عند رؤيتي للنورس، ولكنني أجبرت نفسي على الانتظار حتى حلول الظلام واضطررت لكي أصبر أن ألجأ للعد العكسي من مئة عشرين أو ثلاثين مرّة هاها!

ثم .

بدأت أقول لنفسي شرائح لحم باردة، شرائح لحم باردة، شرائح لحم باردة

10 فبراير(؟)

هطل المطر خلال اليومين الأخيرين، وهبّت رياح قوية تمكنت من تحريك بعض الأحجار من كومة الصخور بما يكفي لتكوين حفرة أستطيع الزحف إليها وجدت عنكبوتا صغيرا، ضغطت عليه بين أصبعي قبل أن يتمكن من الفرار وأكلته كان لطيفا ومليئا بالسوائل فكّرت أن الصخور من فوقي قد تنهار وتدفنني حيا، ولم أهتمّ.

ظللت مسطولا طوال فترة العاصفة، ربما قد أمطرت لمدة ثلاثة أيام وليس اثنان، أو ربما يوما واحدا ولكنني أعتقد أن الظلام قد حلّ مرتين كم أحبّ أن أغفو، حيث لا أحسّ بالألم أو الحكة عند ذلك أعرف أنني سأنجو، إذ لا يمكن لشخص أن يقابل كل هذا العناء من أجل لا شيء

عرفت في صغري قسيسا في كنيسة العائلة المقدسة، وقد كان ضئيل الحجم بشبه الأقزام، ويحب دائما الحديث عن الجحيم والخطايا الكبرى، وكان يكثر من العودة إلى هذا الموضوع، وفي رأيه أنه لا يمكن للمرء أن يحصل على الغفران بعد موت روحه وارتكاب الخطيئة الكبرى لقد حلمت البارحة بالأب هايلي، يلبس معطف حمامه ذا اللون

الأسود، وبأنفه المتضخم من كثرة تناول الويسكي، كان يهزّ إصبعه في وجهي قائلا: "ألا تخجل يا ريتشارد بينزيتي. لقد قتلت روحك. ومصيرك الجحيم، يا فتى.. مصيرك هو الجحيم."

ضحكت هازئا إذ لم يكن هذا المكان هو الجحيم، إذن ماهو الجحيم؟ إنّ الخطيئة الكبرى هي في الإستسلام. أمضي نصف الوقت في حالة هذيان، وما تبقى منه فإنّ جدعاتي تهرشني وتجعلها الرطوبة تؤلم مظاعة.

لكني لن أستسلم، أقسم أنّ هذه المعاناة لن تذهب هباء لن تذهب هباء.

11 فبراير

بزغت الشمس من جديد، يوم جميل كان يوما جيدا بالنسبة لي، وهو كأحسن ما تمرّ الايام على هذه الجزيرة حيث يبدو أن الحمّى التي كانت ترافقني خلال العاصفة قد ذهبت، كنت ضعيفا، أرتجف عندما غادرت ملجئي، ولكن بعد أن استلقيت في الشمس لساعتين او ثلاث، بدأت اشعر وكأنني إنسان من جديد.

زحفت حول المنطقة الجنوبيّة وعثرت على عدة قطع من اللوح التي جلبتها العاصفة بما فيها بعض ألواح من قارب النجاة، وقد علقت أعشاب بحريّة ببعض تلك الألواح فأكلتها. كان طعمها سيّئا كأنك تأكل سترة حمّام مصنوعة من الفينيل، ولكنني شعرت بأنني أكثر قوّة هذه العشيّة.

قمت بجر الأخشاب إلى أبعد ما يمكن لكي تجفّ، ولا يزال لدي علبة كاملة من الثقاب المضاد للبلل. سيعمل هذا الخشب بمثابة نار للإشارة وجلب الإنتباه إذا أتى أحد قريبا، ونار لطهي إن لم يأت أحد، أما الآن فسأشمّ بعض المخدر.

12 فبراير

عثرت على سلطعون بحري، فقتله ثمّ شويته على نار صغيرة. أكاد الليلة أن أومن بالله من جديد.

13 فبراير

لاحظت هذا الصبح أن العاصفة قد جرفت بعيدا أغلب الصخور التي استعملتها لكتابة كلمة النجدة، ولكن العاصفة انتهت لثلاثة أيام خلت؟ هل كنت مسطولا إلى هذا الحد؟ لا بدّ أن أكون حذرا وأخفف من الجرعة، ماذا لو مرّت سفينة في الوقت الذي أكون فيه مسطولا؟

14 فبراير

أعدت تشكيل الحروف، واستغرق ذلك مني اليوم بطوله والآن أشعر بالإنهاك الشديد. بحثت عن سلطعون في المكان الذي عثرت فيه على الأول، ولكن بدون فائدة. جرحت يداي على الصخور عندما كنت أرتب الحروف ولكنني قمت على الفور بتنظيفها بالمطهر، رغم الإنهاك الذي أشعر به. مهما حصل فلا بد أن أحافظ على يدي.

15 فبراير

حط نورس اليوم على قمة كومة الصخور، ولكنه طار بعيدا قبل أن اقترب منه. تمنيت له أن يذهب للجحيم حيث سيظلّ سيفقأ عيني الأب هايلي الصغيرتين المحمرتين بلون الدوم وإلى الأبد.

ها ها

ها ها

ها!

16 فبراير(؟)

بترتُ رجلي اليمنى عند الركبة، ولكنني فقدت الكثير من الدم، وكان الألم يعاودني رغم الهيروين، كن الصدمة ستقتل شخصا أقل مني رجولة. دعوني أجيبكم بالسؤال التالي: ما مدى إصرار المريض على النجاة؟ ما مدى رغبة المريض في الحياة؟

يداي ترتعشان. إذن خانتاني فسيكون في ذلك نهايتي، ليس من حقهما أن يغدرا بي لقد اعتنيت بهما جيدا طوال

حياتهما، ودللتهما من الأفضل لهما ألا يفعلا، وإلا سيندمان

على الأقل لست جائعا.

شرحت إحدى ألواح القارب عند المنتصف، وكانت إحدى انهايتين مدببة وهي التي استعملتها. كان لعابي يسيل، ولكنني أجبرت نفسي على الانتظار، ثم بدأت أفكر في. أوه، حفلات الشواء التي كنا نقيمها في ذلك المكان الذي يملكه ويل هامرسميث في لونج ايلاند حيث مرجل الشواء من الضخامة ليتسع لشواء خنزير كامل. كنا نجلس على ضفاف الماء عند الغروب نحمل في أيدينا مشروبات مختلفة، نتحدث عن فنون الجراحة، أو نتائج مباريات الجولف، أو أمور أخرى، وعندها يحمل إلينا النسيم رائحة لحم الخنزير المشوي. يا يهوذ الأسخريوطي(4).. الرائحة الزكية للحم الخنزير المشوي

؟ فبراير

بترت الرجل الأخرى عند الركبة، وقضيت اليوم شبه نائم "دكتور هل كانت هذه العملية ضرورية" يدي ترتعدان مثل يدي عجوز كم أكرههما والدم يتجمع تحت أظافري. أيتها الحرباء هل تذكرون الموديل المستعمل في مدارس الطب بمعدته الزجاجية؟ إنني أشعر مثله تماما، ولكنني لا أريد أن أنظر غير ممكن بأية طريقة، وأتذكر عندما كان دوم يردد ذلك وهو يقترب منك راقصا مرتديا سترته المرسوم عليها شعار نادي متمردي الطريق وعندما تقول له يا دوم كيف سارت الأمور معها؟ يرد: غير ممكن بأية طريقة أواه، يا دوم العجوز، ليتني بقيت في الحي القديم إن هذا يؤلم بقسوة كما يقول دوم. ها ها

ولكن كما تعرفون، فأنا مقتنع أنه بالعلاج المناسب، وبالجراحة الترقيعية، يمكنني أن أصبح طبيعيا من جديد، وسيمكنني العودة هنا وأقول للناس " في هذا المكان، حدث كل شيء"

ههاها!

23 فبراير (؟)

عثرت على سمكة ميتة، فاسدة وكريهة [illegible] أكتب

على كل حال، وقد شعرت برغبة في التقيؤ، ولكنني منعت نفسي سأقاوم وأعيش أنا مسطول بطريقة لذيذة. مناظر الغروب هذه

فبراير

لا أجرؤ، ولكن لا بد من القيام بذلك ؛ ولكن كيف يمكنني ربط الشريان الفخذي مرتفعا هكذا؟ إنه من الطول وكأنه أوتوستراد داعر

لا مفر من القيام بذلك، لقد علمت بواسطة القلم المكان فوق قمة الفخذ، حيث يوجد الجزء المكتنز باللحم

ليتني أمنع لعابي من السيلان

ف

أنت. بصاحة إلى الراحة اليوم... وعليييه. انهض واذهب بعيدا. إلى مطعم ماكدونالد. أريد قطعتين من اللحم الصافي. مع صلصة حصة. وسلطة ومخلل مع بصل.. وخبز مصنوع بالسمسم..

دي دييي. داندادي

نظرت إلى وجهي اليوم منعكسا على صفحة الماء، ولم إلا جمجمة يغطيها الجلد. هل جننت بعد؟ لا بد أنني جننت أنا وحش الآن، وحش استثنائي. لا يوجد شيء تحت الأربية إنني مجرد رأس ملتصقة بجذع، يجر نفسه على الرمال مستعملا يديه، منحرف منحرف مسطول أليس ذلك ما يسمون أنفسهم الآن؟ اسمع يا رجل، إنني مجرد منحرف مسطول تعس، هل يمكن أن تعطيني بعض النقود

هاهاها ها

يقولون إن المرء هو ما يأكله. إذا كان الأمر كذلك فلم يحدث لي أي تغيير! يا إلهي العزيز، صدمة الحوادث صدمة الحوادث، لا يوجد شيء اسمه صدمة الحوادث

هـ

40فب/؟

حلمت أني عند شخص يسمى لغته الإنجليزية

شهروا الراية أمام ناظريه فرمى بها على الرصيف

فصرخوا قائلين: ألا تكفك هذه الراية، ألا يعنيك أن تعترف لك مدينة بالجميل، وهي التي شهدت إبحار سفن أضخم بكثير من سفينتك بل إسمها معروف في العالم أكثر من إسمك.

ارفع الراية، وإلا طرحناك بجانبها.

رفع الراية و أعادها من جديد بين أيديهم

آه منك، اعتقنا وامض في سبيلك، إلى أين تبغي الآن الترحال من جديد يا سيد العارفين، يا ذا الرقة، يا من يعيش كالطائر حرا، بلا عائلة، على ظهور بحارته.

أفضل من أن أعيش على ظهوركم، قال ثم أدار ظهره واقعا من جديد.

-3-

حين دخلوا عليه وهو مرميّ في الزنزانة قالوا ماذا كنت تنتظر، أكنت تنتظر أن نتركك تمضي في سبيلك مرة ثالثة

أخرجوني من هنا، ليس لكم الحق

إن شقوق التي سددت في الحيطان انشرحت من جديد، النساء يرتعشن بردا والأطفال يتصارخون، الحيطان تغرق في الأرض، وإنك ستغرق معها إن لم تساعدنا، إنك الوحيد الذي يستطيع مساعدتنا، لأنك علمت بهذا، ولم يكن بعد قد ظهر للعيان. لقد ذكرت لنا ذلك بنفسك، عندما جئت هنا أول مرة

كان مجرد مزاح لكن ما عساني أفعل وقد انقلب إلى مزاح ثقيل

سنؤجل الضحك إلى بعد حين، أما الآن فأخبرنا كيف نتمكن من الخلاص

أنا بحار: ليس بمقدوري أن أجعل المطر يسقط من أسفل إلى فوق

إذن شاهد بعينك كيف تسقط ما عادت سفينة ترسو في مينائنا لقد تحدثت عن مصيبتنا في باقي المدائن

قال: كلّ يعمل ما في وسعه، المدينة مدينتكم، ولكل زمان زوال

إذن أستعجل زوالك وغلقوا الباب.

أسند رأسه إلى الحائط وأخذ ينصت إلى الدماء تتدفق في شرايينه : لأجل النساء اللواتي أخلفت بهن ووقفن خلف الشبابيك، شاحبات الوجوه ، من أجل الرجال الذين طرحتهم أرضا، وكانوا مرميّين في الشوارع مفتوحي الأذرع

قال: أتجمدّ بردا، حين تسع الملاحون الشقّ في الحائط وساقوه خارجا، عبر الأنفاق تحت الشوارع حتى الميناء.

قال أحدهم: هذا آخر إبحار لي على سفينتك، سأواصل الإبحار معك، قال آخر

قال: شرّعوا الأقلعة! وبصق في الماء

-4-

قال: ها هم الآن يتراقصون فوق أنقاضهم ثم أردف، حينما صرف البحرة وجوههم: انظروا إليهم جيدا

ماذا نريد منهم بعد.

لا شيء، فقط لأرى كيف تأفل هذه المدينة، هذه المدينة التي ولدت بها والتي لم تعترف بي مجددا كيف تأفل هذه التي تشرب دماء ساكنيها حتى الثمالة، بحيث يتحولون إلى مجرّد أغلفة تترنّح طافية عبر الطرقات

ها قد انشرح صدرك الآن، يمكننا أن نرحل في الحال

كان يزعق : انظروا! إنهم في الوقت الذي هم فيه يتطلّعون إلينا لا يروننا، ما أشدّ لمعان عيونهم وما أشدّ هلعهم وهم يضربون السوق بالسوق، وكأنّ الدكاكين ستفتح في الغد وكأنّ الأعلام سترفع من جديد

هيّا، تعال أخيرا

أحضروا لي شراب إنّها لوحة اسمها الحمراء حمرة الدّم، وجوههم الشاحبة، العاكيات المتلألئة بين الأنقاض وصواري الاتصال الأثيري السوداء طلقاء ببحر الأزرق

قالوا : نعم، نعم، وهم يركبون السفينة

قال: عندما وقفوا بجانبه ووجوههم تتفصّد عرقا هل أخذتكم الشفقة عليهم

بل عليك نشفق إبحارك لمقبل ستقوم به بمفردك شخص مثلك سيقود بنا المركب لا محالة صوب الصخر

ماذا تعرفون إذن، ماذا تعرفون إذن عن دقات النبض في شراييني حينما أشاهد البحر.

نحن لنا أشغالنا، أمّا دقّات النبض فنتركها لك

-5-

كان قد وثب على كتفي الملاّح وأطبق بفخذيه على صدره حتّى أفرغ ما بالرئتين من هواء. كان الملاّح يلعن، ويتوسّل ويلطم، لكنّ البحار كان فوق كتفيه يدفعه دفعا إلى الأمام، عبر أطواد من حجارة، من عربات ومن ورق، إلى أن وصل به أمام قبر مكشوف.

كان الصمّت مخيما، وكان الملاّح يرمق الحفرة

سأل البحّار: أنت تعرف ما سيحصل

أنت آخر من تبقّى وتريد أن تقتصّ منّي. سوف تلقي بي في هذه الحفرة، وتبحر سفينتي لن يكون الحظّ حليفك، لأنه سوف بحّارة لن تنال مبتغاك

لن أرحل

قال الملاّح إذن ستجبرني على البقاء هنا، أصبح الأمر سيان، البقاء أو الفناء.

ماذا عسى امرؤ لا يتقن غير الترحال أن يعرف

بقاء أو موت. الأمر سيان

قال الرجل . سوف ترحل من جديد، لكن ما من مدينة ستسمح لك مجددًا بالإرساء على أراضيها حالما تطأ الميناء سيعتقدون بأنّه سيصيبهم ما أصابنا، وقفز من كتفي الملاح في الحفرة المكشوفة

ارحل، ارحل إلى حيث شئت لكنك نسيت شيئا

رفع الملاّح الحجر عاليا صوب الرجل

ماذا نسيت

فتح الرجل فمه، لكنّ الحجر انزلق من راحتي الملاّح وهشّم رأس الرجل

عاد إلى سفينته من جديد وجعل ينظر إلى المدينة، ثمّ صرف بصره شطر ما وراء البحر، لكنّه بقي لحظتها ينتظر عبثا دقات النّبض في شرايينه

مـراسـلـة

توفي يانسون في اليابان

قصة : توفي يانسون فنلندا
ترجمة : عبد السلام الغرياني*

عزيزتي السيدة يانسون :

أنا فتاة يابانية ابلغ ثلاثة عشر عاما وشهرين اما الرابعة عشرة مسابلغها في الثامن من مارس القادم، لدي شقيقتان صغيرتان واقرأ كل ما تكتبينه كما اقرؤك افكر في الثلج طوكيو... مدينة كبيرة وانا طالبة مجتهدة تتعلم الانجليزية، إني أحبك. أحلم بأنني عندما أكبر أصبح مفكرة أنت مثلي، ولدي أحلام كثيرة

... ثمة قصيدة يابانية من نوع ال (هايكو) سأرسلها اليك، إنها تحكي عن زهرات الكرز، اه، هل تعيشين في غابة فسيحة ؟ المعذرة عن مكاتبتك مع امنياتي لك بالصحة والعمر المديد ...

تامبكو أتسومي

* * *

عزيزتي السيدة يانسون :

اليوم هو عيد ميلادي.. إنه يوم ثمين وهديتك مهمة بالنسبة لي

الجميع امتدح هديتك وأحب ... من خلال الصورة ... الجزيرة الصغيرة التي تعيشين فيها.

هل ثمة جزر معزولة في فنلندا ، وهل يمكن لأي شخص ان يعيش هناك ؟ أحب الجزر المعروفة والأزهار والثلج أتمنى العيش فيها وإن كنت لا أستطيع وصفها

... طالبة مجتهدة جدا... و قرأ كتبك بالانجليزية في اليابان تختلف كتب بعضها عن بعض ولا أدري السبب ؟

علم إنك سعيدة، اعتني بنفسك، مع تمنياتي لك بطول العمر

تاميكو أتسومي

* * *

عزيزتي السيدة يانسون :

لقد مضت خمسة أشهر وتسعة أيام منذ اخر رسالة استلمتها منك . فهل استلمت رسائلي وهداياي ؟ . لقد افتقدتك، وحلمي هو السفر للبلدان الأخرى والتحدث بلغات بلدان جديدة وتعلم الادراك ... اريدك أن تتحدثي إلي وقتما أكون قادرة على الحديث معك ... أخبريني كيف لا ترين البيوت الأخرى، وكيف لا تقابلين أحدا في الطريق ؟!

أريد أن أعرف كيف تكتبين عن الثلج ؟ وأريد أن اجلس بين يديك وأتعلم . إلى أن أدخر المال للسفر.

---

* أديب ليبي

الآن أرسل إليك (هايكو) جديدة، إنها تروي قصة امرأة عجوز رأت جبالا مظلمة تضيء عن بعد... لم ترها العجوز تضيء أبدا في صباها، والآن لا تستطيع أن تمشي إلى هناك. إنها (هايكو) جميلة... كوني بعظة

(تاميكو)

* * *

عزيزتي يانسون سان :

بالتأكيد انتهت رحلتك ورجعت إلى البيت.. رحلتك استغرقت أكثر من ستة أشهر، فإلى أين سافرت عزيزتي (يانسون) وما الذي تعلمته من رحلتك؟ ربما أخذت (الكيمونو) معك. إنه كثير الأمور كالغريب وقت الرحلات.. لا بد أنك تحدثت كثيرا، ألم يكن لديك وقت كاف؟

...الوقت هنا يمضي - عندما أفكر فيك - ببطء. أريد أن أكون متمرسة مثلك وأفكر فقط بالأشياء الكثيرة

إني أحتفظ برسائلك في صندوق جميل لا تدركه العيون وإني أقرأها مرة بعد مرة، كل غروب

(تاميكو)

* * *

عزيزتي يانسون سان :

مرة عندما كتبت إلي وكان صيفا في فنلندا وأنت في جزيرتك المعزولة، قلت لي إن البريد نادرا جدا ما يأتي إلى الجزيرة. هذا يعني أنك تلقيت مني رسائل كثيرة في وقت واحد. قلت لي مدهش أن تسير القوارب دون توقف، أنت نشأت كتب عن الشتاء ووصفت أحلامي.

أتمنى أن أكتب قصة يتفهم كل واحد أحلامه. أخبريني كم من العمر يجب أن يبلغ المرء ليتمكن من كتابة قصة؟ أعتقد أنني بدونك لن أستطيع كتابتها. سأنتظر، وتتعاقب الأيام

أخبرتني أنك متعبة جدا. أحس كثيرون يعملون سأكون الشخص الذي يقيك العزلة ويسليك ها هي (هايكو) حزينة تصف كيف يكون المرء عندما ينتظر طويلا محبوبة

آه، ستستطيعين أن تتصوري ماذا حدث!

الترجمة ليست جيدة كفاية، ولكن انجليزيتي تحسنت أليس كذلك؟

لك إلى الأبد

(تاميكو)

* * *

عزيزتي يانسون سان :

أشكرك وبهدوء حقيقي لم تكبري تماما. كانت تلك بداية القصة يجب أن تكتبي عما تعرفينه. وعن أحلامك العديدة ما الذي لا تعرفينه عزيزتي (يانسون) لا تكترثي بالآخرين وتكوني في الطريق الصحيح فكري بنفسك ومهما تكتبين صعب أن يحب الانسان شخصا ما بعيدا عنه. علي أن أسرع في الكتابة عن ذلك قبل أن يصبح ثقيلا. أبعث إليك بـ (هايكو) أخرى، تتناول نهرا صغيرا، في ربيع مفرح، فكل يستمتع ويشعر بالحماسة، ليس لدي الوقت لترجمتها

لقد ادخرت للسفر المال، فمتى أقدم عليك. سأحصل على منحة للرحلة التي ستكون أحلى شهر لي. لنا لقاء

(تاميكو)

* * *

عزيزتي يانسون سان :

شكرا لرسالتك أتفهم الآن أن الغابة كبيرة والبحر واسع في فنلندا وأن بيتك صغير جدا. رائع أن يقابل الكاتب فقط في أعماله الكتابية إنني أتعلم طوال الوقت. أتمنى لك الصحة

لمحبة (تاميكو تسومي)

* * *

عزيزتي يانسون سان

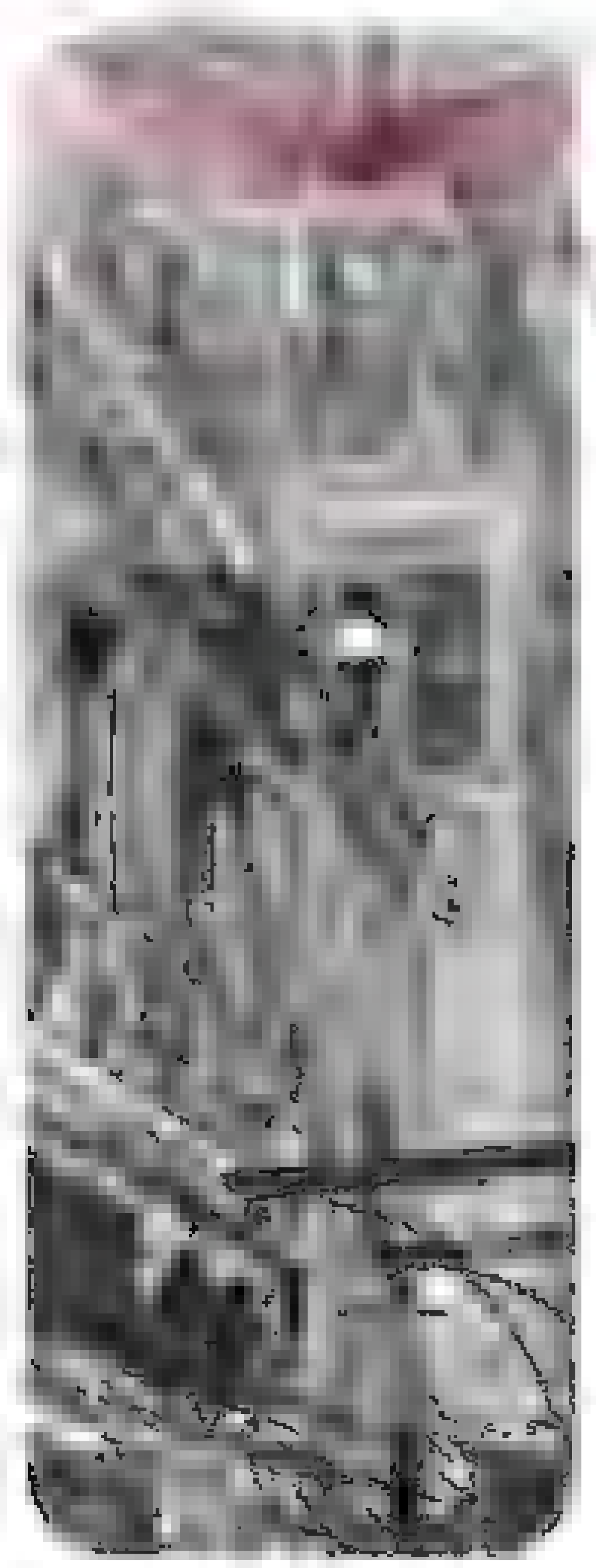
الثلج يهطل طوال اليوم. الآن أعرف كيف أكتب عن الثلج. أمي ماتت اليوم، حكيمة الأسرة ماتت.

هذه القصيدة كتبها (لاو شه يوان) الذي كان أعظم شاعر صيني. الثلج المتوهج يتحدث في السماء مع السحب المتوهجة... الريح الشمالية تأخذ معها أصوات

الستونو.. المحاولة العقيمة

صديقتك المسكينة لاشيء لديها لتهديك إياه في لحظة الافتراق عقد الحبل المظلمة سوف تصاحبك في المنطقة النائية.

(تاميكو)



إنّ الأثر المعماري، هذه الوثائق التاريخية القائمة والحاضرة في حياتنا والتي تعبر عن فترات من تاريخنا وهويتنا تقف اليوم شاهدا على مدى تطور المجتمعات حيث تحمل في طياتها معاني متعددة ومتجددة بتجدد النظر إليها ومن خلالها لرسم معالم مستقبلنا و نحت شكل حضورها في حياتنا وذلك حتى ندارك ماضينا بتحصين و تثبيت معالم و خصوصيات هويتنا الوطنية كركيزة صلبة للانفتاح على الذات وكحقل دلالي شاسع يوفر إمكانيات متنوعة للانفتاح على الآخر و التواصل معه

إن الحفاظ على التراث المعماري يمثل قيمة حضارية تستحث كل المجتمعات للعمل من أجل تطويره و تحديث طرق تقديمه وعرضه و التعريف به حتى يصبح مادة مستساغة قريبة من الوجدان و فكر كل المشتغلين و المهتمين به وهو كذلك قيمة علمية اقتصادية تخصص لها الميزانيات الكبرى للمحافظة عليه و تقديمه بأشكال متعددة و متميزة تشجع على زيارته و الإقبال عليه ليصبح حافزا حيويا يدفع لزيارة البلد و الإقبال عليه



نهج سيدي [illegible] الحلفاوين تونس



جانب من رواق [illegible] بعد إعادة البناء





إن هذا التوجه يحقق للفضاءات التراثية حضورا متميزا و حيويا في الذاكرة الجماعية يدعم جاذبيتها حتى تصبح قبلة متميزة للزائرين. هذا الزائر، المشاهد، الذي يتعامل مع الموقع و المعلم الأثري، الذي يزوره عن طريق الفرجة والمشاهدة وهو ما يشجع ويدعم فكرة مسرحة المشهد التراثي المعماري و تقديمه بكل جمالية و دقة

حتى يتسنى لنا ذلك، فقد تمّ النظر في تحديد أشكال التقديم والعرض الخاص بالتراث و تعزيزها بتصورات متكاملة تعتمد إعادة التصور (Restitution) و إعادة البناء (Reconstruction) والعمل على إثراء المجموعات الإيكونوغرافية كشكل

بتقنية جديدة بتقديم التراث المعماري ... بمنطق في ... صورة حتى يتم الاستفادة ... من الموروث المعماري
الذي نبحث في الحلول الجديدة لإعادة ... وإحيائه

ان ... بمعرفي ... على اثر اشتغلت ... عشر سنوات في مجال ... على التراث ... هو
بإسلاع مدائن ... على الحروب المتعددة ... الاسكان ... المثلى التي تساهم
في حمايته و ... ولقد ... في رحاب ... اوصي ...
عملية الحفاظ والتصميم تعلمي بالمعلومات المتطلبة ... يجب ... اهم ... حتى تنسجم مع الزخم





مسجد ...

... الحدث والتقنيات الحديثة المستخدمة في تحديد شكل وتقديم الصورة التراثية أن تستغل الأمثل لأداء ... مهمة يتمثل في الاستخدام ... الأدوات المعرفية ... حتى تبني الاستجابات ... [illegible] ... حلقا جديدا للصورة ... تحقق له دورا فعالا [illegible] للمشاهد و ... هذا الدور ... الذي يتبرز ضمن الحركة المعاصرة التي تدعو إلى ... لإحواء مشهدية توفر ... [illegible]

... تحولات المعهد الوطني للتراث في مجال تحديد شكل العرض ... التراث المعماري والأثري حتى يتبوأ مكانه ... [illegible]

اعادة بناء منزل افريقيا بالحجم

... عن فكرة ... الدجاج ... [illegible] ... العراق ... معدة للعرض ... [illegible] ... من نسبه إلى ... [illegible]



منظر علوي ... [illegible]



المدرج الروماني بدقة [illegible]

وإزاء هذه النقائص، جاءت فكرة تقديم مجموعات فسيفساء بمنزل روماني في شكل تشخيص لأجواء مشهدية تعتمد البعد الثالث لغة جسدية للعرض والتخاطب

وسعيا إلى التأكيد على جانب الفرجة [illegible] عن الأجزاء المجردة والمجهولة وتقديما لفضاءات مشخصة ومعاشة دون لمس جوهري بسمات الدار، تقررت إعادة بناء أجزائها الرئيسية، أي جناحها الفاخرة مع حذف بعض غرف الخدمة المشار إليها بمجرد إشارة والشقق المخصصة–مع حذف بعض توابعها الثانوية. أما الأجزاء المزدانة بالفسيفساء فهي ممثلة بأكملها في هذا التشكيل الجديد، بحيث يمكن للزائر لأول مرة أن يتجول في أجواء دار فاخرة تنتمي إلى العهد الروماني وأن يحس إحساسا واقعيا بفضاءات وجدرانها وزخارف أرضها بكل دقة مع لوحاتها الفسيفسائية بعد أن وضعت في إطار مماثل تماما لإطارها الأصلي، في حين كان هذا النوع من الفن المعماري لا نشاهد إلى حد الآن إلا عبر آثار وأنقاض غير معبّرة وجدران قليلة الإرتفاع أو غير موجودة وقطع متناثرة من تيجان وأعمدة ولوحات فسيفسائية غير مشكلة لأن أجملها وأطرفها نقل إلى المتاحف

ولقد أعيد تشكيل هذه الدار الفسيحة في سياق تاريخي بحت ذي طابع تعليمي حيث حفظت آثار عدة منازل كبرى من الحي الجنوبي الشرقي في تيسدروس، محاذية لنهج روماني في حالة جيدة من الحفظ، وعلى مقربة مباشرة من المتحف الأثري و بالتالي في إطار يوحي تماما بالمظهر الأصلي لتلك الدار. وقد خصصت فضاءات أخرى لتقديم إرشادات حول الفنّ المعماري عند الخواص بتيسدروس في العهد الروماني وحول تقنيات البناء العتيقة، وذلك بواسطة لوحات بيانية و عينات من المواد القديمة



مخطط مصغّر للحي الجنوبي بتيسدروس المدينة القديمة

إعادة تشكيل معبد سايسيس بدقة:

[illegible] الذي [illegible] بما [illegible] فيا جيرد [illegible] الإستخدام الأمثل للتكنولوجيا الحديثة [illegible] حتى [illegible] يعود إلى الحقبة الرومانية

إن معبد سيتيسيس Caelestis (الذي يعود إلى القرن الثاني ميلادي) [illegible] الفريد [illegible] لمعمارية [illegible] على الرسم [illegible] والتي تم [illegible] الأحجار [illegible] [illegible] شكلا [illegible]

[illegible] المهندس [illegible] عن [illegible] الأمر [illegible] العرفي وإعادة [illegible] حواسه حتى [illegible] إلى مادة جذابة [illegible] متصلة بعرض وتقديم التراث

وهو [illegible] [illegible] للمعبد [illegible] بكل [illegible] ومحو لا [illegible] الصورة [illegible] المعلم إلى الصورة [illegible] [illegible] تكوين الصورة الأولى للمعبد [illegible] تذكر [illegible] الذي [illegible] هذا الأثر الفريد



معبد [illegible]

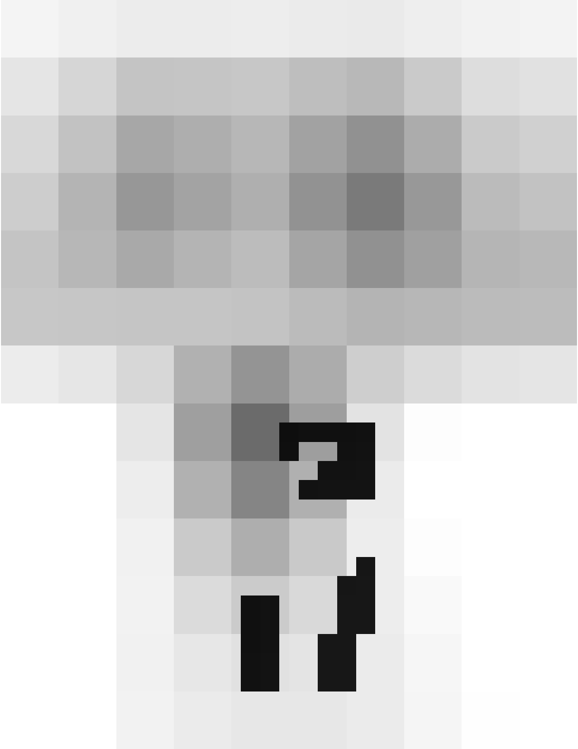


منظر داخلي لتريكلينيوم

إثراء المجموعات الإيكونوغرافية:

أما التجربة الثالثة التي تقدمها فهي تبحث في إثراء المجموعات الإيكونوغرافية المتعلقة بالتراث

ولقد أصبحت الدعوة ملحة إلى إنتاج فني تشكيلي ينمي الحس المرهف كمادة مثلى للتخاطب والتوقف عند هذه المجالات التي تنمي التفاعل مع جمالية أثر التراثي.



إن الحواس الإنسانية المشغوفة بتجويد الاستقبال تسعى في غالب الأحيان إلى تقييم النفعي كما غير النفعي وهناك مصالحة كبيرة بين الإثنين مادام الإثنان يساهمان في جلب السعادة إلى الإنسان.

وهي كذلك دعوة إلى تنمية إدراكنا الجمالي واستجابتنا للعمال الفنية خصوصا وهي مكتسبة من حيث أنها محاولة جادة نحو الإعتراف بالقيمة الحقيقية للأثر.

وهو تعبير بدرجة أولى وتشخيص لمشاهد تراثية برسوم مائية جمعت بين حداثة الموضوع وكثافة مادته العلمية وذلك نحو إثراء جاد لمكتبة الوطنية لإيكونوغرافية التي تقادمت وتعددت مراكنها لنسق المكتشفات اليومية في مجال التراث. هذه المجموعات المرشحة حتى تعكس دفعا جديدا وإثراء مترسخ لأثر المصور ضمن ما يتم فهمه وتأويله انطلاقا مما توحي به هذه الايكون (Icone) الجديدة القادمة والمحدثة والمرشحة لإحداث إشباع جديد و إنعكاسات طريفة و متنوعة توحي إلى

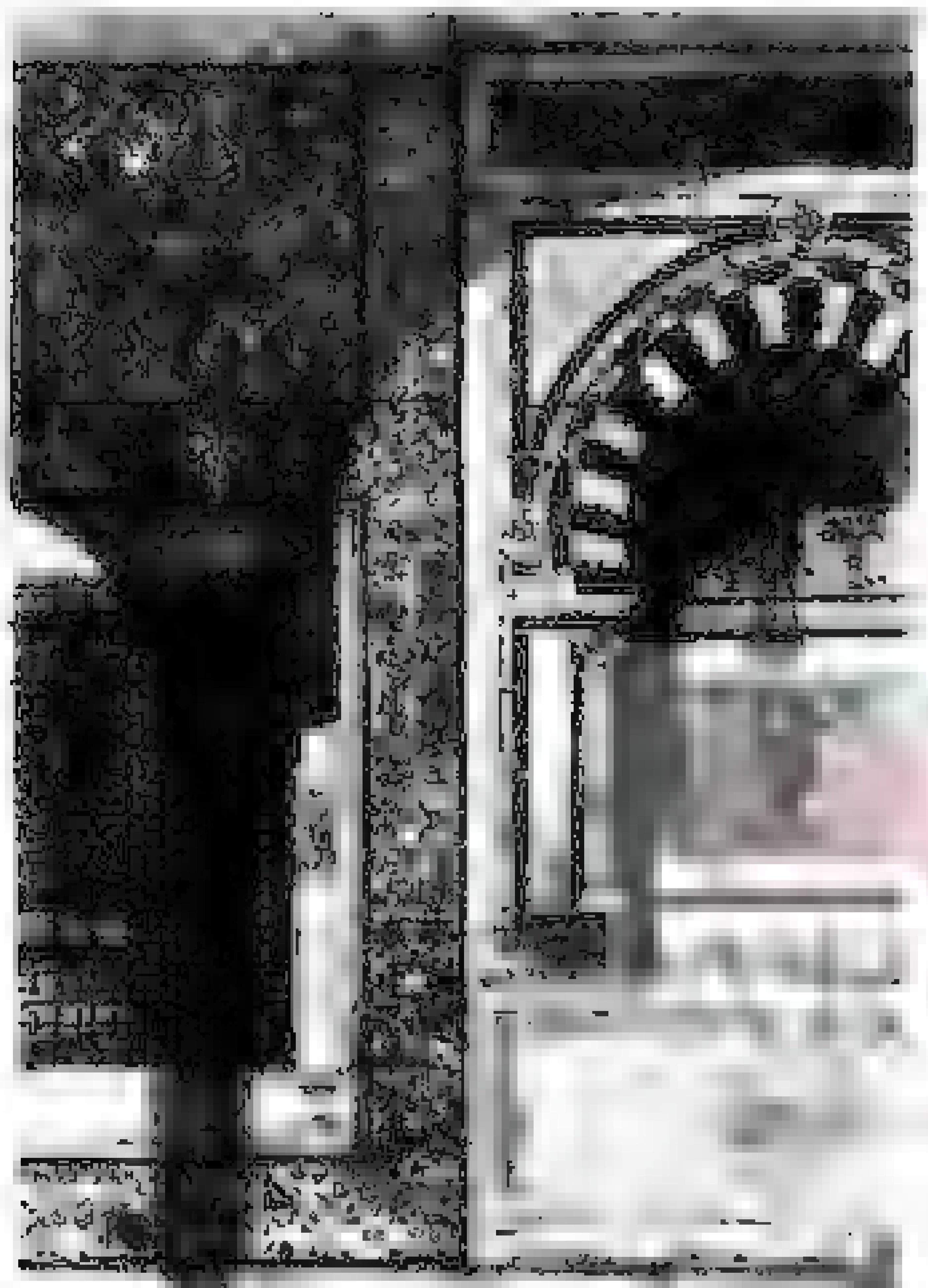


جانب من رواق منزل الفريشا بعد إعادة البناء

معاني جديدة و متعددة وفق السياق التجاذب والتفاعل الحي مع الأثر

إنّ النظر إلى مجال التراث وإلى الإستعمالات الجديدة المتصلة بالتقديم والعرض تكون اليوم حافزا ودافعا لبلورة وإحياء المقومات التي تملكها تونس والتي تجعلها قادرة على أن تكون لها صورة مميزة وحضورا جذابا

إن المخزون التراثي الذي تملكه بلادنا والمتعدد يستدعينا إلى إتقان استغلاله وتوظيفه،وهو كما تبين كل التجارب التي تم عرضها سالفا والتي سمحت بالوقوف على قيمة الإستثمار في مجال إثراء وتنويع الصورة التراثية وإعتماد هذا المسلك حتى يتسنى لنا تنمية الوعي بالموروث المعماري والتشجيع الكامل للمحافظة عليه وإعادة صياغته وتقديمه حتى تتأكد وتتحقق عند المتلقي القيم المعمارية والجمالية



تفصيل لمفردات معمارية - دار حسين تونس



منظر داخلي لتربة الباي (الكوراي)

والمعمارية بما يتفق هندسيا ومعماريا مع الفوائد الإقتصادية والعوائد المالية المرتبطة بمجال التراث

وعليه فإن مايهمنا من إعادة تشكيل نظرتنا لمفهيم المحافظة على التراث وإعادة إستعلاله هو معرفة درجة التفاعل والإنسجام بين مانقترحه من حلول تفصح عنها تصورات وأحيلتنا لتشكيل الصورة الجديدة المؤثرة في ثقافة الزوار وبطرتيهم للعد المستضيف وهو عنصر إيحائي يعبر على مدى تفاعل المتلقي حتى يرسخ عنده انطباع التفاعل مع هذا الإخراج الجديد للمعرفة التراثية وهو محاولة لإثراء العلاقة القائمة بين السائح كمتفرج ومشاهد عبر ما يقترح عليه من مشاهد ممسرحة يلعب فيها المقترح المسبك للمجال التراثي دورا أساسيا لدفع مشاريع التنمية الثقافية والإقتصادية في البلد

وهي كذلك دعوة ملحة إلى احترام التراث وحمايته من خلال تخليص الماضي في الحاضر وإعادة بعثه، عنصرا فعالا ومستمعا وهي كذلك مساهمة لبلورة فضاءات وعموج حسي مشخص ومعاش معبرا عن النظر المجرده الضاربة في المجهول

الصدمة النرجسية او تدمير البنية الإنسانية
من خلال "عجائب الآثار" للجبرتي (1)

الطيب بن رجب *

كلّ ما أمر آت عليه البلى وكلّ ما أمر لا بدّ مأخوذ بالتجديد فلا بدّ من ميت ليحيا حيّ وللحضارات القوميّة بدايات ونهايات فما من أمة ظلت على حال التحضّر أبدا إلاّ أن الحضارة الإنسانيّة بمفهومها الشامل للحياة نهر خالد ما ينفكّ يسيل إلى غاياته ويصبّ في مصبّه من أزل القرون

***

ولقد أمكن لكثير من المؤرّخين ولا سيّما مؤرخو عهود الانحطاط والتدهور أن يقفوا على تلك الحقيقة ولقد وقف عليها ابن خلدون حيث تحدّث عن انحلال العصبيّة التي "تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة" (2). ولئن كان الرجل يتحدّث عن الدول فقد كان في واقع أمره يتحدّث من منطلق حضاري شمل إذ طابق بين الدّور الحضاري من جهة وكل من الدولة العباسيّة وشقيقتها الدّولة الأمويّة السابقة لها أو تلك المعاصرة وكذلك الدولة الفاطميّة المنافسة لها من جهة أخرى بما أنّ سائر هذه الدول تلتقي في المضريّة التي أسست لها حضارة واحدة أو كما يقول ابن خلدون "ملكا" واحدا (3) هو الحضارة العربيّة الإسلاميّة فشكلت دورا واحدا من أدوار الحضارة الإنسانيّة عامة أتاح لها أن تسير على رأس الأمم سائرها وتندفع بالحضارة الإنسانيّة إلى غاياتها.

ولقد أسّس هؤلاء المصريّون حضارة عظيمة أشعت على الدّنيا بأسرها وكان لها من الشمّول ما جعلها تمتدّ على قارات ثلاث. ثم أفلت وغربت شمسها إلى ذلك الحدّ الذي عاد فيه صانعوها إلى بداوتهم الأولى وكأنّ شيئا لم يكن. يقول ابن خلدون عن أولئك العرب: "توحشوا كما كانوا" (4) ويردف قائلا: "بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لأحد من الأمم في الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك" (5) أي إنّ شمول تلك الحضارة بالنّسبة إلى الحضارات السابقة لها كان كالشمّول الذي عليه الحضارة الغربيّة اليوم بالنّسبة لسائر الحضارات السابقة. أمّا فولتير فبعد أن تحدّث في كتابه "المباحث في الأعراف" (moeurs Essais sur les) عن الحضارة العربيّة الإسلاميّة بكل إعجاب لاحظ أن "ليس ثمّة اليوم في بلاد العرب غير عشرة آلاف لص يدرعونه في جيئة وذهاب" (6) مما يعني أنّ الأمم تتداول على الحضارة أو بالأحرى هي الحضارات التي تتداول بالأمم وليس من المسلّم به أنّ أمّة تحضّرت ثمّ تدهورت تعود إلى ما كانت عليه من

---

* أستاذ جامعي, صفاقس

حال التحضّر ذلك أنّ الحضارة تنتقل من أمّة إلى أخرى ليس بقرار واع وإنّما باجتماع ظروف وشروط ليس من البديهي أن تجتمع في أمّة دون أخرى. فليس من المفروغ أن يلعب اليونانيون اليوم نفس الدّور الحضاري العظيم المؤسّس ذاك الذي لعبوه في ما سبق من العصور ثمّ إنّ الحضرة لتهجر الأمّة المتحضّرة بالرغم ممّا تبذل من جهد أيّ بذل لتبقى عليها فجهدها ما يلبث أن يذهب سدى.

إنّ الأمّة المتحضّرة، أي كلّ أمّة متحضّرة لتقع ضحية اعتقاد زائف يتمثّل في الإيمان بأنّ الحضارة باقية فيها أبدا، فتلفيها تسعى سعيها على ذلك الأساس الدهائي في كلّ ما شيء حتّى يؤول تصريفها للأشياء تصريف المتغطرس الصلف، وإنه ليوسعنا الإدراك المبكر للعلامات المنبئة بأفول الحضارة في أمّة من الأمم. ففي القصص الشعبي عندنا ركب فرعون مركبا ارتفعت به النّسور إلى السمّاء بغية محاربة الله. وذلك إنّما هو عنوان المستحيل الصرّف والصلف هو الذي يؤدي بصاحبه إلى طلب المستحيلات. وفي حضارتنا الإسلاميّة التفت هارون الرّشيد إلى السحابة وقد مرّت دون غيث منها فقال لها قولته الشهيرة: "أمطري حيث شئت فإنّ خراجك يأتيني" فقد امتدّت الإمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة من مشارف الهند وأواسط آسيا إلى إفريقيا وأوربا بل وامتدّ تأثيرها أبعد من ذلك وبلغت أوج قوّتها مع المأمون ولكنّها سرعان ما آلت يدبّ فيها الوهن فنزعت على عهد المعتصم إلى ظاهرة العسكرة مثلما كان الأمر كذلك مع الرومان وماهو عليه الأمر مع الأمريكان اليوم، وباتت تعتمد في جيشها العنصر الأجنبي المرتزق مثلما الأمر اليوم مع الأمريكان كذلك واستمرّت على قوّتها الحضاريّة إلى حدود القرن الخامس ثمّ أخذت من ذلك الوقت تؤول إلى انغلاق بات ورغم وضوح الوهن فيها لم يكن بالإمكان إيقاف ذلك النزوع إلى التدهور فالشأن الديني سيؤول إلى التقوقع في مؤسسة دينيّة مغلقة قد غادرت روح التسامح والحرية التي كان يتميّز بها المسلمون في العصور الأولى لظهور الإسلام دينا وحضارة ودولة. والعلوم ستتوقف رويدا رويدا عن كلّ إضافة وسينزع التأليف فيها إلى الجمع والتصنيف اعتقادا منهم بنهائيّة العلم في الأمّة متغافلين عن أنّ العلم لا حدّ له وأن التوقّف والإكتفاء بالموجود ليس إلا تأخّرا ولكن رغما عن كلّ هذا ستظلّ الأمّة الإسلامية تحظى بشيء من القوّة وبعض من المناعة إلى حدود القرن الخامس حين سقطت الأندلس نهائيّا بيد الإسبان وإثر ذلك سيسيطر الأتراك على العالم العربي الإسلامي موفرين له الحماية العسكريّة اللازمة. فإن يهم ذلك إلى مزيد من الإنحطاط فالقوّة العسكرية وحدها لا تمنع التّدهور الحضاري عن أمّة ولقد قال منتسكيو في "الرسائل الفارسيّة" عن الدولة العثمانيّة: "فمن مدينة طقة(Tocat) إلى الأستانة لا يصادف المرء مدينة واحدة تستحقّ أن تدعى بمدينة قد شاهدت مستقربا ضعف امبراطوريّة العثمني. فهذ الجسم المريض لا يتماسك بنظام سمح معتدل وإنّما بأدوية عنيفة ترهقه وما تنفكّ تهدمه" ويضيف معلقا " أي عزيزي روستان هذه فكرة صحيحة عن هذه الإمبراطوريّة التي ستكون قبل قرنين مسرحا لانتصارات بعض الفاتحين" (7)

وفعلا أصبحت تلك الدولة عرضة لغزو الغزين، قبل ذلك فحملة نابليون على مصر بعد نحو من ثمانين سنة مرّت على كتابة الرسائل الفرسيّة كانت إعلانا أول عن غروب شمس تلك الإمبراطوريّة.

***

إنّ الإمبراطوريات لتترامى أطرافها وتكثر مهمّاتها وحين تكثر تلكم المهمّات تبدأ في التراجع فتقصر على مهمّاتها تلك فيزداد الطين بلّة فتذهب قوّتها ولا تبق منها سوى قوّة عسكريّة ما تلبث بدورها أن تضمحلّ ولكنّها

تظلّ تعتقد في نفسها المنعة وتظلّ نرجسيّتها التي قادتها إلى هذا الحال تسيطر عليها زمنا. وعند هذا الحدّ تصبح الدّولة تتصرّف تصرّف فرد من الأفراد عظيم عملاق لأنّ المجتمع المدني فيها انحلّ في الواقع منذ وقت بعيد وليس أدلّ على ذلك اليوم من الدّولة الأمركيّة التي بات يحكمها ناس إن لم يكونوا جهالا فهم حالات مرضيّة بأتمّ معنى الكلمة والتي تتجسّد في صورة فرد واحد يتصرّف تصرّف الكاوبوي

***

وليس ثمّة من قد أبدع في تصوير الحال الذي آلت إليه الشعوب العربيّة من عبد الرحمان الجبرتي في كتاب " تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ذلك الذي وضعنا في الصورة الصحيحة لمعنى الجرح النرجسي لمعنى الصّدمة النرجسيّة التي تهزّ أمّة كانت تعتقد في نفسها المناعة وتنظر إلى الآخرين نظرة احتقار وازدراء فإذا بذلك المحتقر المزدرى ينقلب غازيا لها منتهك لحرمتها، فهذه مصر ذات الحضارة التليدة تصبح عرضة لحملة يقوم بها شعب صغير لم يشهد حضارة قبل هذا التاريخ يقول فولتير: " فعلى أيّ وجه قلّبنا الأمور ينبغي أن نعترف أنّنا لم نوجد إلا منذ الأمس القريب ونحن ذهبنا أبعد من الشعوب الأخرى(...) ولعلّ ذلك كائن بسبب أنّنا جئنا آخرهم"(8) وهذه الحملة إنّما هي حملة نابليون على مصر التي وقعت سنة 1213/1798 تلك الحملة التي قلبت المفاهيم رأسا على عقب وخلطت الممكن بالمحال وقد عبّر الجبرتي عن هذه الحقيقة في فقرة تعتبر من أنفذ ما يقرأ البصير المتبصّر في تاريخ الأمم وأعمقه وأبعدها غورا وأصدقها في تصوير حالة الانكسار التي أصابت أمّة كانت تعتقد نفسها بمنأى عن غزو الغزاة وفتح الفاتحين يقول الجبرتي صارخ صرخة تنبئ عن عمق الجرح النرجسي والصّدمة المدمّرة مصوّرا هول تلك السنة ذات الهول الأعظم من أيّ هول آخر ما يلي

" وهي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشّرور وترادف الأمور و توالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"(9)

وليس أدل على الهول الذي ضرب الرجل وضرب الخاصّة والعامّة من هذه العبارات المترادفة التي هي عبارة عن توقّف للزّمن عن توقف لعقرب الساعة مآل الأمر إلى هول النهاية المحتومة ولكن من اللافت أن الجبرتي يعتبر ما حصل نتيجة من نتائج الظلم الذي بات الحقيقة الوحيدة لذلك العصر فلم يكن الوضع على ما يرام حتى لا يغزو البلاد غاز

ولقد كان الوضع كما قلنا يتميّز - إن كان ذلك تميّزا - بالظلم بمختلف ألوانه وبالعسف بمختلف أنواعه فقد ظلّ الجبرتي من سنة إلى أخرى قبل الحملة يردّد مع كلّ حلول عام جديد أن ليس ثمّة ما يميّزه غير ظلم المماليك المتنوّع وعسفهم المتصل يقول مثلا عن سنة سبع ومائتين وألف

" استهلّ المحرّم بيوم الخميس والأمر في شدّة من الغلاء وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتت أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملؤوا الأسواق والأزقة رجالا ونساء وأطفالا يبكون ويصيحون ليلا ونهارا من الجوع ويموت من الناس في كلّ يوم جملة كثيرة من الجوع"(10)

كما يقول عن سنة تسع ومائتين وألف هجريّة:

"لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجيّة سوى جور الأمراء و تتابع مظالمهم. " (11).

كما يقول عن سنة عشر ومائتين وألف:

"لم يقع بها شيء من الحوادث التي يعتنى بتقييدها سوى مثل ما تقدّم من هول الأمراء والمظالم" (12)

أو كما يقول عن سنتي أحد عشر واثني عشر ومائتين وألف:

"لم يقع فيهما من الحوادث التي تتشوف لها النفوس وتشتاق إليها الخواطر فتقيّد في بطون الطروس سوى ما تقدّمت إليه الإشارة من أسباب نزول النوازل وموجبات ترادف البلاء المتراسل ووقوع الانذارات الفلكيّة والآيات المخوفة السماويّة" (13).

فليس الوضع إلا عسفا وجورا وظلما واضطرابا

اضطراب ووضع سياسي شاذ فحكام البلاد ليسوا من أهل البلاد بل غرباء عنهم ليس لهم من حسّ وطني أو وازع قومي يدعوهم إلى غيرة أو حميّة. أو ليس لهم من "عصبية" على المعنى الخلدوني يدعوهم إلى الارتداع وهذا يعني أن الباب العالي أو الدّولة العثمانيّة تعطي الحكم لهؤلاء المماليك "لزمة" كلزمة الضرائب أو لزمة الجلد أو التبغ فلا هم له في إصلاح أو تنظيم أو سهر على مصالح إلا ما يأتيه من ولاء وما يصاحبه من ضرائب وأريع وهدايا

وهؤلاء المماليك صاروا بدورهم متحاربين متقاتلين فانقسموا إلى "قبليّة" و"بحريّة" وتقاتلوا تقاتل الغرماء يقول عن وقعة وقعت بينهما ما يلي

"وأبلى فيها المصريّون البحريّة والقبليّة مع بعضهم وتنحّت عنهم العثمانيّة ناحية وهجمت القبالي و ألقوا بأنفسهم في نار الحرب وطلب كلّ غريم غريمه ثمّ اندفعت العثمانيّة مع البحريّة.." (14)

الكلّ خصيم الكل والكلّ متحالف مع الكلّ والكلّ متنكّر للكلّ فهذا هو حال الأجناد، قلوب غير مؤلفة وثأر بثأر يقول عن سنة أربع ومائتين وألف.

"وفيه وقعت واقعة بين عسكر القليونجية والأرنؤدية بسوق السلاح وقتل بينهم جماعة من الفريقين ثمّ تحزّبوا أحزابا فكان كلّ من واحد حزبا من الطائفة الأخرى أو انفرد ببعض منها قتلوه. ووقع بينهم ما لا خير فيه وداخل الناس الخوف من ذلك فيكون الإنسان مارّا بالطّريق فلا يشعر إلاّ وكرشة وطائفة مقبلة وبأيديهم البنادق وهم قاصدون طائفة من أخصامهم بلغهم أنّهم في طريق من الطّرق." (15).

لقد بات الأمن معدوما ممّا لن يعطل مصالح الناس اليوميّة فحسب ولكن سيعيق أي نزوع نحو التقدم والبناء الحضاري يقول الجبرتي

"وفي هذه الأيام حصل وقف حال وضيق في المعايش وانقطاع الطرق وعدم أمن ووقوف العربان ومنع السبل وتعطيل أسباب وعسر في الأسفار برّا وبحرا"(16)

بل لقد تعطلت مصالح الدّولة نفسها وباتت الخزينة فارغة فلجأ الحكّام إلى جمع الضرائب بغير وجه حقّ وآلت "الضرورات تبيح المحظورات"(17) كما يقول الكاتب نفسه على لسان الخاصّة من العلماء بل لقد تنوّعت الضرائب إلى حدّ مرير فهذا الشتوي وهذا الصيفي وهذه "الفردة" وهي ضريبة تجعل على أصناف المهن من نجار وصاغة وجوهريّة وغيرهم. وهذه أصناف المكوس وأصناف السلف القهريّة وهذا حق الطرق الذي يعني أنّ جباة الضّرائب أنفسهم لهم حقوق تدفع من قبل المواطنين فيشتطون فيها بدورهم يقول عن سنة ست ومائتين وألف

"وفي شهر ربيع الثاني قرّروا تفريدة على تجار الغوريّة وطيلون وخان الخليلي. وقبضوا على أنفار أنزلوهم إلى التكية ببولاق ليلا في المشاعل ثمّ ردّوهم ووزع كبار التجار ما تقرر عليهم على فقرائهم بقوائم وناكد بعضهم بعضا وهرب كثير منهم فسمروا دورهم وحوانيتهم وكذلك فعلوا بكثيرمن مساتير النّاس

والدوجاقلية وضجّ الخلق من ذلك"(18).

وكلّ ذلك سيصيب مصر سائرها بالشلل التامّ وسيكون أساسا الفلاح المصري - الأصل في مصر - ضحيّة لهذا الوضع، ذاك الفلاح الذي سيجد نفسه بين المطرقة والسندان، بين المماليك والعربان يهدّدون أمنه ويسلبون رزقه ويعمقون جرحه ويزيدون جهله. إنّ الميزة الأساسيّة للمجتمع في مصر في ذلك الوقت هو التفكك التامّ فيكاد يكون كلّ واحد من الثلاثة يشكل مجتمعا على حدّة معاد للمجتمع الآخر. و إذا كان المماليك أجانب فإنّ العربان ليسوا كذلك ولكنّهم كانوا سببا في تدمير المجتمع بأكمله وإشاعة الفوضى وانعدام الأمن فلم يسلم أحد منهم حتى الحجيج يقول:

"وفي يوم الأحد المذكور حضر نجاب الحج وأخبر أنّ العرب وقفت للحجاج في طريق المدينة وحاربوهم سبعة أيام وانجرح أمير الحاج وقتل غالب أغاته وخازنداره ومن الحجاج نحو الثلث ونهبوا غالب حمولهم بسبب عوائدهم القديمة" (19)

أو يقول:

"وفي رابع عشرينه نهب العرب قافلة التجار والحجاج الواصلة من السويس وفيها شيء كثير جداً من أموال التجار والحجّاج وذهب فيها للتجار خاصّة ستّ آلاف جمل ما بين قماش وبهار وبن وأقمشة وبضائع وذلك خلاف أمتعة الحجّاج وسلبوهم حتّى ملابس أبدانهم وأسروا النساء وأخذوا ما عليهن ثمّ باعوهنّ لأصحابهنّ عرايا" (20)

وليس غريبا والوضع هذا أن ترتفع الأسعار يقول:

"وغلا سعر الغلّة من ريالين إلى ستّة وضجّت الفقراء وعبطوا على الحكّام صار الآغا يركب إلى الرقع والسواحل ويضرب المتسببين في الغلّة ويسمّرهم في آذانهم" (21)

وليس غريبا لذلك أن يعمّ التضخّم المالي ويضطرب الصرف بهوى الحكّام معاً مؤذن بإفلاس التجار وغلاء المعيشة يقول:

"وفي عاشره وصل ططري وعلى يده أوامر منها حسن عيار المعاملة من الذهب والفضّة وأن يكون عيار الذهب المصري تسعة عشر قيراطا ويصرف بمائة وعشرين نصفا بنقص أربعة أنصاف عن الواقع في الصرف بين الناس والاسلامبولي بمائة وأربعين وينقص عشرة الفندلي بمائتين بنقص خمسة والريال الفرانسة بمائة بنقص خمسة أيضا والمغربي بخمسة وتسعين بنقص خمسة أيضا وهو المعروف بأبي مدفع والبندقي بمائتين وعشرة بنقص خمسة عشر. فنزل الأغا والولي ونادى بذلك فخسر الناس حصّة من أموالهم" (22)

بل لقد تعدى العسف بالنّاس إلى حدّ لا يصدّق فتوالت المحن والمجاعات حتّى أكل النّاس الأطفال(23) وتعدد النهب والخطف حتى الّبن خطف: "وخطف أتباعهم ما صادفوه من الجمال والبغال والحمير وقرب السقائين التي تنقل الماء من الخليج ونهبوا الخبز من الطواجين والمخابز والكعك والعيش من الباعة" (24).

وقد ديست الحقوق جميعها فالقتل بات أمرا يحصل بهوى الحكام وبات الظلم يصلح بنظام آخر وانعدمت حتى أدنى الحقوق الشخصيّة يقول:

" وعملوا على زوجات أمير الحاج ثلاثين ألف ريال وأسلوا إلى بيت حسن كاشف المعمار فأخذوا ما فيه من الخلال وغيرها لأنه قتل في معركة العرب مع الحجاج وألبسوا زوجته الخاتم قهرا عنها ليزوّجوها لمملوك من مماليك مراد بك وهي بنت علي أغا المعمار ووجدت على زوجها وجدا عظيما وأرسلت جماعة لإحضار رمته من قبره الذي دفن فيه في صندوق على هيئة تابوت"(25)

***

إنّ هذا الوضع سيؤول بمصر إلى أن تكون عرضة لحملة نابليون الذي كان على علم بما يحصل في مصر وعلى معرفة بالوهن الذي أصابها فبات للفرنسيين فيها حقّ فلا يعقل أن تكون حقا للمماليك وحدهم

إنّ وضعا كهذا الوضع سيقود حتما إلى الكارثة أو إلى أشدّ الكوارث وقعا وتتمثّل في احتلال من قبل أمّة أخرى، فالحياة صراع والقوي فيها لا مناص من أن يسيطر على الضعيف والضعف مغر وليس أدلّ على ذلك من قولة منتسكيو سابقة الذكر ومن المرسوم الأول الذي أصدره نابليون عندما احتلّ الاسكندرية وقد جاء فيه أنّ " هذه الزمرة من المماليك... يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض (26) ويقول النص الفرنسي: "la Plus belle partie de la terre"

أي "أروع أقاليم المعمورة" ذاك الذي عرف أعظم الحضارات حين كان الشعب الفرنسي صغيرا نسبيا منسيا يقول المرسوم

" وسابقا كان في الأراضي المصريّة المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر" (28) ويعلق التعليق المناسب: " ما أزال ذلك كلّه إلا الظلم والطمع مع المماليك" (29). ولكنّ الأخطر من ذلك هو ظلاميتهم التي أغرقت مصر في ظلام دامس من الجهل يقول المرسوم مخاطبا أهل مصر: " وقولوا أيضا لهم إنّ جميع الناس متساوون عند الله وإنّ الشيء الذي يفرّقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط". ويعلق مرّة أخرى التعليق الصائب لكبد الحقيقة: " وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب". وفي مرسوم آخر توصف الدولة المملوكيّة بأنّها "الدولة المفعمة جهلا وغباوة" (30). ويعلّق الجبرتي نفسه على هذا النعت."ولم يعجبني إلا قوله المفعمة جهلا وغباوة" (31).

وينطبق عليها فعلا ما قاله منتسكيو عن الدولة العثمانيّة قاطبة " إنّ هؤلاء الهمج قد تخلّوا عن الفنون إلى حدّ أنّهم تخلّوا حتى على الفنّ العسكري فقد بقوا عندما كانت الأمم الأوروبيّة تتهذّب يوميا على جهالتهم السابقة " (32)

فإنّ دولة هذا حالها سيطمع فيها دون شكّ الغزاة وتصبح نهبا منهوبا وحقا مباحا لكل فاتح مغامر يقول المرسوم الأول متحدّث عن هؤلاء المماليك الظلمة: " فماذا يميّزهم عن غيرهم حتّى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصّوا بكلّ شيء أحسن ما فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة" (33). ويتساءل نفس المرسوم هل إنّ "الأرض المصريّة التزام للمماليك؟"

وخلاصة القول لقد باتت مصر حقا مباحا لكلّ غاز، لكلّ من يمتلك القوّة التي تمكّنه من أن يحلّ محلّ أولئك المماليك الذين عقدوا أيّ شرعيّة تخول لهم حكم وطن ليس لهم من همّ غير جمع الضرائب والميري الضريبة التي يدفعونها للباب العالي مقابل السيطرة على مقدرات مصر "أروع أقاليم المعمورة"

***

ولقد بات الوضع متدهورا متداركا إلى أبعد الحدود وصار المجتمع في غفلة من أمره وحكامه أكثر غفلة منه فالإنقسام هو الصفة البارزة فيه لذا سرعان ما انهزم الأمراء وكيف لا ينهزمون وكلهم غرور قد أدّى بهم إلى عدم الاستعداد للحرب ظنا أنهم الأقوياء أبدا بسبب ما ركبهم من نرجسيّة استفحلت بهم أي استفحال يقول صاحبنا "هذا وليس لأحد من أمراء العسكر همّة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم بالقتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى هذه مصر. بل كلّ من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس ثمّ قلعة ولا حصن ولا معقل وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو"(34). وسوء التدبير هذا وإهمال أمر العدو هما بسبب ما قلنا من غرور نرجسي

وحين وردت أخبار الحملة من الإسكندرية كان ردّ فعل الأمراء أي المماليك سلبيا مستخفًا بأمر العدوّ، وأما الأمراء فلم يهتمّوا بشيء من ذلك ولم يكترثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم أنّه إذا جاءت جميع الأفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنّهم سيدوسونهم بخيولهم" (35). ولكن لمّا حصل القتال سرعان ما تبيّن الفرق بين من أعدّ العدّة وبين من ظلّ منتظرا الساعة يقول: "ولبس ثمّ عندهم للقتال استعداد لخلوّ الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدوّ وعليه، طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال" (36)

ولم يكن موقف الجند بأحسن حال من موقف الحكّام فهم أخلاط لا يجمع بينهم شيء بل هم مرتزقة من جميع الملل. "ولمّا كان يوم الجمعة سادس السير وصل الفرنسيون إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت فوصلوا إلى أمّ دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر ولكن الأجناد المتنافرة قلوبهم المنحلّة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعّمهم ورفاهيتهم مختالون في رئيسهم مغترّون بجمعهم محتقرين (هكذا!) شأن عدوّهم مرتبكون في رويّتهم مغمورون في غفلتهم" (37)

ولعلّ من اللافت للنظر أن استعدادهم لم يكن غير مزيد من الظلم للشعب الذي من المفروض أن يهبّ لمعاضدة الجيش في دفع الغزاة يقول "أخذوا في الإستعداد للثغر وقضاء اللوازم والمهمّات في مدّة خمسة أيّام فصاروا يصادرون النّاس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن" (38)

فكيف يكون ردّ فعل شعب مغيّب مظلوم مقموع منتهك الجانب؟ لقد بذل عموم النّاس كلّ ما في وسعهم فجهّزوا المقاتلين وأنفقوا عليهم ولكن حمّ القضاء إذ لم يعد شيء من ذلك بنافع يقول: "إنّ جميع النّاس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم فلم يشحّ في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه ولكن لم يسعفهم الدّهر" (39).

فالفوضى هي التي سادت بين النّاس فليس ثمّة من تناغم بين شعب وأولي أمره ولا بين طبقات الشعب وفئاته فحين اجتمع النّاس للقتال تبيّن ضعفهم ووهنهم وعدم انسجامهم يقول "وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوما فيوما لتعطّل الأسباب واجتماع الناس كلّهم في صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدّى النّاس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكّام واشتغالهم بما دهمهم" (40)

أجل لقد باتت عامّة النّاس حين تأكّدت الهزيمة "لا يسأل أحد عن أحد بل كلّ واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه" (41) وحين فرّ المماليك آلت تلك العامّة في فوضى وخوف وفزع يقول: "وأمّا الرّعايا فهاجوا ذاهبين إلى جهة المدينة ودخلوها أفواجا أفواجا وهم جميعا في غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك وهم يضجّون بالعويل والنّحيب ويبتهلون إلى الله من شرّ هذا اليوم العصيب" (42).

فأين هذا ممّا حصل من الفرنسيين؟ فعندما قامت انتفاضة القاهرة واجهوها بتنظيم وانسجام يقول الجبرتي: "وأما الإفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقيّة والقلعة واقفين وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابل والبومبات ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين" (43).

وهذا أمر في غاية الدلالة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حالة الضياع التي كان عليها المصريون فقد "تجمّع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم" (44) فشتان إذن بين من له رئيس حق ومن ليس له. إذ السلطة ليست دائما سلبيّة ولكن في مجتمعات

دمّرها الاستبداد تصبح صورتها سلبيّة بالضرورة والعامّة قد تحرّرت من تلك السلطة تصبح الحريّة لديها متمثّلة في فعل كلّ شيء. ولذلك نراها قد " خرجت(..) عن الحدّ وامتدّت أيديهم إلى النّهب والخطف والسلب"(45)

وحين أزمع النّاس على الهرب تلقاهم البدو وفعلوا بهم ما لا يفعل العدو بعدوّه. "فلمّا خرجوا من أبواب البلد وتوسّطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسدّ جوعته" (46).

****

إنّ النرجسيّة لمرض يصيب الفرد فينغلق على نفسه ويصل به الأمر إلى مشارف الجنون غير أن الأهمّ هو عشقه لنفسه وغروره بها أو جنونه بها، ولا يختلف الأمر ونحن إزاء الحضارات والشعوب والأمم فكم قد رأينا لقد اغترّ الجند برؤسائهم واغترّ الرؤساء بأنفسهم وآمنوا جميعا بقوّتهم في حين أنّهم قد داهمهم الوهن والضعف من زمن بعيد. ولعل أصدق دليل على ذلك زيادة على ما قدّمنا أمر الأبواب التي باتت تشكّل رمزا لذلك الإنغلاق ولتلك المناعة المزعومة حتّى جاء غاز فاجر فاتك فهتك عليهم سترهم وكسر أبوابهم وعرّى المستور والعورات فلقد آلت المدينة منغلقة على نفسها يحوطها سور مجعول لحمايتها. ولكن الحماية باتت سجنا لها وداخل المدينة كانت الأحياء لها أبواب تفتح على الدّروب و " الخطط" وهذه لها بدورها أبواب إنّها أبواب مدينة أسطوريّة تلقى فيها الباب ينفتح لك وينغلق إثر باب آخر عنوانا على انغلاق حضاري وانكفاء على النفس انكفاء المريض النفسي فباتت تلك المدن عرضة لتلك الحالة من الضياع التي رأينا العامّة عليها ولتلك الحالة من التدارك الروحي" ثمّ للأمراض والأوبئة فقد فتك الطاعون بالمجتمع أي فتك بسبب تكدّس الناس على بعضهم البعض في سكن متلاصق، وحين آل الأمر بأيدي الفرنسيين هتكوا المغلق وأذاعوا المستور فكسروا الأبواب وفتحوا أبوابا جديدة في أسوار المدينة. فأيّ شيء أكثر رمزا من هتك الحرمة هذا؟ يقول الجبرتي:

"وفيه شرعوا في تكسير أبواب الدروب والبوّابات النافذة وخرج عدّة من عساكرهم يخلعون ويقلعون أبواب الدّروب والعطف والحارات. فاستمرّوا على ذلك عدّة أيّام " (47).

ولقد كان ردّ فعل النّاس على ذلك ذا معنى مخصوص إذ هو ردّ فعل المريض وقد كان مرضه غير ظاهر فظهر بعمل خارجي يقول:" وداخل النّاس من ذلك وهم وخوف شديد وظنّوا ظنونا وحصل عندهم فساد مخيلة ووسوسة تجسّمت في نفوسهم بألفاظ نطقوا بها وتصوّروا حقيقتها وتناقلوها فيما بينهم كقولهم إنّ عساكر الفرنسيس عازمون على قتل المسلمين وهم في صلاة الجمعة ومنهم من يقول غير ذلك وذلك بعد أن حصل عندهم بعض اطمئنان وفتحوا بعض الدكاكين فلمّا حصلت هاتان النكتتان انكمش النّاس ثانيا وارتجفت قلوبهم" (48)

فليس هذه الحالة غير حالة انهيار جاءت بعد حالة من الاضطراب والهياج وهما الحالتان اللتان يمرّ بهما كلّ مريض نفسي فردا أو جماعة

ويقول كذلك في خلع الأبواب تعبيرا عن كثرتها وكانوا يظنّون أنها تحميهم فلم تحمهم: " وفيه شرعوا في خلع البوابات والدروب غير النافذة أيضا ونقلوا الجميع إلى بركة الأزبكيّة عند رصيف الخشاب والبوّابة الكبيرة يقطعونها نصفين ويرفعونها بالعتالين إلى هناك فاجتمع من ذلك شيء كثير جداً" (49)

فكأن لم يكن لأهل المدينة غير إقامة الأبواب وغلقها وكلّ مطمئنّ إلى أبوابه وفجأة تقلع وتخلع وتكسر وتباع

كان ثمّة مجتمع يبدو راضيا مرضيا ومطمئنا إلى أنّ الأمور تستمرّ على هذا الوجه أبدا دون حساب لأمة أخرى تقوى شوكتها فتغزوهم وبكسرها سيضطرب المريض أيّما اضطراب لذلك سنراه يحاول الإبقاء عليها بكلّ ثمن فالمريض يرفض أن يغادر مرضه ويخرج من قوقعته إلى النّور يروي الجبرتي: "وفيه أيضا قلعوا أبواب الدّروب والحارات الصغيرة الغير النافذة وهي التي كانت تركت وسومح أصحابها وبرطلوا عليها وصالحوا عليها قبل الحادثة وبرطلوا القلقات والوسايط على إبقائها وكذلك دروب الحسينيّة فلمّا انقضت هذه الحادثة ارتجعوا عليها وقلعوها ونقلوها إلى ما جمعوه من البوّابات بالأزبكيّة ثمّ كسروا جميعها وفصلوا أخشابها ورفعوا بعضها على العربات إلى حيث أعمالهم بالنّواحي والجهات وباعوا بعضها حطب للوقود وكذلك ما بها من الحديد وغيره" (50)

***

وهذا الوضع المترديّ سياسيّا واجتماعيّا وروحيّا وقد آل إلى ما آل من احتلال سيسفر عن تخلّف تقني وعلمي كبير إلى حدّ بعيد. لقد أكل الاستبداد كلّ شيء وأتى على كلّ شعاع نور. ولعل عنوان كتاب الجبرتي "تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار" خير دليل على التخلّف العلميّ والتقني الذي آل إليه المجتمع كلّه وبهر كاتبنا بصفة خاصّة فكلّ ما أمر شاهده عندهم نعته بالعجيب ويروي على لسان الفرنسيين أولا "أن في يوم الجمعة حادي عشرينه قصدنا أن نطير مركبا بحركة الأزبكيّة في الهواء بحيلة فرنساويّة فكثر لغط النّاس في هذا كعادتهم. فلمّا كان ذلك اليوم قبل العصر تجمّع النّاس والكثير من الإفرنج ليروا تلك العجيبة" (51).

وحين خابت المحاولة في تطيير ذلك المنطاد في ذلك اليوم عبّر الجبرتي عن إحساس بالرّاحة فلا يمكن أن يصير شيء بحكمة مصنوعة فلا بدّ للطيران من حكمة إلهيّة أي من إرادة إلهية. "فلمّا حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ولم يتبيّن صحّة ما قالوه من أنّها على هيأة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من النّاس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات بل ظهر أنّها مثل الطيّارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح" (52).

فشتّان إذن بين ما أخضع قوانين الطبيعة أو الحكمة الإلهيّة واستعملها لصالحه ومن جعلها أمرا بعيد المنال لذا كان كل ما أمر عنده عجيب أو منعوت بالعجيب "وجعلوا طاحونة تدور في الهواء عجيبة" (53).

ولقد بات التخلف التقني بيّنا ممّا جعل الجبرتي يقف معجبا بالنقالة المدعوّة في المغرب العربي عامّة باللفظة الفرنسيّة المعرّبة بالبرويطة La Brouette: "كانوا يجعلون بدل الغلقان والقطاع عربات صغيرة و يداها ممتدتان من خلف يملؤها الفاعل ترابا أو طينا أو أحجارا من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار خمسة غلقات ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجري على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقّة" (54)

فهذا ما آل إليه بلد عرف الأهرامات وعرف العتلة والعجلة والرافعة وشقته أسلاب الأندلس "على الظهر والعجل" كما يقول صاحب "نفح الطيب" ويعبر فيما بعد عن إعجابه بآلاتهم وبنجاعتهم فيما يأتون من أشغال، في حين أن المصريين باتوا "لا يعرفون صناعة جرّ الأثقال" (55) ذلك أن الباشا أمر بإحضار أحد الأحواض فعجز الحمّالون على نقله، هذا حال بناة الأهرام وبناة الحضارة الفرعونيّة والحضارة العربيّة الإسلاميّة.

أمّا بخصوص العلوم وتخلفها فحدّث ولا حرج إذ لم يعد ثمّة اشتغال بها بالمرّة وقد عبّر الجبرتي

رغما عن أنفه عن إعجابه بآلاتهم وبمعهد مصر (Institut d'Egypte) دون أن يذكر إسمه في أول الأمر تمّ ذكره لاحقا على أنّه مدرسة العلم ببرّ مصر وقد عبّر عن إعجابه بمكتبته ونظامها وقد ذهب إليها فأطلعوه عليها " في[ها] جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزّان ومباشرون ويحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم فتجتمع الطلبة منهم كلّ يوم قبل الظهر ساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخزن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفّحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العسكر " (56)

وتحدث عن ممارستهم للعلوم وللبحث العلمي بكلّ استغراب " فعند توت الفلكي وتلامذته في مكانهم المختصّ بهم الآلات الفلكيّة الغريبة المتقنة الصنعة والات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن "(57)

ومذا كذلك بلد المومياء يصبح حفظ الاجسام في عينه أمرا غريبا عنه يقول صاحبنا : " ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذي لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته في ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيأته لا يتغيّر ولا يبلى ولو بقي زمنا طويلا"(58).

كما نلفيه يتحدّث بإعجاب عن التجارب الكيمياويّة وهو ينتسب إلى شعوب هي أساتذة أوروبا في هذا الباب كما أكّد ذلك فولتير في " مبحث الأعراق" يقول فولتير : "ولكن منذ القرن الثاني للهجرة أصبح العرب أساتذة أوربا في العلوم والفنون"(59).

ويضيف في مكان آخر من المفصل نفسه : " كان لا بدّ لمسيحيّي الغرب من أن يتعلموا على المسلمين منذ القرن الثاني المحمدي"(60).

ونلفي كذلك الجبرتي يتحدّث عن " آلات تقاطير عجيبة " (61) ويقول عن بعض التجارب الكيميويّة الاستعراضيّة التي قام بها الفرنسيون لإبهار جمع من خاصة المصريين: "ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أنّ بعض المتقيّدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصبّ منها شيئا في كأس ثم صبّ عليها شيئا من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجرا أصفر فقلبه على البرجات حجرا يابسا فأخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا وأخذ مرة شيئا قليلا جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربانة انزعجنا منه فضحكوا منا "(62)

وسيعترف رغما عنه كما قلت بهذه "الأمور الكثيرة والبراهين الحكمية [التي] تتولّد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع. ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا"(63).

أي أنّه ليس ثمّة من صدمة عميقة فالنرجسيّ يحرج ولكنّه لن يعترف أبدا بما آل إليه أو إنّه إذا ما اعترف فهو سرعان ما يتخلى عن اعترافه ذاك ليعود إلى حاله الأول مطمئناً إلى غروره مكتفيا بعشق نفسه.

***

وحين تراجعت الحملة البونبرتيّة بفعل عوامل عديدة لا صلة لها بالقوّة الذاتيّة أو بتنظيم وبشحذ عزيمة وهمّة والتي هي تحالف الانجليز مع الباب العالي وعوامل فرنسيّة بحتة ومفعول الطاعون بالفرنسيين سواء في مصر أو فلسطين - حينها حلّ العثمانيون وذلك ما سيجعلنا ندرك أصل الداء متمثلا أساسا في وضعيّة "الرجل المريض" التي كانت عليها الدولة العثمانيّة بأكملها ولم يكن العثمانيون أفضل وقعا من

المماليك على " الإقليم الحسن الأحسن في الأرض" بل كانوا أنكى بهم نكاية

لقد كانوا أشدّ غرورا من المماليك ممّا جعلهم يستحقّون بعدوّهم . فلقد كانوا ينقضون اتفاقاتهم مع الفرنسيين فيعود عليهم هؤلاء بقتال منظم موقعين بهم الخسائر الكبيرة ويكفي أن نقرأ ما يلي من جملة ما ذكر الجبرتي لندرك مدى الإهمال الناتج عن الغرور يقول :" وأخلى الفرنساوية قلعة الجبل وباقي القلاع التي أحدثوها ونزلوا منها فلم يطلع إليها أحد من العثمانيين ولم يلتفتوا لتحصينها ولا ربطها بالعساكر والجبخانة وأعرضوا عن المحاذرة وركبهم الغرور لأجل سعاد المغرور"(64) إذ لم يكن لهم من غاية تطلب عبر التسلّط على مقدرات " أروع إقليم في المعمورة" (La plus Belle Partie de la terre) وابتزازها بمختلف الضرائب بغير وجه حق . ولذلك حين اتفقوا مع الفرنسيين على خروجهم وعلى مال يدفعونه لهم ومراكب يوفرونها اشتطوا في جمع المال المطلوب من عامة الشعب وأرباب الصنائع ونذكر على سبيل المثال ما يلي ممّا رواه الجبرتي: " وأخذ السيد أحمد المحروقي في تحصيل القدر[من المال المطلوب]من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف وشرعوا في تحكير الأقوات فغلت أسعارها وضاقت مؤن الناس ودهي الناس من أول أحكامهم بهاتين الداهيتين. وكان أول قادم منهم أمير المكوسات ومحكر الأقوات وأوّل مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم"(65)

فلم تكن لهم من غاية حسب عبارة الرجل نفسه غير تقرير " الفرض وظلم الفقراء"(66). وما ينتج عن ذلك من ظلم مما جعل عموم الناس يتمنون عودة الفرنسيين لتخليصهم من هذا الجبروت يقول الجبرتي : " وتمنّى أكثر الناس وخصوصا الفلاحين أحكام الفرنساوية" (67) فأيّ شيء أنكى من هذا؟ أي شيء أشد ظلما من هذا الظلم يجعل الشعب الذي ثار مرتين على الفرنسيين يتمنى عودتهم؟

ولعلّ أفصح ما أورده الجبرتي تعبيرا عن هذا الواقع المرير قول أحدهم وهو الشعبي يقول هذا الأخير: " صادفنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء"(68)

فلا هم هؤلاء ولا هم أولئك وإنّما فجرة ظلمة أباحوا الحرمة الإنسانيّة فقتلوا الناس بذنب وبدون ذنب وبالذنب اليسير فقد " قبضوا على امرأة سرقت أمتعة من حمّام وشنقوها "(69). وهذا "قتل بأمر الوزير وترك مرميا ثلاث ليال" (70)

ولعلّ أروع تسمية قولة جاءت على لسان الجبرتي بعد وصفه لسنة الحملة هي هذه الفقرة التي توجز المأساة بكلّ أبعادها والتي تحدّث فيها عن :" أفعال أوباش العسكر الذين يدّعون الإسلام ويزعمون أنّهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانيّة لمجرّد شهواتهم الحيوانيّة"(71)

وجملة القول لقد كان العثمنى بعبارة قالها الطبري في تاريخه عن ملك طسم ." ظلوما غشوما لا ينهاه شيء عن هواه"(72)

وعدا الغرور والظلم كانت الصفة البارزة الأخرى هي الفوضى التي سادت في المجتمع والتي تسبّب فيها الحكّام وعسكرهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر نورد هذه الحادثة التي هي ليست عنوانا للظلم وحسب بل للفوضى فقد "مات تسعة أشخاص في شربة عرقسوس "(73). وذلك أن عسكريّا شرب عرقسوسا ورفض دفع الثمن فشكاه العرقسوسي إلى "القلق الانكشاري " فانتهره وأمره بالدفع غير أن العسكري استلّ طبجته وقتله ثم لجأ إلى بيته وتحصّن بها وضرب كلّ من حاصره فقتل خمسة أشخاص ومرّ أرنؤدان فقتلهما

الإنكشارية لا لشيء إلا لأنهما من جنس ذلك العسكري ثم أحرقوا عليه الدار ولما خرج فرارا من النار قتلوه وهكذا مات تسعة في شربة عرقسوس.

وقد بثّ العسكر الفوضى في كلّ مكان. يقول: "ووقع من طرائف العسكر عربدة بالأسواق وتخطفوا أمتعة الناس ومن باعة المآكل .. فانزعجت الناس ورفعوا متاعهم من الحوانيت وأخلوا منه وأغلقوها" (74).

ولعلّ الفوضى باتت شائعة في كلّ شيء فحين كان الوزير يبني بيتا سخّر جميع الطوائف للعمل فكانت تلك الطوائف حين تأتي لأداء تلك السخرة تأتي ومعها الطبول والمزامير فاختلطت أصناف منها في سائر، وهي صورة للواقع المصري عامة ولحال الجند المرتزق غير المؤلفة قلوبهم "ويحضرون إلى العمل ويقدمهم الطبول والزمور .. فيصير بذلك ضجة عظيمة مختلطة من نوبات تركية وطبول شامية ونقاقير كشرومية ودبادب عربية وآلات موسيقية وطبلات بلدية وربابات برامكية" (75)

وتلك الفوضى ستؤدي إلى الاضطراب السياسي فقد استمرّ العثمانيون على مطاردة المماليك وظلوا هم أيضا في اعتداء على بعضهم البعض وفي تقاتل وانفلات فهذا وال كانت مدّة حكمه يوما وليلة (76)، ثمّ قتل ليتولى مكانه آخر سيقتل بدوره بعد أسبوع. وكل هذا الوضع سيؤدي إلى تدمير البنية الإنسانية وإذلال الذات البشرية والإنحدار بها إلى الصغار الذي ليس بعده صغار. وقد نعت الجبرتي ذلك الحال بالرذالة وهي مصيبة المصيبات التي تجعل الفرد مهدّما ذليلا عاجزا على النهوض، تحكمه روح العبودية والإستكانة فحين تفتقد القوانين يباح كلّ شيء ويحكم الحكام بأهوائهم وحين تطلق الأهواء يؤول الأمر إلى أسوإ المراتب، أي إلى تلك المراتب التي إذا وصل إليها البشر انتحر فالإنسان فيه القوة إلى حدّ العظمة ولكن فيه الضعف إلى حد الحقارة فهذا الوزير كان يجلس متابعا بناء بيته فإذا طائفة من الجند جاءت للمساعدة وإذا طائفة تتنافس على تلك المساعدة وإذ، مساعده يصور له أن الناس تأتي من تلقاء نفسها، فيأخذ في تسيير ذلك التطوع المزعوم فيكلّف الطائفة العرقية أو المهنية بالسخرة وأكثر من ذلك بأن تدفع مالا بقشيشا للطالبين والزمارين فيأخذ منهم المال الكثير ومن لم يدفع كلفه مشقة أكثر من غيره. ويلخص الجبرتي تلك الرذالة في ثالثة الفقرات الرائعات بصفة خاصة فيقول: "فاجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذالة وهي السخرة والمعونة أجرة الفعلة والذل ومهنة العمل وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء من النصارى وتعطيل معاشهم وعاشرها أجرة الحمام" (77)

***

ولكن ماذا استفادوا من حملة نابليون؟ لا شيء تقريبا، سياسيا ازداد الطين بلة فعمّ الاضطراب والفوضى والظلم كما بينا واجتماعيا دمّر كلّ شيء حتى أنّه من الصعب أن نتحدث عن مجتمع مدني فلا شيء مضمون من الحقوق الشخصية إلى الحقوق المدنية فالملكية نفسها ليست مضمونة وعلى سبيل المثال كانوا يرفعون " الرزق الأحباسية" ويكتبونها لمن يدفع حلوانه ثلاث سنوات أو أكثر وكتبوا له سندا جديدا يكون هو المعوّل عليه" (78)

ولا شيء يشجع على العمل وعلى التطوير وعلى الكسب والتنمية من أيّ نوع ما دام كلّ كسب أو رزق يصادر في أيّ لحظة بأيّة تعلة من التعلات. وذلك ما كان قد لاحظه منتسكيو في تلك الرسالة التاسعة عشرة. يقول فيها بخصوص الملكية ما يلي: " ويدخل الباشوات الذين لا يحصلون على وظائفهم إلا بدفع مال إلى المقاطعات مفلسين فيعبثون فيها فسادا كأنّها موضوع فتوحات إنّ الجند المتغطرس لا يخضع إلا لنزواته فالأرجاء مهدّمة والمدن خالية والأرياف مقفرة وزراعة الأرض والتجارة باتت مهجورة تمام الهجر

أمّا ملكيّة الأرض فغير مؤكدة وبالتالي فإنّ الحماسة لإحيائها باتت خافتة فليس ثمّة من أرض ولا من ملكيّة هما بمنأى عن نزوات أولئك الذين يحكمون"(79)

ثم هم لم يستفيدوا من علم ولا من تقنية، فالنقالة التي أعجب بها الجبرتي لم يتبنها الناس في مصر إذ إنّهم استمرّوا على نقل التراب بالغلقان يقول :" بادروا إلى المشي ونقل التراب بالغلقان"(80) وما تأثّروا به هو فحسب العناية بمظهر القوّة العسكرية وقد فعل ذلك الجيش العثماني والمماليك على حدّ السواء يقول :"وجمع الباشا أيضا العبيد السود وأخذهم من أسيادهم بالقهر وجعلهم طائفة مستقلة وألبسهم شبه ما تقدم وأركبهم خيلا وجعلهم فرقتين صغارا وكبارا واختارهم للركوب إذا خرج إلى الخلاء وعليهم كبير يعلمهم هيئة اصطفاف الفرنسيين وكيفية أوضاعهم والإشارات بمرش وأردبوش"(81). ويعني بالكلمتين الفرنسيين "مرش" ثم " مارد بوج" Merue Bouget وهي كلمة ليست جيدة من حيث اللياقة.

***

وخلاصة القول : إنّ ردّ الفعل لم يكن صحيا بالمرّة ولذلك لا أسمي هذه الصدمة الحاصلة صدمة حداثة بل هي صدمة نرجسيّة، إذ هي لم توقف التدهور الحاصل وحتى خروج الفرنسيين من مصر لم يكن ناتجا عن مقاومة حقيقيّة ونتيجة نهوض روحي عظيم وما حصل من تأثر لم يكن إلا بالمظهر ولذلك لم يتبع ذلك كلّه تنمية ونزوع إلى التقدّم ولذلك ما فتئت تجربة محمد علي أن آلت إلى انحسار وما لبثت الجزائر أن احتلّت (1830) ذلك الاحتلال الذي بدأ الحديث عنه في مصر في أوائل القرن التاسع عشر، ومع ذلك لم يتّخذ الباب العالي أي استعداد أو إجراء لمنع ذلكم الاحتلال ثمّ إنّ همّ الحكام لم يكن أكثر من إجراء إصلاحات عسكرية وبناء القصور التي تشبه فرساي مثلما الأمر مع أحمد بي في الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر. وذلك ما سيؤول بسائر تلك البلدان إلى الاحتلال العسكري لتشهد فترة الاستعمار الفرنسي والإنجليزي والإيطالي لها ولن تشهد فعلا نهوضا إلا حيث أخذت الشعوب تعي نفسها وتدرك موقعها وتتخلّص من أولئك الذين كسّروا فيها الروح لتنشأ فيها روح جديدة تحركها من أجل تحقيق استقلالها وتأكيد حريتها. غير أنّنا مازلنا نعاني من آثار الحكم العثماني أيّما معاناة فكثير من مظاهر التخلّف هي نتيجة من نتائج تلك المرحلة البغيضة

الإحالات:

1. عبد الرحمن الجبرتي تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ
2. عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني بيروت، 1979، ص 249
3. يقول ابن خلدون في مقدمته (ص 268) " بل قد يجهل الكثير منهم أنّهم قد كان لهم ملك في القديم" والملك هو لسائر المصريين أي الأمويين والعباسيين والفاطميين مما يعني أنّ المقصود هو تلك الحضارة المصرية التي هي كما تدعى اليوم الحضارة العربية الإسلاميّة
4. المرجع السابق ، ص 268
5. المرجع السابق، ص 268
6. Voltaire, Essai sur les moeurs, t 1 classiques Garnier, Bordas, Paris, 1990,p,260
7. Montesquieu, Les Lettres persanes. Lettre XIX, Garnier Flammarion, Paris,1964,p 50
8. Voltaire,Ibid.p,268
9. الجبرتي ص 7
10. الجبرتي ص 143

11. الجبرتي ص 166
12. الجبرتي ص 73
13. الجبرتي ص 86
14. الجبرتي ، ص 5
15. الجبرتي ص 87
16. الجبرتي ص 50
17. الجبرتي ص 87
18. الجبرتي ص [illegible]
19. الجبرتي ، ص [illegible]
20. الجبرتي ، ص [illegible]
21. الجبرتي ص 34
22. الجبرتي ص 8
23. الجبرتي ص ص 143-144
24. الجبرتي ص 159
25. الجبرتي ص 60
26. الجبرتي ، ص 183
27. Cf. par exemple [illegible] Librairie Plon, Paris, p.26
28. الجبرتي ص 83
29. الجبرتي ص [illegible]
30. الجبرتي ص [illegible]
31. الجبرتي ، ص 204
32. Montesquieu, les Lettres persanes, ibid, p.50
33. الجبرتي ، ص 183
34. الجبرتي ص 88
35. الجبرتي ص 180
36. الجبرتي ، ص 180
37. الجبرتي ، ص 188
38. الجبرتي ، ص 181
39. الجبرتي ص [illegible]
40. ابن خلدون
41. الجبرتي ص [illegible]
42. الجبرتي ، ص 90
43. الجبرتي ، ص 219
44. الجبرتي ، ص 218
45. الجبرتي ، ص 219
46. الجبرتي ص [illegible]
47. الجبرتي ، ص 98
48. الجبرتي ص 198
49. الجبرتي ص 206
50. الجبرتي ، ص 226
51. الجبرتي ، ص 230
52. الجبرتي ص 230
53. الجبرتي ص 231
54. الجبرتي ص 232
55. الجبرتي، ص 15

56. الجبرتي، ص
57. الجبرتي، ص 233
58. الجبرتي، ص 234
59. Voltaire Ibid p 26[illegible]
60. Voltaire Ibid p 268
61. الجبرتي، ص 235
62. الجبرتي، ص 235
63. الجبرتي، ص 236
64. الجبرتي، ص 319
65. الجبرتي، ص ص 2[illegible]7،18
66. الجبرتي، ص 322
67. الجبرتي، ص 499
68. الجبرتي، ص 318
69. الجبرتي، ص [illegible]
70. الجبرتي، ص [illegible]
71. الجبرتي، ص [illegible]
72. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، الجزء الأول، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1979 ص 629
73. الجبرتي، ص 479
74. الجبرتي، ص 495
75. الجبرتي، ص 536
76. الجبرتي، ص 579
77. الجبرتي، ص 537
78. الجبرتي، ص 518
79. Montesquieu Lettres persanes.p 50
80. الجبرتي، ص 535
81. الجبرتي، ص 529

الرواية والتاريخ والتساؤلات المتداخلة

عبد الرحمان مجيد الربيعي

(قدمت هذه الشهادة في ندوة الرواية والتاريخ التي نظمها المجلس الأعلى للثقافة في ملتقى القاهرة الثالث للابداع الروائي العربي، فيفري 2005)

- 1 -

يضعني عنوان هذه الندوة (الرواية والتاريخ) أمام مجموعة من التساؤلات المتداخلة حيث يقود كل تساؤل إلى آخر فآخر فثالث

ولأبدأ بأحدها مثلا: أي تاريخ هذا الذي قرنته الندوة بالرواية؟ هل هو التاريخ البعيد؟ أم هو القريب الذي عاشه الروائي او عاش أصداءه وآثاره؟

ربما أواجه نفسي كمنتج للرواية بسؤال. هل هناك رواية غير تاريخية؟ فالأمس القريب أصبح تاريخا اليوم فعندما نتناول المرحلة الملكية في العراق على سبيل المثال في عمل روائي هل يمكن أن نسمي هذا العمل؟ وهل هناك خطأ في تسميته رواية تاريخية؟ أم أنه هكذا فعلا؟

وأعتقد أنه تاريخي وأن بالامكان تصنيفه ووصفه بهذا

ثم هناك سؤال اخر أخذه من فحوى سؤالي السابق هو: هل هناك رواية غير تاريخية؟

والسبب الذي جعلني أثير هذا السؤال هو أننا لا نستطيع أن نكتب عملا روائيا عن (الماثل) و(القائم) من البشر والأحداث وبالشكل الموضوعي ولأقل أيضا والحيادي، ولكننا نستطيع ذلك مع الأحداث التي حسمت

وهكذا بامكاني أن اكتب عن الفترة الملكية، أو سنوات الجمهورية وصولا إلى اخر نظام حكم في العراق قبل احتلاله من قبل الغزاة الأمريكان

وكل ما سأكتبه أو يكتبه زملائي من الروائيين -وأنا هنا أتحدث عن الحالة العراقية- سيكون روايات تاريخية بشكل أو آخر

كل أمس هو اليوم تاريخ، ووفق لهذا فان اليوم سيكون تاريخا غدا، وبالتالي لا بد من التاريخ في الرواية، على الرغم من أن الروائي ليس مؤرخا، وهناك روائيون كثيرون يرون التاريخ المدون ملبك بالتلفيق وأنه تاريخ الحاكمين لا المحكومين

وربما كنت في عداد هؤلاء الذين لا يتوقفون عند التاريخ ولا يستلهمون شخصياته ولا أتحدث إلا عن الذين رأيتهم وعرفتهم وليس بالضرورة أن يكون حكمي خاضعا للسائد منحرفا معه

ذات مرة دونت في أحد نصوصي -ربما كان هذا قبل عشرين عاما- ما قاله أحدهم لإمرأة يحبها. (أنت مثلي تعيشين اللحظة هذه تسرقينها كاملة وأنت مثلي تكرهين التاريخ. ما حدث فيه وما مرّ لا بل أنك ترين حتّى في زيارة المتاحف تحنيطا للذاكرة)

- 2 -

كتبت عن الفترة الملكية التي عشت سنواتها الأخيرة عملين روائيين هما (القمر والأسوار) و(عيون في الحلم) وهما الآن في عداد الأعمال الروائية التي لم يغب عنها التاريخ العراقي لا كتفاصيل سياسية بل كتفاصيل لليومي في حياة الناس طمعا أو طموحا مني لأجعلها وثائق وجدانية وبصمات ضميرية عن الذي كان يجري بعيني مبدع نص مليء بالقلق والشك والريبة ولكن الحي النابض فيه بشدانه للصدق لا يحبطه إلا الخوف في بعض الحالات

لأنه أصبح جزءا من حياة المواطن العربي ان لم يكن المهيمن نظرا لركام من الممنوعات والمحرمات.

وعندما عنّ لي أن أكتب سيرتي الذاتية، التي صدرت عن دار الآداب ببيروت أواخر عام 2004 وجدتني مستغرقا لا في كتابة هذه السيرة بل في سيرة مدينة كاملة بل وسيرة بلد لذا أخذتني هذه التفاصيل لدرجة، اضطرتني أن أتوقف عند سن السابعة عشرة حيث غادرت مدينتي «الناصرية» جنوب العراق لألتحق بمعهد الفنون الجميلة فيها ولأن صفحات الكتاب أصبحت (480) صفحة عند صدوره مطبوعا.

وبعد أن قرأ السيرة مخطوطة د. سهيل ادريس صاحب الدار جاءني تعليقه عليها عبر الفكس المنسجم تماما مع ما أردته منها حيث قال: (أعتبرها ـ أي السيرة وثيقة اجتماعية تحمل فائدة هامة بشهادتها على فترة من حياة الشعب العراقي) هذه الاشارة بفترة ماضية ـ كما يستدل ـ فيها ما يحيل على تاريخية هذه السيرة.

- 3 -

أعترف لكم أيضا أنني نادرا ما أقرأ كتابا تاريخيا وأتساءل: لماذا أقرأه وأنا ابن الحاضر المتبصر فيه؟ وان قرأت كتابا فهذا متأتّ من حاجتي لاضاءة مشهد معين علما بأن لدي مراجع أساسية عن التاريخ العراقي وأعتبر انها ضرورية لكل روائي فقد يحتاج إليها ولكن لا ليأخذ ما ورد فيها كمسلّمة نهائية، وانما ليقارنها بروايات أخرى، وقد يقتبس منها شيئا محددا احتاجه سياق النص الروائي الذي يكتبه.

- 4 -

عندما نلقي نظرة على الرواية العربية نجد فيها روايات تاريخية شاعت وانتشرت كروايات جرجي زيدان وقد طبعت ومازالت تطبع في كل البلدان العربية وتجد رواجا ولكنها روايات تجد أن التاريخ فيها من أجل التاريخ، رجل كتب عملا واستمرأ ما فعله فواصله.

ولكن من يريد التاريخ لا يجده في روايات جرجي زيدان التي هي تاريخية وغير تاريخية في الآن نفسه لقد أضاف وحذف ونجح في كتابة رواية تقرأ ولا تعلم، لأنها لا تتوخى الدقة.

وعندما نراجع أعمال أستاذنا نجيب محفوظ نراه هو الآخر قد استلهم التاريخ الفرعوني ولكن ما فعله يختلف تماما عما فعله جرجي زيدان.

لقد كتب محفوظ التاريخ مسقطا عليه الحاضر محققا فيه قراءته الخاصة وهو مشروع لم يواصله بل توقف عنه، ليكتب رواية أخرى هي وليدة مرحلة أخرى من مراحل اشتغاله الروائي.

- 5 -

ذات يوم قدمت شهادة في موضوع الرواية والتراث وقد نشرت لاحقا في كتابي «الخروج من بيت الطاعة»، وتطرقت فيها إلى الروايات التي يكتبها روائيون عرب عن فترات ماضية من التاريخ العربي والاسلامي، وتوقفت عند أحد المآخذ عليها ومنها أنهم لا بد لهم أن يعودوا إلى لغة تلك المرحلة التي كتبوا عنها، وهل هم على دراية كافية بها. ثم ان الرواية هنا لن تكون عربية أو ذات شكل عربي بمجرد أن كتابها حاولوا تقليد لغة تلك المرحلة، وهذه مسألة أخرى ولكن ليست بعيدة أبدا عن التاريخ.

لنا أن نسأل أيضا: ألم يستطع روائي مثل نجيب محفوظ كتابة تاريخ مصر ولكن وفقا لرؤيته كمبدع منطلقه الضمير الحي وشهادة الصدق وكم سيتقاطع التاريخ في روايات محفوظ مع التاريخ الذي كتبه ويكتبه المؤرخون المحترفون الذين من النادر أن نجد بينهم من امتلك قدرا كبيرا من النزاهة، وأن معظمهم غرقوا في تصفية حسابات وجعلوا أنفسهم أطرافا وليسوا شهودا منصفين.

- 6 -

أضرب لكم مثالا عراقيا عن الملك غازي ثاني ملوك العراق والذي انتهت حياته بحادث نتيجة ارتطام سيارته التي كان يقودها مسرعا بعمود كهرباء.

وأقول لكم أنا لا أعرف حقيقة هذا الملك حتى اليوم رغم انني اهتممت بالمرحلة الملكية لكوني عشت آخر سنواتها ولدي مشروع معين لكتابة عمل روائي عنها.

هناك من يقول انه كان سكيرا لا يصحو، وهناك من يقول ان له علاقة بالنازيين، وهناك من يقول ان حادث موته مدبر، مرة بفك عجلات سيارته واذا ما أسرع بها ستنقلع من أماكنها، ومرة أخرى بالطلب من مرافقه الذي يجلس خلفه أن يطعنه بسكين في عنقه ثم يترك السيارة ترتطم بعمود الكهرباء.

كما ان هناك رواية نقيضة تقدمه بأنه ملك وطني، يكره الانكليز ويريد تحرير العراق منهم وكانت له اذاعة خاصة في قصر الزهور الملكي ما يبث فيها يعبر عن خطه الوطني،

وأن هناك مظاهرات كانت تنطلق في بلد مجاور تطالب بالعودة للعراق وقيادة الملك الشاب.

وكل هذه الصفات التي سقتها عن الملك غازي مدونة ومرت بي لا بل أن رواية أخرى عن تاريخ أقرب عشته وكنت أحد ضحاياه وهو الانقلاب على زعيم ثورة 14 تموز عبد الكريم قاسم الذي تم الانقلاب عليه في الثامن من شباط (فبراير) 1963، وقد روى أحد مؤرخي يوم الانقلاب هذا كيف تم نقل قاسم من وزارة الدفاع إلى الاذاعة بواسطة دبابة حيث تم اعدامه بعد محاكمة صورية سريعة.

وذكر اسم الضابط الذي نقله، ولكن ما أن صدر الكتاب في طبعته الأولى حتى توالت عليه الرسائل وفاقت الخمسين وكلها من ضباط ادعى كل واحد منهم انه هو الذي نقله من الدفاع إلى الاذاعة وقد ثبت هذه الرسائل في الطبع الثانية من كتابه

هذا مثل عن حادث قريب كان جل المسؤولين عنه أحياء في وقتها فكيف بالأحداث التي مرت عليها قرون عندما نكتب عنها عملا روائيا ؟

ثم هناك تساؤل : لماذا نلجأ الى التاريخ روائيا والأحداث أمامنا لا تستهلكها الروايات مهما تعددت ؟

ربما يكون هذا السؤال يخصني وحدي، ولايلزم أي روائي آخر يرى مالا أراه، ووجهة نظره مخالفة، ولكن من الواضح ووفق لاطلاعي أن الروايات التاريخية التي ظهرت بعد جرجي زيدان وكرم ملحم وأمين حبشي الأشقر وغيرهم لم تكتب لتقريب التاريخ من القرئ لأنها لم تلتزم به ومع هذا ساهمت في شيئ من التعريف أو الترغيب في الاستزادة لمن أراد وبهرته هذه الشخصية أو تلك ولكن بعض هذه الروايات كتبت وهي تحمل اسقاطات الحاضر على التاريخ حيث فقد الوطن العربي ما تبقى من حرية التعبير خاصة في نقد السلطة السياسية حتى لو كان ذلك بالتلميح.

ولكننا مع هذا كله لا نرى أعمالا مهمة في هذا المجال يمكن أن تقف بموازاة الأعمال الروائية العربية التي تناولت التاريخ القريب الذي مازالت آثاره علينا. مع اعتقادي بأن هناك أعمالا روائية عربية مقنعة إلى حد كبير على قلتها وربما كانت الأبرز بينها روايات الكاتب اللبناني الأصل المكتوبة بالفرنسية أمين معلوف وهي أعمال متفوقة ونادرة حقا، كما ان هناك بعض أعمال الروائي المغربي بنسالم حميش التي استلهم فيها حياة بعض الشخصيات العربية الاستثنائية مثل ابن خلدون

وتحضرني أيضا الرواية المميزة لجمال الغيطاني «الزيني بركات» وربما كانت هذه الرواية أنجح تجاربه من وجهة نظري.

لكن الروائي العربي غائص في الحاضر لا من موقع الشاهد فقط بل والشهيد غالبا

- 7 -

عندما نقرأ عملا روائيا مستمدا من التاريخ هل سيكون تعاملنا معه على مقدار ما يحققه من فنية روائية عالية ؟ أم من الصدق في الأحداث ؟

كما ان هذين السؤالين ينبث منهما سؤال ثالث : هل يكتب عن التاريخ لنزكي نماذج متهمة فيه على حساب أخرى وفق نظرتنا الايديولوجية أو الطائفية عند البعض ؟

كانت ثورة الزنج والقرامطة متهمة في أدبيات حزب البعث في العراق مثلا. في حين نجد أدبيات الحزب الشيوعي تتغنى بها وتنتبه لها باعجاب مفكر ماركسي سابق هو روجيه غارودي مثلا

في عرف كل العرب ان ابن العلقمي وزير آخر ولاة بني العباس كان خائنا، وقد صار يشار إليه قبيل احتلال بغداد في التاسع من أبريل من قبل الأمريكان في عديد المقالات واصفين المتعاونين مع الاحتلال والآتين على دباباته ليتسلموا الحكم بأنهم أحفاد ابن العلقمي، ولكنني وجدت من يكتب دفاعا عن ابن العلقمي الذي خان أهله وساهم في فتح أبواب بغداد للمغول واصفا إياه بالحكمة والذكاء وسعة العلم. فكأن هذا الكاتب ومن شابهه يدافع عن موقفه هو المؤيد للاحتلال وليس عن ابن العلقمي مبررا ما قام به

ثم لماذا لجأت بعض المؤسسات المعنية بالتاريخ إلى ما أسمته ببرنامج «اعادة كتابة التاريخ»؟ وفي العراق صدرت عشرات الكتب ضمن هذا البرنامج رغم أن السؤال ظل محيرا : كيف يمكن أن نعيد كتابة التاريخ ؟ وعلى ماذا نعتمد ؟

ان الكتابة عن التاريخ متعبة إلى أبعد حد مهما قرأت وراجعت من مصادر سيظل العمل (روائيا) أكثر منه (تاريخيا)

وربما من هنا سرّ ابتعاد استاذنا نجيب محفوظ عن مواصلة رواياته التاريخية، والانغماس في نبض الحياة اليومية للشعب المصري الذي يحسه ويراه ويعيشه فأبدع أيما ابداع

أقول هذا، رغم أنني مؤمن بأنه ليست هناك حدود للرؤية، ولا على الروائي، وأن بإمكانه أن يكتب ما شاء، وعن أي مرحلة شريطة أن ينجز لنا عملا روائيا مقنعا

8

يبدو لي أن التاريخ يصلح لجنسين أدبيين آخرين أكثر من الرواية وهما : المسرح أولا ويأتي بعده الشعر

ولذا فإن كمية الأعمال المسرحية التاريخية تفوق عددا الأعمال الروائية مثل أعمال عبد الرحمن الشرقاوي وعلي أحمد باكثير وأحمد شوقي والفريد فرج وصلاح عبد الصبور وسعد الله ونوس ومن العراق عادل كاظم وغيرهم

ومع هذا فقد كتبوا التاريخ بإسقاطات الحاضر ولم يعنهم التاريخ أكثر من المسرح، فالتاريخ لمن يريده موجود في كتب التاريخ

وكمثال على تصرف الكتب بأحداث التاريخ وشخصيته المسرحية المثيرة (الحسين ثائرا الحسين شهيدا) للمرحوم عبد الرحمن الشرقاوي والتي أعجبنا بها عندما صدرت في كتابين، وقد أوردت في كتابي (من ذاكرة تلك الأيام – جوانب من سيرة أدبية) أنني وعند لقائي بالشرقاوي وكان يصحبه باكثير في إحدى الندوات الأدبية ببغداد الستينات سألته عن سر تغييبه لشخصية العباس وهو الأخ غير الشقيق للحسن والحسين ووالدته هي التي ربتهما بعد وفاة أمهما فاطمة الزهراء والعباس اشتهر بأنه كان فرسا ومحاربا ساهم في واقعة كربلاء واستشهد فيها، وضريحه مجاور لضريح الحسين في كربلاء وكأن المرحوم الشرقاوي قد فوجئ بسؤال لم يتوقعه فقال لي : لقد وجدت أن العباس وحده يحتاج إلى مسرحية. ربما في إيراد هذه الحادثة ما يصلح للمسرح والرواية معا

ولكن الشعراء لهم حرية أكبر في الاستعانة ببعض الأسماء كرموز دون حاجة لأن يحكوا سيرتهم، وكل اسم له ما يرمز إليه وما يدل عليه. وقصائد الشعراء المعاصرين مليئة بمثل هذه الرموز بما فيها الوارد من الأساطير غير العربية

-9-

هل يمكنني أن أقول بأن النموذج الغالب والشائع في الرواية العربية هو الذي يتناول الحاضر أو الماضي القريب الذي عاشه المؤلف أو عاش آثاره وأن كتابة التاريخ من أجل التاريخ بغية تقريبه عملية لا أحدها مجدية، بل أنني غير مقتنع شخصيا بهذا النوع من الروايات التي انقرضت تقريبا وليس هناك جرجي زيدان آخر

كما أن التطور الذي حصل للفن الروائي بشكل عام جعل من الممكن تمرير أشياء كثيرة وصولا لكتابة روايات (معارضة) يمكن اعتبارها وثائق عن مرحلتها

رغم أن هناك تداخلا في قوانين المنع والسماح أحيانا وتناقضا، فلكل بلد عربي قوانينه، وقد أثيرت مشاكل حول أعمال روائية وصلت حد المنع والمصادرة في بلد ما في حين نجد أعمالا أكثر جرأة منها سمحت بها الرقابة في بلد آخر (طبعا نحن نتحدث عن الحالة العربية)

ولا أعتقد أن هناك حاجة ملحة لكتابة رواية تاريخية إلا عند البعض الذين كرسوا تجربتهم بهذا النوع من الروايات مثل أمين معلوف وبنسالم حميش، ولكن ليس بينهم من قرأت جوابا أو رأيا له يقول بأنه يكتب رواية تاريخية

ثم أن رواياتنا التي نكتبها اليوم ستقرأ غدا وكأنها روايات تاريخية فتراكم السنوات يجعلها هكذا

- 10 -

بقيت مسألة واحدة على غاية من الأهمية بالنسبة لي ولا بد أن أشير لها في شهادتي هذه وتتعلق بالمكان التاريخي، إذ أنه يبهرني إلى أبعد حد ولدي أعمال في القصة القصيرة لم أكتبها إلا من وحي تعلقي بالمكان أذكر على سبيل المثال قصة (في نهار عراقي) من مجموعة «السومري» وأتحدث فيها عن (قصر الأخيضر) الماثل في قلب الصحراء بين العراق وسوريا وهو يحمل مهابة لا تزيحها الأيام

ومثل قصتي «هموم عربية» في مجموعتي (الأفواه) عن مراكش ومنطقة «أغمات» وحيث ضريح المعتمد بن عباد أو قصتي «إمرأة من هنا رجل من هناك» المكرسة لدار في تونس القديمة هي الآن مركز ثقافي يسمى (المركز الثقافي الطاهر الحداد).

لقد كان المكان بطل هذه القصص التي أوردتها مثالا أكثر من الشخوص الذين تحركوا فيها وصنعوا الوقائع.

وبعد، فالموضوع مفتوح على آراء أخرى بعضها تتقاطع مع ما طرحت أو تتفق لا فرق المهم أنني أوردت ما أنا مقتنع به

نور الدين صمود

أصلها ثابت وفرعها في السماء

ملاحظات بين يدي القصيدة :

أولا : يكاد يجمع المؤرخون على نسبة تأسيس جامع الزيتونة إلى عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية من قبل هشام بن عبد الملك سنة 110 م وقد شاعت نسبة الزيتونيين إليه

ثانيا : شاع تلقيب كل منتسب إلى الزيتونة بـ "الشيخ" حتى لو كان صغير السن، وكنت أخال شيوخي كبار السن عندما رأيتهم صغيرا، في جلابيبهم وعمائمهم، ولما عدت الآن بحساب الأرقام تبين لي أني رأيت الشيخ محمد الفاضل بن عاشور مثلا لأول مرة وهو لم يتجاوز الأربعين من عمره، وخلته مهيبا عندئذ كبيرا وهو في الواقع كبير القدر صغير السن فقد ولد سنة 1909 م ورأيته حوالي سنة 1947م

ثالثا : سنحت هذه المناسبة مبية لذكر بعض أعلام الزيتونة الذين شرفوها وشرفوا بلادنا عبر العصور والأمصار، في ميادين الآداب والعلوم الدينية، علما بأن تكريم الشيخ الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة يقع بمناسبة تآليفه بكتب عن شيخ الجامع الأعظم وفروعه الإمام محمد الطاهر بن عاشور وابنه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور رحمهم الله. وإنه، إذ أكرمه، أكرّم أستاذ أستاذ أستاذي، بل أستاذ الأساتيذ قاطبة وأرد له التحية التي حياني بها يوم تكريمي في "اثنينية الشيخ عبد المقصود خوجة" سنة 2004 وصدرت فعالياته في الجزء الحادي والعشرين من هذه السلسلة المرموقة سنة 2005 والعصر المتقدم وقد عرف سماحة الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله، بالعلوم الدينية وبتفسيره الشهير، وهو إلى جانب ذلك عالم موسوعي في شتى علوم وفنون الأدب وأدواتهما، فقد ألف في البلاغة: "أصول الإنشاء والخطابة" سنة 1920 م و"موجز البلاغة" كما شرح وحقق ديوان زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني المعروف بالنابغة واستشهد بشعره كثيرا في تفسيره "التحرير والتنوير"، كما أنه عثر على قسم كبير من "ديوان بشار بن برد" الذي كان مفقودا طوال قرون عديدة وحققه ونشره بمصر في أربعة أجزاء في أوائل الخمسينات من القرن الماضي وأعيد طبعه بتونس في الثمانينات من القرن الميلادي الماضي، وحقق كذلك "شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام" وحقق كتاب "سرقات المتنبي" لابن بسام النحوي، كما حقق "الواضح في مشكلات شعر المتنبي" للأصفهاني ونشر شرحا للقصيدة القافية التي مدح بها الأعشى المحلق، إلى جانب دراسات كثيرة أخرى تثبت أنه أديب لغوي إلى جانب تبحره في العلوم الشرعية

رابعا : وقعت الإشارة في هذه القصيدة إلى كثير من أعلام الزيتونة عبر العصور كابن خلدون والحديث عنه يحتاج إلى تأليف كبير وأطوار حياته معروفة لدى الخاص والعام فقد تحدث عنها بنفسه في كتابه "التعريف بابن خلدون ورحلته مغربا ومشرقا" وقد اكتفيت بالإشارة إلى بعض من حياته في هذه القصيدة ولعل أحرجها قد كانت عند لقائه بالفاتح المغولي الرهيب تيمورلنك الذي انبهر بما سمعه منه من حديث، مما جعله يفك الحصار عن حلب ويكرم العلماء الذين حدثه عنهم تقديرا لهذا العالم الجليل.

خامسا : أعتذر على الاكتفاء بذكر القليل من أعلام الزيتونة في هذه القصيدة التي لم تكتب لغرض الإحاطة بهم فهم أكثر من أن يحصيهم عدّ وشهرة معظمهم تغني عن الذكر، فقد قال البحتري

والشعر لمح تكفي إشارته   وليس بالهذر طولت خطبه

وهذه هي قصيدتي وقد بنيتها على الأسلوب واللغة اللذين كانا يروقان أهل الذوق والمعرفة أيام ازدهار الزيتونة

القصيدة الزيتونية

كنت أنسى من كان غض الشباب
يستشير العلم في سن "الحبحاب"
طالما "زيتونة" ذات زيت
فيه نور كالمشعل اللهاب
أصلها ثابت ثبوت الرواسي
ويرى الفرع ضاربا في السحاب (1)
كنت طفلا إذ لاح في العين شيخا
ذا وقار في ذلك الجلباب
وعلته عمامة مثل تاج
فبدا كالإمام في المحراب
صار بالعلم في العيون كبيرا
وهو مازال في ربيع الشباب
هكذا كان كل طالب علم
يقتدي "الشيخ" بين تلك الرحاب
بذلوا العمر في العلوم صغارا
لم يرجوا في البذل غير الثواب (2)
وسواهم من الشيوخ تراهم
أهدروا العمر في الهوى والتصابي
هم شباب العقول لكن تراءوا
كشيوخ في السمت والآداب
كم نهلنا من علمهم وكرعنا
إذ رأينا العلوم أحلى الشراب
كان شيخي الأثير يبدو كبيرا
في عيون الشيوخ والطلاب
وهو "بالفاضل" المحلى صبي
وصديق من أخلص الأصحاب
أخذ العلم عنه نقلا وعقلا
لم يحاب في الرأي درب الصواب
واحتوته مدينة النور حتى
توجته بتاج علم مهاب
وأتى مطلع النبوة شيخا
من شيوخ الزيتونة الأنجاب
فاجتبوه أمين مجمع فقه
وهو أهل في العلم بالإنتخاب

***

وأنارت زيتونة العلم حتى
سير النور سافرا الأهداب
زيتها، إذ أنار، أعشى عيونا
وعقولا بنوره الخلاب
حاولوا طمسه وقد شع نورا
وهو ضوء يبقى على الأحقاب
والذي يطفئ الشموس غبي
أو ذكي في صورة المتغابي
وضياء المشكاة يبقى مشعا
ذا بريق يزيح كل ضباب
قد أضاءت أنوارها واستطرت
في جميع الأصقاع والأحقاب
واشمخرت كالصرح يعلي منارا
وتباهت بالنور فوق القباب
وتحدى أسوارها كل سد
وغدوا مثل جدول منساب
وسموا في الشرق والغرب طلوا
باسمها يقهرون كل الصعاب
نسب باذخ إلى الجامع الأعـ
ـظم أعظم بذلك الإنتساب
فـ"ابن خلدون" في المعارف فرد
وهو قطب من أعظم الأقطاب
وسفير معظم كان في "أنـ
ـدلس" المجد ساطعا كالشهاب
سبقته جيوش علم غزير
فهو بحر في موجه الصخاب
وغدا بالعلوم في "مصر" شيخا
للقضاة، وقبلة الطلاب
وأتى الشام فاعتلى كمنار
ذي بريق يضيء أقصى الرحاب
ورآه "تيمور" أهلا لفضل
إذ سمى لبه بفصل الخطاب

شاد

من أجلها حصارا رهيبا
بعد ذاك الترويع والإرهاب
وعلى "الأزهر الشريف" رأينا
شيخه "الخضر" بعد طول اغتراب
لم يسعه "الجريد" بل لم تسعه
"تونس" تحت وطأة الاغتصاب
صار في "الشرق" شاعرا وخطيبا
ثاقب العزم كالقنا والحراب
"وابن عاشور"، وهو صاحب علم
واجتهاد في شرحه للكتاب
منه جاء "التحرير" للآي حتى
لنراها كشعلة في الروابي
فهي نور من الإله علينا
سلط النور كالجبين المذاب
علما في العلوم شرقا وغربا
وإمام الاستحسان والإعجاب
لمعي قد حاز علما غزيرا
وامتيازا في اللغة والآداب
قد أتى في شرح شعر "زياد"
وأتانا في فهمه بالعجاب
وتلاقى "لنبوغ" شعرا وشرحا
فكأن النبوغ في الأنساب
وأتانا بشعر "بشار" غضا
بعدما كان ضائعا كالسراب
إنه شاعر أديب خطيب
وهو بحر في علمه ذو عباب
و"أبو القاسم" الذي ذاع صيتا
في دنا الشعر بـ"الأغاني" الطراب

رفع اسم "الخضراء" حتى تراءى
في سماء الأشعار مثل العقاب
وغدا دوحة رعاها "أبو للو"
وهو غض لم يعدُ طور الشباب
لاح مثل النهار ينشر نورا
وهو في الشعر دوحة وسط غاب
ولو اني مضيت أذكر من قد
كان منهم ملأت ألف كتاب

***

تلك "زيتونة" بها ألف صرح
ترسل النور ساطعا كالشهاب
وبنوها على المدى قد أشعوا
كالمنارات أشرقت في الروابي
طالما هم "زيتونة" ذات ريب
فيه نور كالمشعل الوهاب
أصلها ثابت ثبوت الرواسي
صافحتهم يدي على الأحقاب
فلهم مني اعتراف حميد
وجزاء من ربهم في الحساب

---

1 تضمين لمعنى آيتين من القرآن الكريم في سورة إبراهيم 24 وسورة النور 35

2 . تردد الشاعر بين هذه الصياغة التي تفيد: (بذلوا العمر في سبيل العلم ولم يرجوا في هذا البذل غير الثواب من الله) وبين (لم يرجوا في البذل أي ثواب) يعني "أجرا ماديا". وكلاهما صحيح.

حسن نصر

أعياد الفصول

عيد الياسمين

أقبل الصيف جميلا ... ضاحكاً من [illegible]
وزمان اللحب سادى ... [illegible] سحر [illegible]
وزهور الياسمين ... تنتحي في [illegible]
تنثر العطر [illegible] ... [illegible]
وصبايا [illegible] ... [illegible]
بين موج البحر [illegible] ... [illegible]
[illegible] في [illegible] ... [illegible]
أيدي كسحب [illegible] ... [illegible]
لخليج الشمس [illegible] ... [illegible]
واقطف العشر ودعني ... لا تلمني في شذوذي

عيد البرتقال

في جنان البرتقال ... عند خلجان الشمال
شرفات ذات سحر ... في نسيج من خيال
وصبح الملاح فيها ... كل أسرار الجمال
يجتني في كل يوم ... ما كفاه باعتدال
ثم يرجى ما تبقى ... لغد في كل حال
برتقال يتراءى ... ضاحكاً بين السلال
لونه في السوق مغري ... من يراه بانشغال
وهو للزوار يبدو ... مستعداً للوصال
ينشر الحب فنونا ... وبحبي لا يبالي
جنة من كل طعم ... ذاك طعم البرتقال

عيد الحصاد

[illegible] ... مرحبا عيد الحصاد
[illegible] ... بين أحضان البوادي
[illegible] ... لونها يسبي فؤادي
[illegible] ... سبلا عبر البلاد
[illegible] ... حافلا بين الأيادي
[illegible] ... كل عام في ازدياد
[illegible] ... وأمان ووداد
[illegible] فيها ... من نعيم وسهاد
وسقاها [illegible] ... عرقا مثل المداد
قد [illegible] ... هو ذا يوم المعاد
[illegible] ... بيدر القمح ينادي
[illegible] ... في مواعيد الحصاد

عيد النسرين

زهر النسرين [illegible] ... افرح العيد وتجده
[illegible] كشف [illegible] ... [illegible] وشده
[illegible] ... والدنيا [illegible] مولده
بين [illegible] ... وعيون الماء [illegible]
[illegible] ... عبر الأزمان وبعهده
وحنايا القلب تبادله ... نظرات الحب فتسعده
كل الأزهار تنافسه ... وعطور المسك تقلده
ووفود الخلق تحج له ... من كل الأرض وتقصده
خبر في الناس أردده ... عيد الأعياد وموعده

عيد الزيتونة

زيتونة مسحورة   في حقلنا مطمورة
خير كثير عندنا   فاضت به المقصورة
أوصى به أجدادنا   كنوزنا المسحورة
تعطي إلى أحبابنا   خيراتنا موفورة
مواسم الجني بها   أعيادنا المشهورة
في كل بيت فرحة   والعيش والأسطورة
الزيت في قنديلنا   ضاءت به المعمورة
شرقية غربية   فروعها منشورة
في حبة القلب هنا   مرسومة محفورة

عيد العنب

حقول الكرم قد نادت   وطابت بالمواويل
معرشة بأعناب   تدلت كالقناديل
عناقيد منمقة   بألوان المناديل
دوالٍ مالها حاب   تراص بالعناقيد
وجاءت نسوة الحي   على وقع الغلاحيل
وألعاب وأفراح   وأصوات التهاليل
ترى الشبان قد حملوا   سلالاً بالمكاييل
يطوفون بأكواب   عليها كالأكاليل
شراب خالص عذب   حلال دون تأويل
"بقرنباليا" لنا عيد   غني بالتفاصيل

عيد النخلة

[illegible]   ...نخلة في العراء
[illegible]   فرعها في السماء
[illegible]   من شموس وماء
[illegible]   سابح في الفضاء
[illegible]   ولصيفا وامتلاء
[illegible]   ..ـه من لقاء
[illegible]   في حب السماء
[illegible]   بين أيدي المساء
[illegible]   صدح ... بغناء
في يدي كرك...   ...فوق ...

الطفل واللوزة

أسحار النور بها عجب   في الحقل تميل وتضطرب
ألأن الريح تعاكسها   أم ذاك لأن بها طرب؟!
خضراء اللون مشبكة   والنور بكاد بها يثب
يأتي الأطفال يساجلها   واللهو تمايل واللعب
أحد الأطفال بمد يدا   نادى والحارس يغتضب
وظل برمحو محتدما   "أفأنت تريد به عطب؟!"
... الطفل و...   مثل العصفور و...
... الغصن إليه ...   ويصر الطفل ويحتجب
ويغيب لحارس مبتعدا   ليعود بحفنة يحتطب
راعي الأسحار يعيب   ما سر الماء وما الخشب؟!
وتود لو أنك تقطفها   فتروع بكفك تنقلب
عين الفلاح ترقبها   فالجني أوانه يقترب

يمكن تكوني هي — متعذبة بلحظة هواك وصابرة
تحسبي الهوى والغيبة — متمتعة ومتصنعة ومكابرة
لو تقربي وتنسي — ننسى الهوى حسي حسي
لو تعلمي ونحسو — نتراك في صورة جميلة غابرة
ونلقاك في داخل خبايا نفسي — يا مكابرة كيفك النفس مكابرة
سوى تحكمي سوى تعفي — أنا من قهر لحظة العجز وضعفي
وبرغم زحولك كثير جبابرة — ويمكن مثيلي صابرة

على الجرح ما بينت
ويمكن تكوني هي
ويمكن تكوني انت

يمكن تكوني انت يا من شعرها أصفر
يشبه خيوط الشمس عند غروبها
ويمكن تكوني من سمر جنوبنا — والسنابل في مزارع مكثر

ويمكن تكون منبت في مساويراك
ويمكن تكون أنت في تصويرك
الله هو البصر

اذا ألمك طلق الهوى يا انت — قلبي تألم أكثر
لكن من أخطار محصن عيني — على الجرح نصبر أكثر
ومهما ضربتي يا جبال الصبر — أناي أصبر وأصبر
وبالفعل قلبي أكبر — مهما شمخت الشوق وتسلطت

ويمكن تكوني هي
ويمكن تكوني أنت

يمكن تكوني هي — في عينيها وهدأتها
في نسمتها وحنانها — في عطرها وشذاها
في غدرها في حنرها — في قضبي وعناتها

يمكن تكوني أنت   يا من خدودك حمراء
يا شمس تكوني ساطعة عالتمرة   يا عيون ملآنة حنان وخمرة
حببتي خبايا السر من حسنها   وحتى الخطاوي تشبه خطوتها
ويمكن تكوني هي   لكن دونك دون في قسوتها
الفرق ما بنكسر   تهمر كلامي عيوني
وأوتارها تحسسوني   لحسن الصبا عرفوني
اذا عشت لحظة من ألمر أيامي   عيون الرضا يبكوني
وتروي حنيني   والعطش دمعتها
في الريح كذا أنا   [illegible] أليم

ما أمر [illegible] الليل
[illegible] غريب حبيب
ومين كنت عصفا [illegible]   بيقا مثل [illegible]
ومن كان قايم حصته   بيك فاز دون الجيل
فيها مرايا تأسر شبهها   وفيها مرآة العشق يصفى فيها
من هي شعرها تضرب حصته   يسجد ويركع في جميع أوقاته
ويزعم لا هب الهوى يقتلها   يريد السماحة سماح لا [illegible]
ويزعم لا من الهوى يعرفها   لا حسب من طولها [illegible] قصته

ويمكن تكوني [illegible]
ويمكن تكوني هي
ويمكن تكوني أنت

ترقص على إيقاعي   وتعزف على إبداعي
وتبدا طيبة لا حد أوجاعي   وتحمل رسائل فرحنا كالساعي
ويمكن تكوني هي   زنودك شبيه زنودها

وعودك يتقال عودها ويمكن تكوني بجودها في جودها
ويمكن تكوني سنبلة و شرشي
ويمكن تكوني سمة ويمكن سكانك أسمى
ويمكن تكوني نسمة غدى الربيع وورودها
الرق ما يتنكر
عبر الهوى وهواني ما تعرضوش نهودها
وكانت قصايد وجعنا وكانت عوايد جمعنا

بالحب وبعد بين بيوتنا تموت

[illegible]

[illegible]

[illegible]

يا من عيونك نافذة [illegible] لا راوضة
لو تلبسي يا بنت نظارات [illegible] حصر نافذة
بزينك ماتنفعني وبزينك ما تصنعني [illegible] خافضة
اش تطلبي يا غايرة [illegible] كلامك النافذة

ويمكن نكون أنايَ إلاَّ أنايْ

دايب مثيل الشمع سيال مثيل الدمع
نعرف مثيل العجوز نبكي مثيل الذئب
نعبر على لحظة حضن نعيشه ونكتب على بورة حضني طيشه
متمتعه فيك انت و بعيشها هنالك
ويحس بيها هو موروث ادم في خلايا حواء
ويمكن تكون أني في صمت في سرية
عاشق هواه هي و يمكن ميلي حايرة
ويمكن تظل عليَ و يمكن تمي في
ويمكن تكوني أنت ويمكن تكوني هي

ويمكن تكوني رية حرقة الهوى ما قصت

يمكن تكوني هي
ويمكن تكوني إنت

يمكن تكوني [illegible] ... وصورة [illegible]
ألوان [illegible] العشق لوناها ... ويمكن تكوني [illegible]
[illegible] خيال الفكر ما عشناها ... ويمكن تكوني [illegible]
وحكايات في الموضوع ... [illegible] على الشوك [illegible]
ويمكن تكوني من الباقي [illegible] ... و[illegible] [illegible] [illegible]
كنت عرافة [illegible] [illegible] ... عشت [illegible] [illegible] [illegible]

يمكن [illegible] [illegible]
ويمكن تكو[illegible] [illegible]
ويمكن [illegible] [illegible]
ويمكن تكوني حالمة ... وأنا زيك حالم
ويمكن [illegible] [illegible] ... ويمكن [illegible] ظالم
ويمكن تكوني [illegible] ... [illegible] تكوني [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible]

ويمكن تكوني [illegible] ... و[illegible] المتاعب سفر
ويمكن تكوني [illegible] ... [illegible] [illegible] و [illegible]
ويمكن تكوني هي ... [illegible] حمامة في عيون [illegible]
ويمكن تكوني [illegible] ... [illegible] فارس في زمن [illegible]
ويمكن تكوني [illegible] [illegible] ... ويمكن تكوني [illegible]
ويمكن تكوني ... [illegible] و[illegible]
ويمكن تكوني موج فيك بحرت ... ويمكن تكوني جناح عندك طرت

محمد الهادي الجزيري

جنـــون الخائـــن

كرتي ترفض أن تدخل إلا في شباكي
وأخي.. ابن أبيه
صاحبي
لا بل أخي
ينفخ من روحه في جثة كلب
عصنا الاثنين مرات و
أحيانا أنا أبكي على بغداد
أو لاشيء.. لا شيء
فقط أطلب كأسا من عابر أو صبر
والذين.. الشعراء، الأخوة الأعداء
حاسبو شعوب وأمم

[illegible] في حضرة ذاتي
أخرجوه من [illegible] و[illegible]
أين صحبي؟
وأين النور.. من أغلق في وجهه بابي؟

....

ليس هذا كل شيء
كل خلاني وأتباعي وندمائي معي
طبعا أنا وحدي
وأمي تغرز الإبرة في عيني
ليثبت فراح نزحوا مني
وأحيانا أنا أبكي على بغداد

أو أخرج للنزهة.. لا أمشي يمينا مطلقا
[illegible]

[illegible] زعوا شيئا ولا حول ولا معنى

ودعوني مع خلاني وأتباعي وندماني ووحدي
مثل كل الناس وحدي
كان لي شعب وطفل وعلم
أيها الريح [illegible] ممحاة ما يمحى
أنا أمحى، أنا أمحى ؟!!
لكم تكرهني الريح ولم أفعل لها شيئا
سوى ما يفعل السور
وأحيانا أنا أبكي على بغداد
أو أبرز كفي للوطن
خائن من كان مثلي
خائن مـن لـم يخـن

يسري فراوس

مجوس

فحالة،
يحلدنا الأنا بالسؤال :
لم يكن لنعصر إسم حس الشمس
ولم تجئ من الكهوف كائنات... لا
. ولم يسبقنا إلى القبل السعيدة
إله غيور
يحرسنا لذة الإثم
ويشطرنا مثل التفاح ليقل
ذي الأرض. وتلك سماء
لا لم نكن نشتهي أن نعرف
لكنها حواء
... لا لم تكن حواء
هي القاتلة تجر القاتلة
والمعنى واحد
تمر مثل البصرة
أشبه بحصون الوهم
وبصلوات للتكفير عن النبوءة
وبحرائق نلهبها لأن لا نسأل
من الذي أعدم جده؟
ومن أضاع ظهره في الدروب؟
وما الذي يرجى من توضيح اللغة؟
وكل الطبول دقت للحروب .
أشبه..
بمواعيد نضربها مع اللواتي صدقن
أنوثتنا
بحتفي بالشعر مهدى للخمر
معتقة في أفواههن
ثم نلاحق نضيئ الموزع على الفخار
ونهوى
.
من أقوال المولعين بالبكاء :
"كان يحبها فأدركهما الصباح"

***

... لا لم تكن حواء
هي القاتلة تجر القاتلة
والمعنى واحد .
.. تسللت القيامة إلى أناشيد
الأطفال
وقيل ما من حلوى لهذا العيد
وكل الألوان بيضاء أو بيضاء.

***

فحالة..
ندر الملح على البَصْرة
ونغرق في النهر أطفالنا
وحشينا...
أن يعاودنا الصوت
فرقصنا..
حول النار
مجوسا
وانتهينا
لا نصغي إلاّ
لسوءاتنا..

حدث في تلك العشية أن أذاع الراديو على أمواج الأثير وصلات دينية مباشرة بصوت علي البراق نفسه على ظهر الباخرة "بور سعيد" تيمنا بعودة الحجاج، وهكذا تبدلت الحال وأقيمت ولائم الزغاريد والصدقة إلى أن وصل بيته وارتاد مجلسه المفضل بدكانة سيدي عبد السلام، يعتمر لحفة الصوف مع البرنس والجبة المخططة

همام مهيب تطلع من جبينه الشمس ويندى في يمينه الغمام عرفته على هذه الصورة فأثرته بمودتي منذ الصغر كنت أحمل قفة الإفطار إلى والدي العامل بمحرزة العائلة، وهو الذي يخشى أن تدهسني سيارة معوجة المقود أو يركلني بغل هارب دون سائس ناهيك وأن الأرباض كانت لا تخلو من إسطبلات وكلاب مسعورة وديوك تنزو وتصيح فوق سطوح الأعلية

لهذا وذاك كان يضعني إلى جانب هذا الشيخ الكفيف ريثما يفرغ الفرن من الأرغفة كنت أتمنى أن أبقى بقربه أكثر لأعلم من أمره ما أجهل، وبالتحديد في أوائل الستينات عنه أتعلم الحفظ وهو يمسح على رأسي رغم قراءتي المليئة بالأخطاء

فهو لم يكسر عصا الطاعة على ركبتي المنطبعة من زرقة الضرب الذي خلفه بنفسي جمع سيء من المعلمين الشداد في أقسام مدرسة الفتح (تأسست سنة 1910) وتحولت اليوم إلى معهد للفنون الجميلة

لازمت المقرئ الشيخ أعواما ولا أشعر، مع أني كنت أقوده إلى داره بربض النقوس. أذكر أنه كلما بلغ العتبة، نقدني عشرة مليمات ثمن التفاحة المبطنة بالحلوى الحمراء "ديوس الغول"

الآن كلما سرت في ذلك الدرب الذي ضمني إليه، أحس أنه أسعفني بالتذكر، حسب الموتى أن يكونوا في حافظة الأحياء لا أكثر، يخيل إلي أني أسمعه يدمدم في الطريق بالألحان وتكرار الأبيات الطوال، تروي سيرة النبي الأكرم، يختمها على وجه التوشيح بكلمات فاضت معها روح الصوفي المقتول شهاب الدين السهروردي، أداها الشيخ بميزان مجزوء في تساجيل تذاع عبر الراديو.

أبدا تحن إليكم الأرواح   ووصالكم ريحانها والراح

وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم   وإلى لذيذ وصالكم ترتاح

وارحمتا للعاشقين تكلفوا   ستر الهوى والهوى فضاح

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم   وكذا دماء العاشقين تباح

قد يتعجب القارئ من عزيمة نجوم المسرح القيرواني في عبير رقصة الفالز تقديما وتقديرا لسلطانة الطرب المصري منيرة المهدية المبسوطة بالغناء على ركح "سيبما لوباري" والسعيدة بلقاء البراق والمعجبين بأسطواناتها وملصقات صورها الرائجة في البيوتات الطربية آنذاك

كانت غصنا رشيقا يملأ الصالة بنوره طويلة تتنسم وردة النجاح، وتمكن الجميع من بسمتها الحرية رغم الثراء (أفلت مع طلوع كوكب الشرق في الأربعينات)

قالت "الأسطا علي صوتو كويس، وفيه خامات تونسية، ومقاطعه نغمة صبا تهز السامع من جواه"

فيما كان الشيخ يمسك بمرش الزهر إكراما للضيفة الغالية، ويصلح من موضع نظارته السوداء: يا ست، أحسب الترتيل ما اقترن به ترنيم يقبله القلب، وأحسن ما يكون الدور إذا ألم به شيء من المصاب.

مضبوط، يعني ما فيش تطويل آهات"

يحز في نفسي أن أكنس تاريخي، وأغسل يدي مما تبقى

ربما نسي السامع أن المنشد البراق انتقى رفقة من الموسيقيين، ولم يحضر مجلس لهو إطلاقا، استأنس بالكمنجاتي حفيظ بشير، المستغرق الأبدي في سعادة غرامياته الدفينة...

وأبحر مع "سفاين المالوف" صحبة السلامي أحمد بن عياد وأحمد الزرقاء عازف البيانو علامة "فيردي" بقشرته العسلية اللامعة، وأسنانه المنظومة كالقوافي

في نهج سيدي معاوية بتونس حيث أقام البراق، كان يأخذ بيده الأديب عثمان الكعاك، أستاذ عليه تحوم الآمال والهمم، وإليه ينتهي السؤال، واصل الشيخ الكفيف وصلة الأصفياء وأتحفه بفوائد فكره وقلائد حكمة الفيلسوف الذي تعلم الموسيقى على الكبر، وقد نهرته العامة. أما تستحي أن تباشر عزف الليل وأنت أشيب؟

أجابهم: حيائي من أن أكون جاهلا على الكبر، أكثر أسرها الكعاك في أذن الشيخ وهما في الزقاق المؤدي إلى الرشيدية، ولسماع رنات العواد الواعد طاهر غرسة نعم المغرس والغرس

قل: قات الأوطوراي، ونفذ وقود ماكينة ذاك الوقت

- II -

أما المسمى نيكولا، سفير بيزنط وحامل وسام الدم، دخلت العاصمة الجديدة المنصورية أبلغ رسالة إلى قصر المهدية في شأن الدفوعات على أساطيلنا

كانت الصورة وسخة السماء رمدة الهواء عن ديار المغرب قصدا، وقد أخطأ الروم حينما وصفوا المعز بأمير البرابرة.

بعثني إلى جلالته الإمبراطور" نقفور فوكاس" لقد أصبت من مهابته في عيني" وكثرة أصحابه ما كدت أذهل عنه!

كان على عرشه مثل ملاك في أسحام أصباغ وحرير وأكمام ثياب مجنّحة..

رأيت أفراسا ولجما موشاة ... عليها صناديق مرقشة شفافة، يرى ما في داخلها من بدائع الآنية. " ذخيرة الرسائل البيزنطية - عام 1000م"

قبيل خروجه إلى أرض مصر، ولّى المعز لدين الله بلاد المغرب خراجا وأعمالا، لأحسن العقول وأجودها" بلكين بن زيري بن مناد" كبير قبيلة صنهاجة المتشاحرة مع زناته، وأوصاه بثلاثة أشياء :

لا ترفع أحدا من إخوانك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك

وإياك أن ترفع الجباية عن أهل البلاد من البادية، والسيف عن البربر

إني مشغول برسالات ترد علي من الإنحاء، أجيب عليها بخطي، وإني لا أتلهى بشيء من الدنيا إلا بما صان أرواحكم وعمّر بلادكم وقمع أضدادكم ، فافعلوا مثلما أفعل، واقبلوا بعدها على نسائكم، والزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرعوا إلى التكثير منهن و الرغبة فيهن ، فيتقص عيشكم، وتنهكوا أبدانكم بالمناكح ، فتذهب قوتكم ، ويضعف تمايزكم، حسب الرجل الواحد - واحدة ونحن محتجون إلى نصرة أبدانكم وعقولكم رجوت الله أن يقرّب علينا أمر الفتح، تدخل مصر بالأردية، ومن غير حرب على الاخشيدي، نزل أطلال ابن طولون، ونقيم القاهرة المعزية، مدينة تقهر بني العباس و تقصم القرمطي المنشق عن الملة حسن الأعصم وكان للمعز ذلك

أرجع لأبيّن أن في أول الأمر نبتت لحمة الكسوة وسداها، حريرا قرمزياً من نسج أنوال المهدية تنضح مسكا ومسحوقا ، ومن ألطف أفعال المعز لدين الله، أنّ جهزّ موكبا يحفّه الحرس وعدّة خيالة تمسك بشكائمها السائسة، وناقة بيضاء عليها هودج مربّع خرجت تتهادى كالعروس المجلوة في بهو النخيل، وسارت من باب أبي الربيع، حتى تناءت عن أسوار المنصورية نحو ضريح منثوث بين القبور والأعشاب

عزيزي القارئ،

المنصورية هي المدينة التي اتسمت باسم الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله مفتتح باب الرحمة، بقية أبناء الرسول وذرية الوصي علي والطاهرة البتول فاطمة الزهراء

خطّط لها عَقِبَ انقضاض خيله بياتا على جيوش صاحب الحمار الزناتي " مخلد بن كيداد" هادم تعاليم الشيعة، و زعيم عصيان خارجي أرهق الفواطم عشرة أعوام.

علّق المنصور جثته على مسامير الباب الغربي بعاصمته المهدية وبنى البلاد الجديدة أي المنصورة في موقع صبرة على أنقاض مدينة الروم وباقي كنيستها - أغسطية «Augusti» في حمى القيروان من الجنوب، بعيدا عن البحر وغزو القراصنة، ونسبة إلى أسقفها الأكبر Vicus.

سنة 336 هجرية، 848م جعل لها سورا وخمسة أبواب ستطلق لاحقا على مداخل القاهرة كان فتحها ابنه المعز من المنصورية فبرقة فالإسكندرية، وهي الباب الشرقي وباب زويلة والباب القبلي وباب كتامة وباب الفتوح

لأمر يهمّكم..!

"يقول المؤمن: الشيطان يغوي فيستغفر ويمضي في خطاياه. ويقول الملحد: الشيطان يغوي فيستغفر ويمضي في خطاياه. ويقول المحترف الحقيقة: أنا الغواية. ويضحك مرحا. ثم يمضي فلا تقف على خطاياه"

فرج الغضّاب

التأمل السادس والأربعون

من مخطوط تأملات في التيه والرغبة العاتية

يهتزّ قطار منتصف الليل اهتزازا مرعبا كلّما اشتدّت طريقه نحو الجنوب القاحل الوعر. وإيليا شاهدٌ راقبي ما له من نوم في مثل هذا الوضع المتعب. اعتاد السفر ليلا مرعما ود ومه حولا على وتيرة تنهك الحديد. وما أنهكت السكة مكرا. حلم أيّاما بالإغفاء في المقصورة ذات الدرجة الأولى الوثيرة في عرف الدرجات التي يركبها مكرها. ولم تحقق حلمه يوما. وها اليوم يفيق على حلم هو التعب يتدركه التعب طرا ولا شفقة.. القطار الكريه يهتزّ عنفا وتئن عجلاته الحديد رهق كأنّها العاصفات [illegible] العقر. كم مرّة سافر! وكم مرّة سيدوم السفر!.. إنها رحلة الجحيم المرّ الأبدة. والضوء الساطع في المقصورة يتلوّى كأنه السمّ في العروق يسري. وشخير النائمين يرجّع لحن العذاب. يلتفت يمينا فإذا الزّجاج الخارجيّ من النافذة المحاذية له تتآكله خطوط الانكسارات الهندسية الفسيفساء المهدّدة بالاندثار، وثقب بحجم جمع اليد في الجهة العليا منه. إنه أثر حجرة صلبة قذفت والقطار يسير. إنّه انتقام أحد الصبيان من الأفعوان المارد الحديد الهارب من صندوق ألعابه الملقى في المخزن المهمل من الذاكرة، أو هو أثر مداعبة ودّ محنين .. رمق الثقب والحزوز المتآكلة، وابتسم إيليا في غيظ وألم... في مدخل محطة القطار توقّفت سيارة إدارية سوداء. وعلى الرّصيف في هذا المساء لعنيّ تتبعه نظرات سود تحاول التخفّي بين جحافل الأرجل المهرولة .. والجالس قبالته يغطّ في نوم هنيء والمقطورة في عنف تهتزّ تهدهده فيتمطّى. يستلقي في المقعد الوثير القذر ويمدّ رجليه على المقعد المقابل المحاذي لمجلس إيليا الذي لم ينفد صبره بعد

ورائحة عفن الجوارب اللّيليّة حدود تصدم الأنف فتخنقه. [illegible] ق الرأس يتقلّب في مفرشه الوثير [illegible] صفراء كأنّها الموت ويودّ صحب [illegible] نومه يرتج أنها القطار الليليّ المتعب [illegible] بعض النائمين المتهالكين وتتعالى [illegible] مهقهات بعض المتمسّتين وإيليا ينهكه الأرق.. أحدهم يضع كالأنثى سوارين في المعصمين وقرطين بلاتين في الأذنين وآخر من ذهب يبدو في مقدّم أرنبة الأنف والأخرى ذات الرأس المحلوق وقد أنهكها الفقر لم تقدر على شراء إلاّ ما يستر عورتها ولا ستر. زنود متعرّية وأثداء بقرية تتأرجح حليبا طازجا وسرّة أعلاها تركيبة ياقوتة وبعض الوشم يتراءى في معرق الأسرار ولا أسرار. وإيليا يتلهّى غضبا وغيظا فسوء مصير. والقطار يهتزّ في عنف ونقمة والنوم يراود ويتأبّى... ما كان له أن يسافر لولا برقية عن الإدارة وصلته: " عن المدير.. عن طريق المدير المساعد.. عن طريق .. وبعد، فأنتم مدعوون للحضور بالإدارة لأمر يهمكم." وإيليا الصابر لم ينفد صبره في المدّة الأخيرة انهال سيل البرقيات والمراسلات " لأمر يهمكم " وابلا من الإزعاج. وإيليا في المنتهى يتأمّل متألّما ولا يستجيب

مع البرقية الأولى التي وصلته اغتاظ عجبا وأرسل مكتوبا مضمون الوصول للمصدر المرسل يلفت فيه النظر ويطلب توضيح الأمر كتب في الغرض " إلى السيّد المدير عن طريق السيّد المدير المساعد، عن طريق السيّد... تحية وبعد، تسلّمت اليوم من مكتبكم الموقّر برقيّة هذا نصّها " عن المدير.. عن طريق المدير المساعد.. عن طريق... وبعد،

فأنتم مدعوون للحضور بالإدارة لأمر يهمّكم". وحيث إنّ البرقيّة لم تحمل موضوعا صريحا يحدّد مضمون الدّعوة والغرض منها، فإنّ الدّعوة ترفض شكلا وتعاد لمرسلها لتصويب الخطأ الطّارئ عليها." أرسل إيليا هذا والهمّ يعتصره والغيظ طوال الطّريق بين البيت ومكتب البريد يمشي مضطربا ويهذي كالمعتوه: "لأمر يهمّكم... لأمر يهمّكم" الكلاب يسلبونني اليوم أهليّتي بعد أن سلبوا عمري وفورة شبابي. أصبحوا أولياء أمري، وأنا القاصر عن تمييز ما يهمّني وما لا يهمّني. أيّ زمن هذا! وما حياتك يا إيليا؟ أخذ منه الحنق وفار الغضب في عروقه. ارتعشت يداه وترنّح في مشيه. وكاد يسقط مرّات... "لأمر يهمّكم" سدّ كلب عليه الطّريق نابحا وهمّ بنهش رجله، فركبته الّس وركله دون وعي فالتقى الحذاء بالفم المفتوح فجعل فيه شغلا وتهاوت الأنياب وبعض الدّماء رقّ له بعض لحظة وواصل الطّريق مهموما، مطرقا، كلّه الألم والحقد وما تم ليلتها بل تآكل وجوده سرابا ولا معنى كهذا العصار الفاني إذ يحرق اللّيل بنافذته المكسّرة المتشبّثة بالبقاء يهتزّ القطار رويدا وتئزّ عجلاته الحديد ألما محضا يتصاعد في بطء كأنّه الحنين الموقوت. ويرقّ إيليا لهذه الكتلة الحديد تتناثر زندا مشتعلا. ويناجيه إذ تماثل المصير أو كاد بعض رحلات أخر ويدعى القطار لأمر يهمّه فيلفّه خلاء الورشة. وقد يصير حطاما مثل هذه النّافذة الهلكى وإن كبرت.

وصله الرّدّ بنفس الدّيباجة الإداريّة الرّسميّة وما حدّد الموضوع ولا حذفت "لأمر يهمّكم" إيغالا في الاعتداء وإصرارا على الحرم فقط أضيفت عبارة منصّص عليها بالخطّ العريض: "خارج أوقات العمل" ضحك إيليا وألمّت به الهموم وحدّث النّفس: "أيّ غبيّ هذا الذي يحرّر الاستدعاءات! ما هذا الأمر المحزن الذي تجري عليه الأمور؟ إلام يدوم هذا التّعنّت؟" وسرحت به الذكرى في العدم والقطار ما انفكّ يهتزّ متألّما، يشقّ الظّلام اللّيليّ في عنت. والنّافذة صامدة صابرة وبشائر الصّبح تتكاسل تتمطّى كأنّها الغفوة. وكان الفلق فبدا الفسيفساء تشتعل خطوطها الهندسيّة نارا تلظّى. وإذا الحمرة تغطّي النّافذة فتأتلق أنوارها أخّاذة تسلب العقل جمالا وغيظ إيليا من "خارج أوقات العمل" سمّ هار ودماء. عاد إلى البيت مهموما في غير ما انكسار يشتعل غضبا وحرّر ردّه مستعملا ديباجة رسميّة معهودة يذكّر بعدها بما لفت إليه النّظر سابقا ويضيف تعليقا على خارج أوقات العمل: ".. وعلاوة على الأخطاء الشّكليّة الّتي لحقت نصّ الاستدعاء ولفت إليها النّظر فلم تصوّب، حملت المراسلة الجديدة أمرا آخر على غاية من الخطر يبدو أنّه أهمّ ما في الاستدعاء لدى محرّره ومرسله إذ نصّص عليه باستعمال الخطّ العريض "خارج أوقات العمل" ومبعث الخطر في هذه العبارة يتمثّل في قبولها للتّأويل على وجهين لا ثالث لهما:

الوجه الأوّل من التّأويل يحمل على فهم العبارة على أنّها تحويل للعلاقة الرّابطة بين المؤسّسة والموظّفين الرّاجعين إليها بالنّظر من علاقة قانونيّة حقوقيّة إلى أخرى قائمة على علاقة شخصيّة وديّة وعليه فإنّ الحضور بالمؤسّسة في هذا التّوقيت مرفوض من حيث الشّكل، ومن الحريّ إن كانت العلاقة على هذه الصّفة أن يتمّ اللّقاء في مكان آخر احتراما لمقرّ مؤسّسة وطنيّة

وأمّا الوجه الثّاني من التّأويل وهو الأخطر فيفهم منه أنّ محرّر الاستدعاء ومرسله يمارس عمليّة تحريض صريح بالاعتداء على حرمة مؤسّسة وطنيّة نعتزّ بهيبتها. إذ إنّ عبارة "خارج أوقات العمل" تحدّد كما يلي

من السّاعة السّادسة مساء إلى السّاعة الثّامنة صباحا

أيّام الآحاد

أيّام الأعياد والاحتفالات الوطنيّة

أيّام العطل الرّسميّة.

وبما أنّ الإدارة في هذه الأطر الزّمانيّة مغلقة، فإنّ الاستدعاء للحضور بها يعدّ من قبيل التّحريض الصّريح على الاعتداء على حرمتها على وجه من الوجوه الّتي تجري في ذهن المحرّر والمرسل والّتي لا تخرج عن الإمكانيات التّالية

أن أحضر بالمؤسّسة خارج أوقات العمل يعدّ تحريضا صريحا بالاعتداء على حرمة المؤسّسة عن طريق الاقتحام في وقت خارج عن أوقات العمل

أن أحضر بالمؤسّسة خارج أوقات العمل يعدّ تحريضا صريحا بالاعتداء على حرمة المؤسّسة عن طريق الخلع

أن أحضر بالمؤسّسة خارج أوقات العمل يعدّ تحريض

صريحا بالاعتداء على حرمة المؤسسة عن طريق التسوّر

وعليه فإنّ الاستدعاء على هذا الوجه من التأويل يرفض شكلا ومضمونا"

حرّر إيليا هذا الردّ نافثا فيه كلّ همومه انتقاما من هذا الغبيّ الّذي نُصّب مديرا له لأمر ما يتميّز به عبر الكفاءة. خطّ ما شاء ورضيت نفسه فانبسط. وطلع الصبح سريعا فقصد مكتب البريد في شوق. ولم يعترضه كلب ولا كان يرتجف خوفا بل مسرورا كان بوجوده، مثل هذا القطار الّذي يرتع في البرّ هزجا طربا، يهتزّ ذات اليمين وذات الشمال في خيلاء وكبر كثيرين كم مرّة سافر.. وكم قدّر له السفر.. والسادة الأصفر ناوار سعم بالنسيم السيى. والمحشّون أدابهم النوم. والصبح من وراء النافذة يبدي القنا. والشقوق الهندسية في البلّور الخارجي للنافذة المحاذية له تلمع نورا محضا. وفي الجانب الأعلى منها شالة تحيط بالثقب القمريّ المؤتلق بحجم اليد. لوحة كانت ما أبدعتها أيدي المجرمين. ينساب القطار هادئا هنيّ البال في المنتهى وإيليا من أيّام يسافر هنيء البال، رضيّ النفس متمسكا يصله استدعاء جديد مع عبق العشيّ، نسخة من السابق ما غيّر منه إلاّ "خارج أوقات العمل". العبارة أبدلت بيوم السبت الحادي عشر من جوان على الساعة التاسعة والنصف. يبدو أنّ الغبيّ بدأ في الاستجابة، وأفلح فيه التدريس إلى حين. ابتسم إيليا. وتأمل الورقة. وكان سعيدا إذ اكتشف أنّه يمكن أن يكون مدرّسا في هذا المدى المستنير والعقل الأعشى. جلس إلى طاولته العجوز وقرأ تأمّل الاستدعاء وفكّر مليا وحدّث النفس: "الطّريق طويل يا إيليا والسفر محفوفا بالأخطار يبدو. وهؤلاء الحمقى في حاجة للدرس فهل يكفي العمر!" انتبه لرقم المراسلة وورد بذهنه خاطر. هذا الرّقم يبدو أليفا. نفض في المرمدة عقب سيجارته بعد أن سحب نفسا عميقا ومال إلى ملفّ أسود على شماله فتحه فأخرج أوراقا طفق يتملّى فيها "1488" رقم المراسلة نفسه يمهر الاستدعاء السابق. فعجب لنباهة الكاتب المرسل وتضلّعه في القانون. وكتب بلا ديباجة "ألفت نظر الحضرات المكرّمين إلى تصويب أخطاء طرأت على المراسلة الصادرة عن مكتبكم الموقّر والمتسلّمة اليوم الحادي عشر من جوان على الساعة السادسة والنّصف مساء أي خارج أوقات العمل والحاملة لرقم المراسلة السابقة كما ألفت الجناب المقدّم على الخلق أجمعين والمستحضر بدون علمٍ إلى إرسال الاستدعاءات في إبّانها مع ضرورة تحديد الموضوع بكلّ دقّة. والسلام."

وأبرق بما كتب صبح يوم الاثنين. فهجت الإدارة وماجت وارتجّت أركانها كهذا القطار المحتضر على مشارف الصبح العاوي كذئاب مفردة ينهكها القرّ. دارت الإدارة ومديرها وكتبتها المرموقون وحرّروا استدعاء حُدّد موضوعه بدقّة "من المدير.. عن طريق المدير المساعد.. عن طريق المنظف البلدي... عن طريق حارس البوابة الرّسمية.. عن طريق السيّد المدير إلى إيليا شاهد راقمي. الموضوع: استجواب في إطار الإجراءات التأديبية

السؤال عدد 1 :

تمّ استدعاؤك للحضور بالإدارة.. من قبل رئيسك المباشر لكنّك لم تحضر مبررا رفضك بصيغ شكلية لا علاقة لها بموضوع الحضور.

فكيف تفسّر ذلك؟

السؤال عدد 2:

يعتبر عدم الحضور خارج أوقات الدّوام المدرجة بجدول عملك رفضا لأوامر صادرة عن رئيسك المباشر ورفضا للتّرتيب والنّصوص المنظّمة لمهنتك؟

السؤال عدد 3:

إنّ عدم حضورك بالإدارة.. أو عدم الردّ عن هذا الاستجواب لن يوقف الإجراءات التي ستستخدمها الإدارة ضدك لاحقا

فهل تتحمّل مسؤولية هذا التجاوز؟

عن المدير والحاشية ومن لهم غرض من الخلق...

الأجوبة:

....
....
....

خرجت الذئاب من مكمن غبثها إذن وأسفرت عن الشرّ المحض وتجنّبت الاستغباء فهم أولاء يتقنون من التّحرير فالتّزوير والتّهديد. انتفض إيليا مجيبا فكتب في المكان المخصّص للإجابة "الأسئلة الواردة بالاستجواب توصف قانونيا بعدم المطابقة للسّند" وأرسل الردّ عن

طريق التسلسل الإداري وكانت روحه الهلكى تنبض حنق كهذا القطار تكشف عورته على ضوء الصباح النديّ فيطلق صفاراته في عنف ينهض أصحاب القبور... استفاقت الشوارع في المدى. وتمطّى الركّاب مطلقين ثؤابات الكسل والخمول. لم تبق غير بضع محطّات وتنتهي الرّحلة المريحة وإيليا يحلم بالرّاحة. قريبا يصل البيت. ويكون النّوم هو عائد من العاصمة والسيّارة السّوداء وقورا في ملتقا المحطّة تركها تتأمل. وقرار المحكمة الإدارية في محفظته وإيليا سعيد بالقرار. تحوّلت الذّئاب للهلاك ونزلت بثقلها تنهش لحمه وكان حريصا يتقن التّحرك بسرعة. سدّ عليهم كلّ المنافذ وحاكمهم وانتصف له القضاء الوطنيّ. وهذا القرار بين يديه يحدث بمأثرته. وهذا القطار يمرح مرحا [illegible] نور تنصبّ على وجهه المغضّن [illegible] مشارف المدينة التّائهة في الصّحراء. في أعلى ربوة من الفجّ الّذي تعبره سكّة القطار، تتراءى كتلة سوداء من خلال تعرّجات النّافذة المكسورة. لمح إيليا ذلك عند مرور القطارة الّتي يركب واستغرب الأمر. ثمّ تاهت به الأفكار بضع دقائق وتنتهي الرّحلة المتعبة. لحظات أخر ويستفيق المتخثّرون فيملؤون الجوّ كرها. ويستفيق السيّد الأصفر القدر، فيسحب بنونة جواربه، وقد يقول صباح الخير أو قد يعتذر. مال إيليا على محفظته فتحها وأخرج غلافا جسّه وسحب منه ورقة مكث يتأمّلها على ضياء الصبّح يلوح من بين تعرّجات النّافذة وكان مبتسما، والإرهاق يكاد يطفئ عينيه. يقرّب الورقة من وجهه الشّاحب المتعب، ويفرك عينيه عفوا كمن يريد إجلاء غشاوة لينهمك في قراءة قد تطول. وإذا بصفير مكتوم يخترق المكان ويئزّ في قبح كأنّه الطّيف من الجنّ ويستفيق إيليا من حلم غفوته فيرى.. السيّد الأصفر في المقعد المقابل مذعورا يتخبّط في سائل أحمر لزج يتصاعد منه بخار دافئ كأنّه الحياة. وينظر إيليا فيرى الزجاج الداخليّ من النّافذة المكسورة المحاذية له يتحوّل فسيفساء كصمود، وثقب رقيق بحجم البنان يبدو من وسطه كأنّه النّجم الآفل وأشعة الصبح من خلال الأشكال الهندسيّة تتحوّل ألوانها حمراء. لم يع إيليا ما حدث [illegible] بين يديه فإذا هي دم سائل وثقب [illegible] جبهة وينظر إيليا فيرى جبهته عينا [illegible] ويسقط القرار في يمح وتكون الغيبوبة. ويكون نوم هنيء وغنية قطار حزين. وانتبه إيليا ساعته يطلب أمرا يهمه، فكان الزّمن خارج أوقات العمر

الشاعر في مكانه

أصيل الشابي

كانا يلتقيان عادة في المقهى الواقع قبالة النافورة التي تحيط بها الطيور، لذا دخل في ذلك الصباح إلى المقهى ولم يطلب شيئا، نظر إلى الماء المتطاير من النافورة من مسافة تزيد على الخمسة أمتار بالإضافة إلى حاجز زجاجي وأطياف مختلفة تعبر باستمرار كما لو كانت غمامات. لم تقل أنّها آتية.. لم تقل ذلك، ولكنّ ذلك المكان جزء منه. وكان يعتقد أنّها هي جزء من ذلك المكان فحينما كان يريد رؤيتها كان يجلس هناك. تلك هي القاعدة الذهبيّة، ثم أصبحت تقول له: لن يتطلب الأمر وقتا طويلا، سأنهض من السرير، وأتناول فطوري وقهوة ثم أطير إليك. نعم ذلك بالضبط أطير إليك، وكانت تقول له أيضا: لا تفوّت مترو السابعة كي لا تتأخّر بسبب الزحام

شعر في ذلك الصباح بشيء يشبه تأخّر أحدهم عليه، فأراد أن يكبح جماح الوقت ليتجنّب الوحدة، ومن ثمّ عاد بنفسه إلى نقطة البداية حيث بدأ على الفور بغسل وجهه، وأعدّ بعض الأغراض الصغيرة أوراق شخصيّة، قلم حبري، بعض القصاصات البيضاء، وكان يتصوّر أنّه ربّما تركها تنتظر طويلا ظهوره، وأنّها ربّما بدأت تشعر بالملل، ثمّ بقليل من الإحتقار الناتج عن الإهمال

راقب بنصف وعي قفز الماء المتطاير في الفضاء، وحين توغّل بنظره أكثر من ذلك متجاوزا تلك الحواجز التي تعرقل التأمّل الصامت، ومنها الغمامات الهائلة المنغمّة في ظهورها، رأى بخياله، بينما كانت الكلمات تدور حوله بلا معنى، كويرات الماء اللامتناهية تقفز بخفّة إلى الأعلى، ثم تأخذ في التأرجح إلى الأسفل في البركة الدائريّة هناك حيث كانت الطيور العطشى ترفرف.

شعر في تلك اللحظات بانقسام وعيه إلى شطرين أحدهما يجذبه إلى الماضي، والثاني يشدّه إلى الحاضر، ثمّ تخيّل أنّه قادر على التحكّم في ذينك الشطرين تماما كما يتحكّم المرء بعينيه، فكان يستطيع مثلا إغلاق واحدة وترك الثانية مفتوحة، أو إغلاقهما معا، أو فتحهما، ثمّ شعر بأنّه ما انفكّ منذ مجيئه المبكّر، يسحب جسده إلى الوراء، و يعزل وعيه بحاضره فجأة أنّه هو نفسه لم يكن حاضرا بجسده على ذلك الكرسيّ وفي ذلك المكان، أو على الأقلّ لم يكن حاضرا بطريقة لائقة، لذلك بدأ بجذب جسده ثانية إلى الشطر الآخر معتقدا أنه يرمي بجزئياته اللامرئيّة إلى منطق الشعور الفضفاضة تحت القصبة الرقيقة التي كانت ترفع فوقها خياله الجامح. بطبيعة الحال كانت هناك حالة ثالثة لم يكن قد جرّبها بعد في وحدته، وهي أن يدخل كما يقول علماء النفس في استرخاء مثير، فتقذف أعضاء الجسد بنفسها مثل كويرات الماء من أعلى النافورة، وتسقط في القاع

ظلّت الصور تجول هنا وهناك مرّة في ماضيه ومرّة في حاضره دون أن تقع في المنطقة الفارغة، حيث الانتشاء بالتخفّف المدهش من كلّ الأعباء حتّى ولو كان ذلك حبّا. المنطقة الفارغة. المنطقة الفارغة. نعم الداكنة السوداء العميقة. التي يذوب فيها العالم كقطعة سكّر، ربّما كان مشرفا على تلك المنطقة، ومن ثمّ فإنّ الخوف من ذوبان صورتها كذرّة من قطعة السكّر جعله يقفز ليملأ جسده وحواسه عوض خياله، كانت القفزة مهولة، هذا ما أدركه حينما انتبه، ورغم ذلك خمّن أنّها قطعا ليست قفزة المظليين أو متسلّقي الصخور أو المنتحرين اليائسين، وإنّما هي قفزة كويرات الماء في البركة الكبيرة مزيّنة المفعمة بالحياة.

كانت الكويرات تتأجج باستمرار في دورة شبيهة بالدورة الدموية، وكان هو يتوقع دخولها بين لحظة وأخرى لتأخذ مكانها في نفس الإطار الذي يشمله. فهي لا تحتاج إلى استئذان، كان يحتاج إلى ظهورها فجأة ليبعد الملل من حوله.

طلب قهوة "كبوتشينو". وحينما بدأ يترشفها بدأ جسده في القفز إلى فوق بنوع من التمرد، مرت ساعتان لذا كان جسده يقفز كمياه ساخنة بدأت بالتحول إلى فقاقيع، كان مستعدا في تلك النقطة الزمنية لمحاسبتها، فتهاوت صورها الواحدة تلو الأخرى، ولكنه أسرع ليرفعها مرة أخرى، وتجاوز فكرة المحاسبة. ليفكر بتقليد بعض الذين حولوا كراسيهم في الخارج من الشمس إلى ظلال المظلات، مع فارق أنه سينتقل إلى بقعة البياض على قصاصة أمامه، وانشغل بالكتابة دون أن يكتب شيئا وفكر دون أن يفكر بشيء، غير أنه ظل يصعد إلى فوق إلى درجة تخيل معها أنه تجاوز ذاته وأصبح يشرف عليها من فوق

لم يعد ثمة ما يحيط به أو ما يزعجه لا ماضي ولا حاضرا، فقط هناك ضوء خافت ومزيج فيه بعض الزرقة السماوية والخضرة النباتية وأطياف ناعمة مثل الريش المختار بعناية، لم يكن ينتظر أحدا أو يتابع شيئا بعينه كانت الذوات والأشياء تنعكس عليه بسهولة، ثم تبتعد عنه مخلفة قصرا يحتله بكل ثقله.. ربما هو ثقل الشعراء المجانين الذين من حسن حظهم أنهم يتخيلون في أماكن آمنة تعودوا عليها وتعودت عليهم

تأرجحت الصور في مخيلته مرة أخرى، محدثة الصداع والحزن، ثمة ألم شبيه بما يصيب البنكرياس على حد وصفهم له أو شبيه بإنذار جلطة ناشطة.. نوع من التآكل والإحتراق السام، ثم أطل بعد ذلك الهيجان برأسه الخلية من أي رسم، فأصاب الغبار الصور كأنها كانت ملقاة على حافة مترية معدة لركض الخيول، ليجتاحها بعد ذلك الضباب، ويقع امتصاصها شيئا فشيئا كما تمتص الحلوى قبل أن تصبح مجرد دماء ساخنة.

حينما تراحمت موجات متتالية عادت الصور بملامح غير واضحة، كأنها ترى من بعيد أو من وراء حاجز زجاجي شبيه بزجاج المقهى وكانت الصور في النهاية مثل الرذاذ المنهمر من النافورة

وفي غضون دقائق انهمرت موجة جديدة تلتها موجات متتالية خلف شبكة العينين الراكدة، مما جعل الشاعر يحدث نفسه، كان يمكن للقاء أن يتم بما أنه عادة، ولكنه استدرك مسرعا: الانتصار أفضل لأن مبرراته أقصى، كما أن دائرته مطاطية ومشعة

فكر عقب ذلك في محو كلمة "قفز" التي تكررت مرارا ربما لأنها تذكر الناس بشيء هابط أو مثلا بهبوط الدم، كان على وشك محوها لتجاوز التأويلات الرهيبة رغم أنه وضح أنه لا علاقة له لا بالمغضبين ولا بالمنتحرين اليائسين، وإنما هو قفز داخلي يجتاح جسده، ثم إنه تذكر ضربات الهبوط التاريخية العظمى في صورة الكتب المقدسة ونسب الكوليسترول ونسب التضخم وحموضة المشروبات المنكهة وقيمة الدولار وأشياء أخرى كثيرة

رأى في الأخير أن فكرة الهبوط لم تكن سوى تعديل لفكرة الصعود، وحتى لا تكون فكرة الصعود شديدة التركيز، ارتاح لهذين الضدين مدركا أن الحياة قائمة في الأساس على الأضداد، ولكنه عاد ليشكك في طريقته، واستهجن تلك التبريرات التي أدت به إلى حسب المقادير كأنه منكب على طبخ أكلة يجربها لأول مرة، ويريد تقديمها إلى أشخاص يمكنهم الضحك عليه. بعد ذلك تسلل إلى الخارج، حيث كانت المظلات كالحدائق توفر ما يكفي من الظلال الخافتة وفي يده مسودة صغيرة. مشى بين الجالسين ذوي الألوان المختلفة، وهي قطعا ألوان ثيابهم ناظرا أمامه. في الأماكن المحيطة به والخارجة عن إرادته. كان واضحا أنه يحمل من خلال مشيته ما يعتقد أنها خدوش أو جروح طفيفة، أو ربما رضوض ناتجة عن إحدى مناوراته في المقهى الواقع قبالة النافورة هناك حيث كان الشاعر يجلس، عادة. في المكان الذي لا يظهر للآخرين فراغه الداخلي، وهو يرتفع وينخفض - يرتفع وينخفض.. يرتفع وينخفض كأنه نائم مع أنه لم يكن نائما

مـرة ...أخطأت قبري

عمّار الطيّب العوني

تـصـديـر :

م في المدار [illegible]

سوا [illegible]

عبر [illegible]

مس [illegible]

[illegible]

خيّل إليّ أنّ المطر جاء هذه الليلة لغسلتي ... أحسّ بأدران تُثقل كاهلي تماماً مثل هذا الزّقاق الذي يُسيّج خصر المدينة والمؤدّي بسالكه إلى عين ماء.

خيوط المطر التي يزداد نسق هطولها تخدش وجه الفضاء الذي لفّه ضباب داكن يُشعرُني بالألفة وأنا أترنّح على أرضيّة رصفت بالحجارة الصلدة الملساء محاذراً أن أنزلق فأربك هذا المدى المسكون بنزق لا يشتكشفه سوى المارقين من سديم المواسم الدائريّة بخطوات تحفّها نقاط تعجّب واستفهام، غير أني لا أروم التوقّف ولو إلى حين لأن رغبتي اللّيلية محمومة وعليّ أن أمضي إلى آخري يُجلّلني الهطل ويلفّني ضباب داكن يحيلني إلى رحم أمّي قبل نيف وعشرين عاماً . هلوسات تمرّ بخاطري . لماذا لم أصدف مطرا وضباباً كهذا في رحم أمّي .. هل لأنّها لا تمطر هناك . ؟ لا أظنّ وشهدي على ذلك والدي ... كنت أسمعه أحيانا يقول لها مادّاً منجله باتّجاه الأرض: هذه الحقول خصبة تماما مثلك .. ولكن بفارق وحيد هو أنّها تعصيك لسدّ أفواهك

بينما تنجبين أنت لفتح مزيد من الأفواه ... وتتغيّر سحنته نميل نحو الحزن فيستغفر الله كثيرا. إذن أمي خصبة ووارفة الظلال وماطرة .. أنا الذي كنت نائما عن حالات المطر هناك. كنت محمولا في مركب عائم يزنزني حنوًا ويخبئني عن البلل

والليلة وأنا هنا تحت وبل المطر هذا، لن تحميني أمّي الأولى، كان يمكن أن تمنعني من الخروج لو انتبهت إلى ذلك. غير أني خدعتها حين أوهمتها بالنّوم على صحكتي التي تحبّ وها أنا أنحدر مع الزّقاق نهرا من الأماني على صدر المدينة الغائمة التي تحصنني في صمت وترفعني على أشرعة رحيل إلى فضاءات حبلى بالاشتياق مثل طيف في السموات العلى يفتّش بين عرائش الشجر السرمدي عن عصفور أزرق. فهل أنا لئيم لأحرم مدينة كهذه من المطر ..؟

عند نهاية الزّقاق، انعطفت شمالا حيث العين الكبيرة تشحّ بمائها عبر دمع السماء الهامي مشكّلة لقاء هثلا بين السّماء والأرض... حفلا روحيا تزاوجت فيه وأحرجتاني عبث عن المشهد وقد تملّيته طويلا. وددت لو أشاركهما لحمتهما ولو زائر غير أني لم أكن بحجم بكر تشتهيه أيّة مدينة أوليلة أو موجة هناك بعيداً على السّاحل تتمدّد ثم تنفض حلمتيها مما علق بهما من رمل

ليل المدينة أشبه ما يكون بدخان الرّمث (في لونه يبيض إلى سواد) مطبقا على الكائنات خلف الجدران الميتة وقرب المدافئ أو تحت الأغطية. لا شكّ أن هناك خلف ذلك الحائط الحجريّ، تنام تلك النّاهد غير عابئة بما يدور خارجاً. هي تعلم أنّ عقلي يحجّ إليها كل ليلة وروحي تطوف بأحلامها ومع ذلك تستسلم لنومة دافئة، فارّة من رصوصي، تاركة مسائلي عالقة لا شيء يعتبها. أو يبدو كذلك

ما لم أفهمه كونها لا تهتمّ بي حين ألاقيها وحين أغيب

عنها لأيّام ثمّ أظهر تُبدي بعض الحنوّ الذي يذكّرني بشعرة معاوية أحيانا وأنا أعبّ بعض الكحول، أقول أقطعها لأريح وأستريح، لكنّ قلبي لا يطاوعني، فعشقها ربّبني. وصدّها أهلكني وبعثرني... صيّرني إلى فوضى. فمن أين لي بالانتظام.. تمرّ الكلمة أمامي كقذيفة فأحني رأسي في حركة لا إراديّة تحتثّني من هوسي فأنتبه إلى أنني تركت المدينة ورائي وانسللت من ذلك العشاء الذي يكتنفه مشرّق صوب الجبل المقابل حيث أشجار السرو تمدّ أعناقها رماحا تمزّق ستار هذه الليل الأزرق، وتمرق (الأشجار) منه عينين، واحدة على المدينة وأخرى على المقبرة هنا على يساري، أحسست بموجة عرق بارد تغمرني وأنا أرى المقبرة تبدو ساكنة أكثر من اللّزوم؛ نور خافت ينبعث من حجرة واطئة قرب الباب.. لابد أن الحارس ينام معيبس شيلتس هو أكثر الحراس حظا إذ لا شيء يمكن أن يخاف عليه من اللّصوص هنا ما دام الكل ينام على السليقة. لكن ماذا لو ضبطني ... يحرّني عليه

اقتربت من السياج استندت عليه ورحت أنتقف حذائي من الوحل العالق به الكلب أيضا لم يحسّ بي، كان ينام على أذنيه.. دارت بخلدي صورة التزاوج بين الأرض والسّماء بواسطة ذلك الحبل الممدود بينهما والمرصّع بحبّات المطر البلّوريّة أنا أيضا صرت أداة وصل بين المدينة النائمة في حضن المطر الليليّ وبين المقبرة الناعسة في ملكوت الله رغم شخير الحارس الغافي. ربّما أبدو خيطا سيّئ بين عالمين ، خيطا رصّعا بالنرفزات والأدرن، كنت أمشي إلى جوار السّياج مخفورا بالآهات المكتومة كأن خوفا على آذان النيّام من وقر قد يصيبها.

نوبة المطر تركت مكانها لزخّات متباعدة، تأتي مع هبّات الريح العربيّة اللاذعة. استحال الفضاء إلى مركض للسحب التي ... تغدو على عجل باتّجاه الشرق تعقبها أخرى زحف ممرّ وحركة دائبة تحيلها من الماضي إلى المستقبل ورغمني كما السّابقات كم أتمنّى لو تظلّ السماء حبلى كما في الأول حتّى لا أحس بثقل الكون وحدي، على الأقلّ هناك أرض تفرغ فيها شحن الماء وفيري، ما زلت أدور حول السّياج المتهالك، تتصاعد رائحة الطّين والسّرو والأعشاب الميّتة بعد المطر... وتنأى السّحب لم تعد تبرق حين أغمز لها . يبدو أنّها ذهبت كما جاءت وتركتني أعلك العرب المائل في مهبّ الشّرق وقد دميت رجلاي من لسعات البرد فأشتهي كوب عصير

مرتقال .. وأضحك لطعم الاشتهاء : دائما ما أتمنّى أشياء ذات قيمة ... لو كنت أنثى لصدق عمّي القول بأنّي أتوحّم. لكن لو أتمخّض... ماذا عساي أنجب، خصوصا وأنا خليط عجيب، ربعي شاعر وثلاثة أرباعي الباقية كلّ الناس. سيكون لي ولد بارع في فنون الحرب الكلاميّة وآخر ثوريّ في غرف النوم والثالث بارع في إفساد الفتيات وقراءة الطالع... أحسّ بالصداع يهبط رتيبا عليّ فأهترئ وتنتابني نوبات الارتباك التي لازمتني منذ وفاة والدي بين يديّ حطّ الموت كأيّ طائر شريد على أول وكر صادفه بين أحضاني، كان يبدو منهكا مثل بياض ذلك السّرير ذي السيقان الزنخة. أو مطاردا أعياه الهرب لذلك لم يعرّض في العشّ وأصرّ على سكنه كنت أعجب لصفقته، وأحيانا أعذره حين أدرك مدى معاناته لنشر مستقرّ ولو إلى حين. لا أدري كيف حطّ هذا المساء القديم على كتفي مثلما حطّت تلك الغيمات على صدر ليلتي ثمّ سرت ودارت حول رأس المدينة ومنه تسلّلت نحو الأرحب ليسقط ذيل الليل على كفّي حجرا مفقوعا في تعب ذلك الطائر المقصوص الجناح أمسكه من ساقيه وأبسط كفّي لأطيّره كي أتفادى بوائقه، غير أنّه يدسّ رأسه تحت جناحه المتبقّي ويغطّ في سبات عميق. يدوّخني هذا الطائر الليليّ هل تراه يبحث عن سكن مثل سابقه وهل اختارني لمّا وجدني قرب المقبرة. ماذا لو أدهسه بحجر قبل أن يأتي عليّ.. لماذا ترك المدينة بكلّ أهاليها وحطّ عندي. وتذكّرت - كانت العرافة قد تنبّأت لأمّي بمقدمي وطول عمري.. وإذ صدقت في الأولى فلا أظنها تجانب الثّانية لذلك لن أخلص منه حتّى وإن أزعجني.. قد أهديه غدا إلى تلك التي هيّمتني. فهو يناسبها

صوت المؤذّن عند الفجر يغشاني، فأتحسّس طريقي نحو المنزل القابع في مملكة للسّواد . حللت في الغرفة الضيّقة . مترل الطائر نائما بين جلدي وقميصي تمدّدت على السرير الأبرد من قلب حارس المقبرة وبقيت أسرح في ذلك الملكوت الذي غزوته الليلة وقد طار النّوم من عينيّ تحسّست قلبي . كان عليه غشاء سميك من الأتربة والضّباب وريقي صار له طعم الرماد أعيتني محاولات نفض ذلك الهوس المضني عن مخيّلتي.. فلم أفلح، إذ كلّما أغمضت عينيّ تشابكت الرّؤى وضجّت فأسارع بفتحهما .. أحيانا ونحن نحدّق في الفراغ يكون أسلم من النّوم وسط هلوسات من كلّ الأحجام نطبق عليها جفوننا فنخزنها ولا نخلص منها.. لوعة ما تسكن أحشائي لفي

...عير، بضيق الحجرة المقرورة أكثر... ...وت قديم قدّت ألواحه من عظام نخرة أنهض السرير الحاوي وأطفئ الضوء فيسبح المكان. تتحرك شخوص المسرح الدامي من حولي. تنفلت منّي صرخة أحسب أنّ صداها يتردد خلف الرّبوة المطلة هناك أقف وقد علت الضّحكات من كلّ الأركان ولمعت أسنان الممثلين. أشعل النّور وأتهالك مجددًا على السرير مغمضًا عيني يعاودني الغثيان وأنا أتمثّل ما حدث طوال هذه اللّيلة. يبدو الزقاق الذي يسيّج خصر المدينة أفعى تحاصرني. تمدّ ذيلها، تغمسه في ماء العين وتجلدني... هذا الذيل المرقّط صار ذيل ثور يشتهي ظهري... يأكل منه. لم أعد أملك نفسي، مركزني اللّيل في أسوإ نقطة منه. تماما عند مؤخّرته، فلا هو يمرّ سريعا ولا هو يرتدّ إلى الوراء فأسافر فيه مجددًا طفلا صغيرا جديدا أمدّه جسرا لأعبر إلى الشروق الذي قد لا يجيء. أحسّ برغبة أشدّ من مساحات كمدي في الجلوس إلى أي كائن في ذلك المقهى الذي يعج بالبطّالين والربّالين والشيوخ إذ يلوكون حكايات الفتوّة واعتصاب الفتيات بين نباتات الحلفاء وروائح الإكليل والشيح والمنيّ الممجوج على حجر الصوّان. انتزعتني تهويماتي خلف تلك الحكايات التي نطّت إلى ذهني من تخاريم شدوخي وعرجت بي على ضفاف الصباح وهو يستقبل أولى طلائعي. كان ذيل الليل قد غشّني وأرسل على المدينة بساطا من الثلج قبل انسحابه دلفت إلى المقهى جائلا بعينيّ ممشّطا كلّ الطاولات. لم تفارقني صورة الشيخ عبد المولى وهو ينزو على إحدى الفرنسيات وقد وسدها حصرا وجه الشيخ تشوبه بقايا حمرة وهو يقصّ عليك خبر "كات" كما تحلو له تسميتها. فيعب من الماء كثيرا. يبلّ ريقه الذي يجفّ لذكرها ويخمد نارا تتأجج داخله كلّما احتدّ المشهد إنّي أراه الآن بشارب مرتجف يركّز بصره على النافذة يكاد يخرج منها عينيه وقد صمت، يسرح بنظرة غائرة خلف إحدى العابرات حتّى تغيب عنه فيعود يحدّثنا كاترين التي تستمتعون بحكاياتها وربّما تضاجعونها ليلا في أحلامكم، أيها التّعساء، تشبه إلى حدّ بعيد تلك التي مرّت من هنا.. قدّها ممشوق وبطنها ملويّة، يتمايل شعرها الذّهبيّ سبيب الفرس، تلمع عيناها كسماء حزيران وتشعّان على خدّ أسيل. كنت حين أحتضنها وندوخ سويّا تشبه قطعة عجين أكوّرها وأمدّها وألفها كما يحلو لي. كنت آكلها بلا بسملة: لذلك اشتهت خشونتي وأسبغت عليّ نعمة لن يطالها أمثالكم - شباب اليوم - حتّى وسط هذا المدّ الهائج من الصبايا المبرّجات... لهفي على نفسي، لو كان أوقفت غير الوقت لو يأخذنا العمر قليلا إلى الوراء حتّى يتشرّخ حصان الشبق في الشوارع وسط تلك المهري الملفوفات السيقان في "التي شيرت"، حتما سيصهل طويلا ولا يبرح الساحات قبل فكّ اشتباك الدوائر.

كان الشيخ يطير غيمًا بين أفخاذ الغواني وضباب العمر الآفل حتّى انحنت ذاكرته وغامت رؤاه فامّحى الكلام وتاه في صمت جريح أطبق علينا جميعا فبدونا في مأتم أو جلجلة قدسيّة سرعان ما قطعها صوت يختزل أوجاع التاريخ ينبعث من الركن الآخر حيث تحلّقت مجموعة من الشباب حول العجوز "الزّاهي":

[illegible]	يا سر اللي زهوا بيد راجو
[illegible]	بغداد ينبع صلاحو
[illegible]	ما ربّ.. اطلق سراحو
[illegible] والي كرد من بعد ما حب	الله يكسرو من جناحو
تمسو عقاو عرف سمرة	جراحي من لدار شاحو

...[illegible] من غفوتي لأجدني وحيدا أجلس في ركن قصيّ كانت السيجارة تحترق بين أصبعي ولم تمسسها شفتاي. لا أدري ما الذي أحسّه الآن رغبة محمومة تفصلني إلى أجزائي الأولية.. تتزاحم شخوصي في حيز ضيّق من مسافاتي يصعد مجددًا ذلك اللّجام النّاري الذي أفرّ منه باستمرار إلى فمي.. يعاودني صوت الوالدة مع كلّ صباح: إلى متى ستبقى بدون شغل.. هيا احرق شهادتك. أو انقعها في الماء واشرب محلولها.. يوبكني موت والدي بين يديّ وعلى مرأى من الله. ومشل المنيب سظر الطائرات وهي تبول هناك على جراح بلادي. فعرى ذلك الفراش الذي أنام على مساميره. رغبتي الآسنة في قول الشّعر. يوما ما.. سيموت الشاعر فيّ وأضاف إلى قائمة الأفعال الجوفاء. كم أحنّ إلى قول الشّعر. وشهقة اللغة أشتهي واحدة من صافقات الخيل أجوب على ظهرها ارتباك الغرب كلما أنقذف نحو الشطآن وأساوم به نساء الشرق وأعتنب المحار وأزرعه فوق مدينتي وفي وجه الجبانة المترعة بالتبّه لما يرفض من حولها الموسّعون وتتحلّل العناصر. ماذا لو أمتشق وجه الرّدى فينطلق حصان المفردات. أخاف أن لا يتوقّف إلاّ عند أهداب فتاة الشّرق التي حطّت بالشّبق الأزرق المختوم بالموج على راحة الغرب

ابعثي والتي كلّما قلت فيها شعرا انضافت إلى سلسلة مشاكلي حلقة أخرى رغم أنّها لا تهيم في سلّم ولا في الشر كلّ همّها لباس يليق بجسدها وبسريحة تهدّئ الأعصاب وتزيد من حالات هستريا الأبعاض في الصدمة

بطئو نجوم الظهر على مسرحي تمور الصّور أمّي الموت الحروب الصدفة بلمع السكّين تماما كما امسكتها آخر مرّة لم أرتجف للحظة دفعتها تلوثت. قبلتني أمّي صدقت وأعمي عليها أصبح بالمقهى نصبة ترافقني أنيس يحتفي بنداء الهتف إذ تستنشق بنخبة

بخطو ثقيل ورأس معزولة. أغادر المكان… عائدا عبر الرّذاذ، الوك أغنية قديمة

"زعرة مصقولة الناب…"

كنت أعرج معشرين رجلا أو … حمراء قتمة بحث فيها لحصاد … لحلبة فيما تسلر شري الرّتيم … عصمي عبر … كنت بلاه … أصفّها حين تداعبني نجمة الصبح فأنتشي حتّى أتعثر

على مسارب المقبرة، يدعدغ الهواء ذيلي فأهتزّ وأغني محتضنا الجوى

"هزّي الشفة على النّاب

خلّي الربّ يحاسبني…

في اللحظة التي كنت أرداد نشوة، تسقط رجلي ببعض الحفر فأسمع صوتا بخشخش قربي: خفّض صياحك.. قد تجلب العسس.. فأمضي تباعا وقد اشتعلت لحظتي السّادرة لذلك أرسل شدوا حزينا كوجهي فيلتفّ بي الموتى غاضبين

- كرهنا النّواح. فدعنا. وأجل نباحك إلى الآخرة

ويأتي من آخر المقبرة صبيّ زاعق: ماذا دهاك يا شقيّ إلى متى ستبقى دونك تخطئ قبرك. أما تستحي من هذا السكون… كفّ يا رجل عن أفعالك السّاقطة… ويرعد حينا ثمّ يعود أدراجه إلى ملكوته تحت صفصافة أغصانها دانية يتبعه الفراش والطير والنّحل… وحين يغيب الجميع يظهر الحارس الداهية.. يلملم فوضى ويمسك ناصيتي ويجرني نحو قبري مصوّتا: لا تبرح قبرك وإلاّ بلّغت عليك في المرّة القادمة

[

ودخلت إلى المقصورة، طابقت رقم تذكرتي مع رقم مقعدي وجلست بعد أن علقت معطفي وعلقته قربي كان مفرش المقعد الطويل جلدي باردا، مما زاد من تذمري وغبني، ودلف إلى جواري رجل متوسط العمر، ذهبي الشعر، له شارب طويل عريض يملأ وجهه، يضع على عينيه نظارة ذات إطار أسود مذهب الأطراف، بدا أنيقا جدا حين خلع معطفه السميك وعلقه قرب الباب. ولم يلتفت إلي، ولم يبادلني أية كلمة، كان يدعك كفيه وقد دفنهما بين ركبتيه. وفي مواجهتي كان المقعد الجلدي المشابه لمقعدنا فارغا. طبعا كان يشغلني لحظتئذ. انتظار من سيشغل هذا المقعد المخصص لشخصين. كنت أتمنى ألا يشغله أي شخص مريض كي لا ترتبك حالتي النفسية المتعبة أكثر

كانت الأصوات والهمهمات، وإرشادات المراقبين وصخب نقل الحقائب، ووقع الأقدام، ونظرات اللجوجة هي السائدة في الداخل، أما خارج القطار فكانت الجموع تزداد كثافة كلما حانت مواعيد انطلاق القطارات، والريح تتلاعب بأغصان الأشجار وأوراقها المتساقطة، والمطر الناعم الرخو يهمي بلطف حنون، فجأة تفطنت إلى الرسالة التي أرسلتها إلى عتاب بعد انقطاع طويل عن الكتابة. افرحتني الرسالة كثيرا، فقررت أن أبدأ بها صباحي، ولكني لن أقرأها إلا حين تهدأ هذه الضجة القاسية، وتلك الأصوات المتداخلة التي تضغط على أعصابي بقسوة لا ترحم. من هو أنثوي يحتاج إلى عوالم سحرية خاصة ! وأنا أدير وجهي إلى زجاج النافذة المجاورة لي خوفا من أن يضبطني جاري الذهبي الشعر وأنا أبتسم فيحسب أنني أعاني من خلل عقلي ما. التفت إلى النافذة فرأيت مجموعة من الناس يحملون رجلا بين أيديهم ويهرعون به إلى داخل محطة القطار، يبدو أن قدمه انزلقت، فسقط على الأرض وتأذى، وعدت ونظرت إلى جاري فرأيته قد أخرج أوراق امتحانات وشرع بتصحيحها بقلم أحمر يبدو كأنه أستاذ جامعي !

وانطلقت الصفارة الأخيرة معلنة مغادرة القطار المحطة، فتنفست بعمق، وأنا أرى باب المقصورة يغلق بالضغط الكهربائي، ونظرت إلى المقعد الشاغر فوددت أن أقول للأستاذ الجامعي أن ينفرد به، ويصحح الأوراق بكل هدوء بعيدا عن مضايقتي له. ولكنني تنبهت حين سمعت صفارة القطار تنبعث ثانية معلنة بصوتها الممطوط المتقطع أن القطار سيتريث قليلا قبل أن ينطلق، فتوترت أعصابي، وأطلقت بصري إلى خارج النافذة، فرأيت، لأول مرة، ومنذ جئت إلى هنا فجرا، امرأة حقيقية.

امرأة من لحم ودم تتقدم نحو قطارنا وحيدة فوق خطى متزنة واثقة، معطفها القرمدي اللون ينشق عن بياض ساقيها

أعمغم لنفسي . إنه عطر الصباح ! فأية مقصورة محظوظة ستحتويها "

من المؤسف أنها على عجل غابت عن ناظري لا بد أنها صعدت إلى القطار لأن أبوابا تفتح وأخرى تغلق، وأصوات بعيدة وقريبة تتداخل فجأة، انفتح باب مقصورتنا، فتوقف قلم الأستاذ الأحمر، وتعلق بصري معا على الباب ولم يدخل أحد، لكن وقع الأقدام المسموع يؤكد بأن أحدا ما يتقدم نحونا ليتقاسم معنا السفر في هذه المقصورة. لحظات ولاح المعطف القرمدي ودلفت المرأة، فرقص قلبي وضج لكأنه تعنيني أنا دون باقي خلق الله كافة

رمقتنا معا بنظرة طولانية عميقة، وتقدمت بهدوء نحو المقعد الجلدي الشاغر، وضعت حقيبتها الكبيرة على مفرش الأرضية، وحقيبة يدها الصغيرة فوق المقعد، وشرعت تفك أزرار معطفها وحزامه الجلدي، فتهيأت لأساعدها بعدما رأيت جاري قد عاد إلى أوراقه يحبرها باللون الأحمر، فكت الأزرار، فنهضت لآخذ المعطف من فوق كتفيها، بينما انطلقت صفارة القطار تعلن قيمة ثانية فأغلق الباب، واهتز القطار وانطلق فعلا. وتقدمت نحوها خطوة واحدة ولامست المعطف وإحدى يديها فارتعشت، وترامشت أهدابها، وابتسمت. أخذت المعطف برفق ولين، وعلقته قريبا إلى جوار النافذة، لكنها رجتني أن أعلقه هناك قرب الباب لأنها ستتفرج على مناظر الطريق، فاستجبت لها. وعدت إلى مقعدي ورنين شكرها يطربني، وهنأت نفسي . هي ذي البدايات الطيبة، بدت لي في العشرينات من عمرها، طويلة، ملأى، شعرها الأسود مشدود بشريطة من الحرير الأبيض اللامع

توقعت أن تكون الرحلة ممتعة بعدما صارت هذه السيدة الجميلة قبالتي تماما، لا شك أنها ستنسيني قلقي واضطرابي وتفكيري بالعقود التي سأوقعها، بل ربما أنستني قراءة رسالة عتاب وطوت لهفتي لها. أتملاها وقد انشغلت بحقيبتها الكبيرة، إنها تبحث فيها، وجهها مدور لا يخلو من نحولة بادية، لونها أبيض موشى بصفرة لامعة، وعيناها واسعتان بأهداب طويلة راعشة، وأصابع يديها طويلة ملأى كأقلام

الرصاص وأتشاغل عنها. أنتهي بالنظر إلى خارج النافذة مرة، وإلى أوراق جاري مرة أخرى، وذلك لكي أفسح المجال لها لتتملاني هي أيضا. أحاول أن أضبطها خلسة وهي تنظر إليّ، فأخفق، فقد انشغلت عني بأمور تافهة جدا. رأيتها تخرج ملقطا طويلا من حقيبتها، راحت تنظف به أطراف حذائها، فتراكمت قطع الوحل تحت طرف المقعد، ثم أخرجت قراضة الأظافر وراحت تقص أظافرها وتبردها ببرودة عجيبة، غير عابئة بوجودي أو وجود صاحب الشعر الذهبي.

وأراها تعطس وتقح دون أن تستر فمها بطرف يديها أو منديلها ودون أن تمسح رذاذ لعابها، بدت في حالة فوضى لا تتناسب مع جمالها الكثير ثم أخرجت حبة برتقالة على أصابع يديها ولم تكترث.

وتساقطت قطع قشرة البرتقال الصغيرة والكبيرة وتركتها بين قدميها فوق قطع الوحل أيضا. أحسست بالانزعاج لأنها تخرب نسيج أنوثتها على هذا النحو المقاسي ثم رأيتها تأكل البرتقالة دونما تقطيع فيسيل ماؤها على أطراف فمها وأصابعها دون أن تحفل به إلى أن انتهت منها لا شك أنها أفسدت جزءا من مكياجها. ولهذا أراها تخرج منديلا أبيض من حقيبة يدها الصغيرة وتمسح فمها بطرفه ثم وبطرفه الآخر تمسح حذاءها، وترمي المنديل فوق القشور وقطع الوحل ودن أن تلتفت إليّ! كادت تقتلني بتصرفاتها وتمنيت لو أنني أعرفها ولو بمقدار بسيط، لأنصحها بأن هذا لا يجوز، فالأنوثة ماء هذه الدنيا، الأنوثة طبيعة أزهارها وخضرة وأنسام، وما فعلته لا يليق بأنوثتها أبدا إنها قاسية لعبية، وقد أذت روحي، لكنني لا أعرفها، كما أنها لم تفسح لي المجال لكي أتعرف عليها، لم تقدم لي قطعة واحدة من برتقالتها الكبيرة. لقد أكلتها كلها وبشهوة عالية. وصدرت بعسى فالمسافة لا تزال بعيدة، ولا بد أن الوقت الطويل سيسمح لي بأن أكلمها لكن يا لخيبتي فقد رأيتها تنظر في ساعتها، ثم تقوم إلى معطفها، تأخذه من فووق العلاقة وتشرع بارتدائه، فأهرع إليها لأساعدها فشكرتني مرة ثانية، وابتسمت لي، ولكن لم تزد على ذلك قط

وذهبت إلى النافذة وراحت تراقب المطر الخفيف الذي ينقر الزجاج بلطف وحنو، والأشجار وهي تترادف بسحر حقيقي خلف القطار. هممت أن أقول لها شيئا، أن أشاركها في مشاعرها، لأن المناظر كانت خلابة فعلا.

لكنني أحجمت بل لأعترف انتظرتها لكي تعود إلى مقعدها ولحظتئذ سأبدأ معها بأي كلام. لا شك بأنني سأحزن كثيرا إن لم أحادثها. ورحت أراقب ظهرها وطولها، امرأة حقيقية على الرغم من سلوكها لفظ التفتّ إلى جاري فرأيته غارق في تحبير وتخطيط أوراق تلاميذه باللون الأحمر، حسدته على صدوده وعدم اهتمامه بالمرأة الجميلة، فجأة دوت صافرة القطار، معلنة عن التوقف بعد لحظات في المحطة الأولى. جف حلقي، وزاغ بصري، وزاد قلقي فلربما هبطت هذه المرأة المجهولة في المحطة القادمة وزاد إحساسي ذلك لأنها نظرت في ساعتها ولبست معطفها، غير أنني أنفي هذا الاحساس فهي لم تفعل ذلك إلا لأنها بردت قليلا أو لأنها... وانقطع تفكيري عندما تتضاءل سرعة القطار ثم تتلاشى، ويتوقف ويفتح باب فينهض الأستاذ الجامعي جامعا أوراقه في حقيبته، ويتناول معطفه لينطلق، ويلتفت إلى المرأة التي ما تزال تنظر من النافذة ويصرخ بها بعنف بـ:

"هيا يا مدام.. تأخرنا"!

فتستجيب له، وتنقاد لأمره، فتمشي خلفه دون أن تلتفت إليّ، وأغص وأنا أراهما يهبطان من القطار، الرجل في المقدمة والمرأة خلفه وهو يستدير نحوها بين خطوة وأخرى ناهرا إياها لتلحق به ولم أطل انتظار إليهما وقد علت صفارة القطار معلنة قيامه ثانية، فتغلق الباب، وأنا ما أزال في حيرتي ودهشتي وقد صرت وحيدا، ومن عجب أنه لم يكن لي من مؤنس في مقصورتي لحظتئذ سوى طيف المرأة وهي تقص أظافرها وتبردهم، وطيفها وهي تقشر البرتقالة وتأكلها بتلك العفوية والفوضى، وقد سال ماؤها على الشفتين، وأعترف الآن بأن أجمل أثر تركته تلك المرأة هو هذه الرحلة الهندسية الرائعة من فتات وحل حذائها، وقشر برتقالتها الكبيرة!

الكوني للتجربة فهي تتأسس على قواعد تاريخية ومكانية زمانية (2) . وتبعا لهذا يبحر المؤلف في تقصّي حياة الشيخ وترحاله بين الأندلس والمغرب والمشرق إلى حيث غادر بدون رجعة ، ويربط المؤلف بين الأحداث الرهيبة التي كانت تجدّ وتحرك ابن عربي. وهو السياق الزماني والمكاني الذي لا يمكن تجاهله أو إغفال شأنه . ويتطرق بعد هذا ليكشف عن لوحات من حياة الشيخ في علاقته بمريديه وأصحابه وحكام عصره، ويخلص الى الإقرار بأن تجربة ابن عربي ذات بعدين، بعد روحي كوني وبعد تاريخي متداخل مع احداث العصر، ويتخلل هذا العرض طرح قضايا مفهوم دار الإسلام ودار الكفر، وقضية نصر المسلمين وقصة المهدي المنتظر .

ث - **الفصل الرابع :وعنوانه اللقاء بابن رشد**، من الصفحة 163 الى الصفحة 199 وفيه تعرض المؤلف إلى اللقاءات الاربعة حسب تقديره التي جمعت ابن عربي وابن رشد ، الأول وابن عربي لم يتجاوز عتبة الشباب وقد رغب ابن رشد في ملاقاته ليطلع عن كثب على ما عنده وما بلغه ما فتح الله به عليه، واللقاء الثاني ولم يتحقق وقد رغب فيه ابن رشد ليعرض ما عنده على ابن عربي ويرى هل يوافق او يخالف ما توصل إليه الفلاسفة .أما اللقاء الثالث فقد أقيم في عالم الخيال كما يذكر ابن عربي في صورة - ضرب فيها بينه وبين ابن رشد حجاب بحيث يبصر ابن عربي ابن رشد وهذا لا يشعر حتى بحضوره. وأما اللقاء الأخير فهو مجازي من تصور المؤلف وقد جمع بين ابن عربي ورفاة ابن رشد أثناء نقلها من مراكش إلى قرطبة إثر وفاة ابن رشد. وقد تطرق المؤلف أثناء تناوله لمختلف اللقاءات بالدرس إلى عديد القضايا المعرفية بدءاً بالنسق السردي الذي اعتمده ابن عربي إلى قضايا البرهان والعرفان وطبيعة الأدوات المعرفية لكل طريقة معتمدا في ذلك على تجربة حي ابن يقظان كما قصها أبو بكر ابن طفيل

ج - **الفصل الخامس : وعنوانه نشأة الوجود ومراتب الموجودات**، من الصفحة 201 الى الصفحة 246 استهل هذا الفصل بمقدمة تناول فيها خاصية فكر ابن عربي والمتمثلة في كون أي نقطة بداية يختارها الباحث للإبحار في فكر ابن عربي يحيل إلى نظامه الفكري كله (3) . ومنشأ ذلك أن فكر ابن عربي يقوم على بنية دائرية مماثلة لبنية الوجود والتي يرسمها ابن عربي كنسيج مركب من عناصر ومكونات شتى ، ثم تطرق إلى شرح عناصر هذه البنية والمتكونة أساسا من عنصر التجلي الأسمائي وعنصر التجلي في النفَس - بفتح الفاء - الإلهي ومفهوم النكاح. ويتخلص إلى مفهوم الموجودات باعتبارها كلام الله والإنسان كلمة الله وتأتي مرتبته في آخر مراتب الوجود، وهو بذلك أرقى الموجودات وأعلاها من حيث أنه مجلي كل حقائق الوجود ومراتبه من جهة وهو مجلي الحقيقة الإلهية من جهة أخرى(4). ثم تطرق إلى مسألة تأويل القرآن وتمثل تصور ابن عربي للنص الديني مع تصوراته الوجودية والمعرفية باعتبار أن القرآن هو الوجود المتجلي من خلال اللغة وهو ايضا جوامع الكلم التي توازي الوجود وترمز الى حقائقه (5)

ح - **وأخيرا الفصل السادس وعنوانه تأويل الشريعة جدلية الظاهر والباطن** من الصفحة 247 الى الصفحة 297، واستهله بتحديد مفهوم الشريعة والقوانين والأحكام المشتقة من المصادر الأساسية لتنظيم حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة سواء في مجال الشعائر والعبادات او في مجال المعاملات والعلاقات الإجتماعية(6) وبعد التعريج على مسألة اختلاف الشرائع ووحدة التجربة الروحية تعمق في الكشف عن مفهوم ظاهر وباطن الشريعة لدى ابن عربي باعتباره انعكاسا لباطن الوجود وظاهره. ثم تبسط في شرح رؤية ابن عربي لمسألة أهل الظاهر من العامة والفقهاء وأهل الباطن، وتميّز أهل الله بالجمع بين الظاهر والباطن وما ينشأ من الخلاف بين الفقهاء وأهل الله لاختلاف الفروق المعرفية. ثم تخلص إلى مفهوم الشريعة والميزان الذي على أساسه اعتدل الكون وهو مفهوم يقام لدى ابن عربي على ثلاثة أبعاد، بعد وجودي أنطولوجي، وبعد إبستمولوجي معرفي وبعد انتروبولوجي إنساني. ثم تطرق إلى الأصول الأربعة المعتمدة وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وختم بعنصر في تأويل الفروع والعبادات مستندا الى ما ورد في كتاب الفتوحات المكية لابن عربي، فاستعرض مسألة التلفظ بالتوحيد - لا إله إلا الله - والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج

هذا باختصار شديد مضمون الكتاب مجملا ، تجنّبت فيه

التبسط في المشاكل المتشعبة التي طرحها إذ ليس هذا هدفنا من هذه الملاحظات ، بل عاينا التوقف ولفت النظر إلى ما انتبهنا إليه من إخلالات نود المساهمة في الكشف عنها خدمة لمضمون الكتاب

2)الإخلالات :

ويمكن إجمالها في ثلاثة أصناف : معرفية تتعلق بأخطاء وتصاريف في نسبة الأحداث إلى أصحابها، تحليلية وتتعلق بتحديد الدوافع والأبعاد وتأويلية وتتعلق بتأول ما جاء في كلام الشيخ وحمله على ما لم يراد به.

أ – الإخلالات المعرفية :

ويتعلق أولها بخطإ واضح قلب الأدوار في حديث جبريل عليه السلام عن الإسلام و الإيمان والإحسان إذ يذكر المؤلف في صفحة 75 من الفصل الثاني ما نصه : "يطمح الصوفي الى تجاوز حدود الايمان للدخول في تخوم الإحسان الذي شرحه جبريل للنبيّ صلى الله عليه وسلم حين ظهر له في صورة أعرابي وأجاب على أسئلته له في حضور بعض الصحابة، سأله النبي عن الإيمان فأجاب أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وأن تؤمن باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره "ويضيف" وحين سأله النبي عن الإحسان أجاب جبريل المتمثل في صورة إنسانية بشرية هي صورة أعرابي - أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(7)

والصحيح أن السائل هو جبريل والمجيب هو النبي صلى الله عليه وسلم بمحضر الصحابة ، ونصه كالآتي : عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال : صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال : فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت. قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربّتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان . قال ، ثم انطلق . فلبثت مليا ثم قال لي يا عمر أتـدري من السائل . قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم "رواه الخمسة (8) .

أما الإخلال الثاني فيتعلق بالتضارب والتشويش في تقديم المعلومات ، حيث يذكر المؤلف في صفحة 46 متحدث عن زيارة ابن عربي للشيخ المهدوي بتونس ما نصه "وهو الذي كتب له الشيخ رسالة - روح القدس - وهو في مكة" ثم يذكر في صفحة 79 ما نصه "أما كتاب - روح القدس في محاسبة النفس - فقد صنفه سنة 590/1198 في تونس" .ثم يعود ليذكر في صفحة 83 ما نصه : "وفي سنة 599 يكتب رسالة روح القدس في محاسبة النفس – من مكة لصديقه في تونس عبد العزيز المهدوي" .

والمعروف أن رسالة روح القدس في محاسبة النفس كتبها ابن عربي سنة 600 كما يذكر ذلك في خاتمتها حيث يقول : "وكتبت إليكم بهذه الرسالة من مكة حرسها الله تعالى وشرفها في شهر ربيع الأول سنة ستمائة" (9)

ب – الإخلالات المتعلقة بتحليل الوقائع وشرح الدوافع والأسباب :

أنهى المؤلف الفصل الأول الذي عرض فيه لتحول الفتى ابن عربي من الجاهلية إلى الإسلام بحملة من التساؤلات الافتراضية حاول فيها حصر الأسباب التي دفعت ابن عربي إلى الارتحال ومغادرة الأندلس والمغرب الى المشرق. فذكر في معرض حديثه البحث عن التقدير الذي لم يجده في الأندلس، أو البحث عن الحياة في عالم أكثر هدوءا بعيدا عن جو الاحتقان الفكري الناتج عن سيطرة الفقهاء وتحالفهم مع الحكام ضد المفكرين والمتصوفة كما أعاد المؤلف نفس هذا التحليل في الفصل الرابع في حديثه عن اللقاء مع ابن رشد حيث ذكر ما نصه : "لعل المحنة التي تعرض لها فيلسوف قرطبة سنة 1195 وهي محنة نفيه

ومصادرة كتبه وما تبع ذلك من صدور فتاوى بتحريم دراسة الفلسفة وتعلمها، لعل هذه المحنة كان لها تأثير في قرار ابن عربي مغادرة المغرب كليا الى المشرق" (10). وهذه وإن كانت افتراضات وجيهة فهي لا تفيد بشيء فيما يتعلق بالشيخ وتبقى مجرد تهويمات صالحة لكل شخص إذ أن حياة الشيخ وتصرفاته كانت تخضع إلى إملاءات باطنية عبّر عنها بوضوح في كتاباته حيث ذكر بخصوص الدافع الذي جعله يتحرك لمغادرة الأندلس وبلاد المغرب بانه كوشف وهو بمراكش برؤيا أمر فيها بالتوجه إلى الشرق" (11) وهو الدافع المحدد لتحركه في تقديرنا، وهذا ما تؤكده سيرة الشيخ بصفة عامة في عديد الأحوال التي مرّ بها والتي يضيق المجال عن حصرها ويمكن للمهتم بحياة الشيخ أن يظفر بها بسهولة في حل كتاباته

ت- استنتاجات غريبة و تهم في غير محلها :

في حديثه عن اللقاء بين ابن عربي وابن رشد والذي اورد نصه في الصفحة 166 (12)، تاه المؤلف وراء افتراضات لا مبرّر لها مع وضوح النص وتواتر الحالات الشبيهة في كتابات الشيخ وأول ما يبدأ به في استنتاجاته التشكيك في أصل اللقاء على الصورة التي نقلها ابن عربي مرتكزا في ذلك على كون ابن رشد لم يذكر شيئا عن هذا اللقاء وبطبيعة الحال هذا لا يعني شيئا ولا يوهن القصة ومجرياتها. ثم يمضي ليجري غيره في الاستغراب من حضور الشاب في الجواب الذي أربك ابن رشد ؟ بنعم ولا ؟ مبرّرا ذلك بالقول بأن ابن عربي لم يكن قرأ كتابا بعد، ويذهب إلى الاستنتاج بأن الراوي للقصة ليس الفتى ابن عربي بل الشيخ ابن عربي صاحب الفتوحات بلغة أوضح يستبعد المؤلف هذا الحضور البديهي وهذا التمكن لابن عربي الشاب ويتهم ابن عربي الشيخ بتلفيق الأمور عند كتابته الفتوحات. وهو استنتاج يفرضه القصور عن استساغة حصول المعرفة بصورة غير الصورة المعهودة التي تعتمد اكتساب المعرفة، وهو ما تفنده الوقائع والحالات التي يرويها ابن عربي وغيره عن حصول هذه المعرفة اللدنية بصفة مباشرة دون تعلم أو دراسة وذلك لدى الكبار والصغار، ولعل ما يرويه ابن عربي نفسه عما لمسه لدى صبي "عرف ما يوضح المسألة يقول ابن عربي في حديثه عمن التقى بهم من أهل الله " ومنهم رضي الله عنهم عبد الله الخياط، لا أدري اجتمعت به بجامع العديس وهو ابن عشر سنين أو احدى عشرة سنة وهو ذو طمرين ممتقع اللون كثير التفكر شديد الوجد والتوله كنت قد فتح لي في هذا الطريق وما علم بي أحد، فأردت الموازنة معه فنظرت إليه فتبسم ونظر إلي، فأشرت إليه وأشار إلي، فوالله ما رأيت نفسي بين يديه إلا كدرهم زائف، وقال لي " اجد الجد طوبى لمن عرف لما خلق له "وصلى معي العصر وأخذ نعله وانصرف فذهبت أتبعه أعرف مسكنه فلم أجد له أثرا فسألت عنه فلم أجد أحدا يخبرني عنه... فمنهم كبير ومنهم صغير(13) " وفي هذه الشهادة غنى عن إيراد العديد من الحالات الشبيهة التي أوردتها كتب التراجم والطبقات والكرامات والتي تؤكد حصول المعرفة الذوقية من غير طريق الكسب، وهذا ما يجعل من افتراض تلفيق الوقائع أمراً لا مبرر له ولا يخرج عن حد الإساءة المجانية التي تعقد الشيء وتعجمه من حيث سعيه لتعريه. وهذا بعض من كل عددنا الخوض فيه لعدة اعتبارات ليس أقلها الإقرار بحق المؤلف في فهم الأمور كما أوردها، على أن هذا لا يمنع من تنبيه القارىء إلى عدم الاغترار بالعنوان. هكذا تكلم ابن عربي - الذي يحاول الإيحاء بالاستيعاب والتحاور لكتابات الشيخ، ودعوته إلى الرجوع إلى النصوص الأصلية وعدم الاقتصار على قراءات الغير خاصة عندما يتعلق الأمر بهذه المرجعيات التراثية الأساسية حتى لا نظلمها ولا نظلم أصحابها ونعطي للأمانة حقها

على كل وفي ما عدا هذا فالكتاب يظل مهما كمحاولة لمعالجة القضايا الشائكة التي عرضها ابن عربي والتي اختلف بشأنها قراؤه قديما وحديثا، وهو جدير بالعناية أيضا لكونه يعيد فتح باب الحوار الإيجابي حول مسائل طويت ملفاتها دون حسم، وقد يكون في هذا بداية عهد نفهمها بصفة أعمق وأدق على ضوء تطور العلوم الإنسانية واتّساع مجالات الاتصال والتواصل.

---

1) نصر حامد ابوزيد هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية 2004 ص. 25

2) ابوزيد. المرجع السابق ص 125

3) ابوزيد المرجع السابق ص 201

4) ابوزيد. المرجع السابق ص 230

5) أبوزيد، المرجع السابق ص 237

6) أبوزيد، المرجع السابق ص 247

7) أبوزيد، المرجع السابق ص 75

8) فتح الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، تأليف الشيخ منصور علي ناصف، دار الجيل بيروت ج 1 ص 24

9) روح القدس في محاسبة النفس - تأليف الشيخ محي الدين ابن عربي - دراسة وتحقيق علي ساسي، الدار العربية للكتاب تونس 2004 ص 203

10) أبوزيد، المرجع السابق ص 63

11) ابن عربي، الفتوحات المكية، طبعة دار الفكر 1994 ج1 ص 49

12) أبوزيد، المرجع السابق ص 166 - النص، يقول ابن عربي: "دخلت يوما بقرطبة على قاضيها أبي الوليد بن رشد وكان يرغب في لقائي لما سمع وسمعه ما فتح الله به علي في خلوتي، وكان يظهر التعجب مما سمع، فبعثني والدي إليه في حاجة قصدا منه حتى يجتمع بي فإنه كان من أصدقائه وأنا صبي ما بقل وجهي ولا طر شاربي، فلما دخلت عليه قام من مكانه إلي محبة وإعظاما فعانقني وقال لي: نعم، فقلت له: نعم، فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم استشعرت بما أفرحه فقلت له: لا، فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي؟ هل هو ما أعطاه النظر؟ قلت له: نعم لا، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها، فاصفر لونه وأخذه الأفكل وقعد يحوقل وعرف ما أشرت إليه"

13) روح القدس في محاسبة النفس، المرجع السابق ص 152/153

أسئلة النقد والقراءة في إقليد "صابر الحباشة"

عبد الرزاق جمايعي*

مقدمة :

صدر عن دار الإتحاف للنشر كتاب نقدي للناقد والباحث "صابر الحباشة"(1) اجترح له عنوانا مهموزا هو "الإقليد" وأردفه بعنوان فرعي يترجم غرابة العنوان ويفكك سننه وهو "مقاربات لأدب فريد". وإذا كانت كلمة "الإقليد" تعني المفتاح في معناها المباشر والسائد فهي تسمية غير بريئة محتشدة تخفي رسالة لا ندرك كنهها إلا بقراءة متن الكتاب. إن عنوان الكتاب يعد بتقديم مفتاح لمعاشرة الشأن الإبداعي أو النص الأدبي غير أن المقالات التي ضمنت فيه لا تقدم مفتاحا واحدا بل مفاتيح متعددة للنصوص الإبداعية والنقدية، وهي نصوص تراوحت بين المتن التراثي والمتن الحداثي. استدعى فيها الباحث عدة نظرية وجهازا مفاهيميا متنوعا يعكس وعيه بنوعية النصوص التي اشتغل عليها وتمس وجاهة مقاربته منذ العتبات النصية الأولى للكتاب إذ قال في التقديم: "يجد القارئ في هذا الكتاب قراءات لنصوص من الأدب العربي قديمه وحديثه أجرينا فيها المناهج البلاغية والبنيوية والأسلوبية والأغراضية دون أن نلتزم في ذلك بحرفية أي منها" (2)

لئن كان هذا التقديم من قبيل الميثاق الذي يتعاقد عليه المؤلف مع القارئ فيفي الثاني بالشروط والسبل المسطرة في ذلك الميثاق ويباشر فعل القراءة متحررا من سلطة المناهج وإكراهاتها ففي متن الكتاب من النتائج ما يحتاج إلى التثمين والتثبيت وفيه أيضا ما يفتح مسالك مشرعة على السؤال والنقاش وحسبنا أن نتناول مشروعه مقالة للوفاء بكفاية القراءة ومستلزمات الإنصاف.

* إشكاليات نقد الشعر:

استهل الباحث "صابر الحباشة" كتابه بمقالة جرى القول فيها حول مسألة النقد القديم وقد وسمها المؤلف تحت إشكالية من إشكاليات نقد الشعر في العمدة" لـ "ابن رشيق". وقد عدل صاحب المقالة عن مألوف الخطاب الرائج حول النقد القديم ليتناول قضية لها وشائج متينة بالمباحث البلاغية ومباحث الإعجاز، وتتمثل في التراتبية القائمة بين القرآن والنص الشعري لينتهي إلى فكرة خطيرة لعل السؤال المنتج فيها هو: هل إن أفضلية النص القرآني ببيانه وفصاحته على الشعري هي أفضلية أدبية فقط؟ أم هي أفضلية تحتكم إلى معايير أخرى متعالية على النصين المقدس والدنيوي؟

إن مكمن الخطورة الخلاقة في هذا السؤال الذي يخترق مقاربة الباحث يتجلى في تحفيز المتلقي إلى مساءلة النصوص النقدية القديمة على الأسس المتحكمة في معاييرها الجمالية والتصنيفية، وبذلك توصل الباحث عبر التنقيب عن الأسئلة الثاوية خلف حجب النظرية النقدية كما تجلت في "العمدة لابن رشيق" في مسألية التراتبية بين بيان القرآن وبيان الشعر إلى الوقوف على وجوه الحرج الذي وجدته المؤسسة النقدية ممثلة في نموذج "ابن رشيق" في مباشرته النص الأدبي برؤية ظاهرها أدبي وباطنها وحدودها لاهوتية، كلامية تفرض على الناقد الإقرار بأفضلية النص القرآني على النص الشعري عبارة ورؤية جمالية. واعتبر الباحث أن هذه التراتبية انعكاس لتراتبية نص مقدس سماوي على نص دنيوي أرضي وانتهى إلى

---

*- أستاذ اللغة والآداب العربية بالمعاهد الثانوية

التسليم بكون هذه الرؤية البيانية من قبيل المقاربة التي سيّجت الخطاب النقدي ووجّهت جمهور النقاد إلى قراءة النص الأدبي وفق نظرة لا تخرج عن إجماع علماء اللغة والإعجاز، مستندا في ذلك إلى نماذج مبثوثة في متن العمدة؛ تدلل على مقايسة وجوه البلاغة في الشعر على وجوه البلاغة في القرآن بالإضافة إلى مقايسة الخطاب الشعري على النص القرآني في الموقع، مما يشي بانشداد الناقد القديم أثناء تقويمه للنص الأدبي إلى سلطة أخرى تملي عليه إكراهاتها لحظة القراءة. غير أن الباحث لم يتساءل عن الأسباب البعيدة المتحكمة في هيمنة البعد العقدي على المؤسسة النقدية القديمة إذ لا تعود التراتبية فقط إلى هيمنة المقدس "النص القرآني" على "المدنس" أي الخطاب الشعري؛ وذلك بحجبه لموقع الصدارة التي كان يحتلّها ذلك النص لدى العرب بل تعود التراتبية أساسا إلى الصراع الكائن بين رأس مال رمزي يحف بالقرآن ونظيره المقترن بالشعر حيث سعى الأول إلى احتكار مجال الصدارة في الضمير الإسلامي ونقض ماهو قائم يرتقي إلى مرتبة المقدس لدى الجمهور الذي تربّى على تقبل الشعر في المقام الأول. ولذلك حارب القرآن سلطان الشعر فاعتبر أن مؤسسته مقترنة بمؤسسة السحر ومؤسسة الكهانة فحققت نتيجة هذا الصراع القيم الرمزية المرتبطة بالشعر وبوضع الشاعر في فضاء القبيلة ثم تأتي الدولة لتستعيض عنها بسلطة الخطاب الديني والنص القرآني، ولعل ذلك ما تفصح عنه الأخبار المقترنة بالشعراء المخضرمين والطبقات التي صنفوا فيها "فالأصمعي" مثلا في حديثه عن "حسان بن ثابت" يرى أن شعره في الجاهلية أجود وأمتن صناعة من شعره الذي نظمه في شطر حياته الأخير وهو مسلم وذلك لأثر العامل الديني في شعره أو ما سماه بـ "خال النبوة" وبالإضافة إلى هذا الصراع بين رأس المال الرمزي المقترن بالقرآن نلحظ موت وطائف رمزية تبادلية ينهض بها الشاعر، وميلاد أخرى بعد الحدث الإسلامي. لذلك لا يمكن التسليم فقط بانحسار الصراع بين القرآن والشعر حول التراتبية في أفق بياني فحسب.

* قراءة أبي نواس، مجددًا

لئن خصّص الباحث "صابر الحباشة" المقالة الأولى من كتابه لمتن نظري نقدي قديم فقد عني في المقالة الثانية والثالثة بعالم "أبي نواس الشعري" متوصلا إلى نتائج لا تعدم لطف النظر وإصابة المقصد نظرا إلى تقصّيه إلى زوايا معتمة في النص النواسي أغفلها القوم على الرغم من كثرة البحوث والدراسات التي حبّرت في شأن الشاعر وشعره. ففي المقالة الثانية من الكتاب حدّد السمات الفنية والأسلوبية التي تفرّد بها أبو نواس عن أضرابه من الشعراء موسمة بمرتقى المخصوصة في تعريض الغريض ونسجه. ومن تلك السمات الأصول نقف مع الباحث على سرّ الصناعة لدى أبي نواس ماثلا في اعتماده آلية "المبالغة" وإجرائها في مستويات الموضوع أو المعنى المطروقة ثم الصورة الفنية والحقول المعجمية (3) أما المظهر الثاني الذي مثّل عنوان براعة الشاعر في استخدام جملة من الأساليب البديعية كالتصدير والتوليد ويضاف إلى هذا المظهر مظهر ثالث تشكّل في اختصاص أبي نواس حسب "الحباشة" بطريقة فنية مستحدثة خاصة في الخمريات، تتمثل في توسيع الصورة أفقيا وعموديا واستقصاء جزئياتها وترشيح المعنى عبر استدراج شحنته الدلالية بالمبالغة في وصف الخمرة واللهج بسماتها الحسنى وتعداد مناقبها على المجاز لئن وقف صاحب المقال على مظهر العدول الجمالي عن السنة القديمة في النص النواسي وأصاب في تلمّسه مليّا بدقة النص، فقد اعترت مقالته شوائب لا تنفي أمر المركزية فيه من ذلك ذكره لوجوه حضور "المبالغة" في شعر أبي نواس وعدم تفسيره للمصطلح على الرغم من رواجه لدى البلاغيين القدامى والنقاد والنقاد الأسلاف والمحدثين على شاكلة "أدونيس". كما لم يؤكد على كيفية اشتغال تلك الآلية أفقيا وعموديا وما ينجم عنها من آثار دلالية في النص الشعري. ثم ومن تلك الشوائب إغفاله لكيفية تقبّل علو "أبي نواس" في استعمال البديع من قبل المؤسسة النقدية التي قرأت النص المحدث بضرب من الإستهجان واعتبرته "شعرا مشكلا من جهات عديدة": مشكل من جهة صلته بالقديم ومشكل من جهة بنيته ومشكل من جهة قراءته وتقويمه "(4)

لئن رصد الباحث ماهو مشترك من سمات إبداعية في النص الجامع لأبي نواس فقد تدرّج من الكلي إلى الجزئي على عادة المناطقة، للاستدلال على إبداعية أبي نواس وذلك بتحليل مدحة نظمها الشاعر في الخليفة العباسي

وهو ما أتاه في المقالة الثالثة. ومثل تحليله نصّا لفرضيّة سعى إلى دحضها، وهي " نفى صفة الشعريّة" عن أغلب نصوصه (أي الشعر) غير الخمرية" لذا دلّل الباحث من خلال تحليله لقصيدة "ظلّ جناحه"(5) على سمات الشعريّة وأماراتها فأبان عنها من خلال برهنته على قدرة أبي نواس على مضاهاة فحول الشعراء في نظمهم لمدائحهم فكشف عن التزامه بالنهج الرسميّ لنظم المدحة في مستوى بنيتها الثلاثي ثمّ تحايله على ذلك البناء عبر اختزال قسم النسيب وإدماجه لمعان جديدة توسّع فيها، تتعلّق بالفخر بالخمرة والتخرّق في البذل عليها وذلك في تداخل مع مايعرف بقسم الرحلة.أمّا المستوى الثالث للشعرية فقد أبان عنه في الصفات التي رصدها الشاعر لممدوحة والمعاني التي اخرجها لتجسد مظاهر كرمه وسؤدده وصلاحه. ولئن عدت هذه المعاني تقليديّة فإنّ ما يحسب لأبي نواس [illegible] المبالغة لاخراج تلك المعاني [illegible] الفتوة ومن مستلزمات الرصيد [illegible] السادة. وهو أمر لم يتوسّع فيه الباحث ولو تطرّق اليه لعثر الى جوانب فنيّة تبيّن عن المقدرة الشعريّة لأبي نواس في عرض المدح.

*** الرّحيل والصّورة في شعر المتنبي**

ولمّا كان الباحث ملتزما باستيفاء النظر في النصوص المعالم في التراث النقديّ والأدبيّ القديم فقد ختم الباب الأول من كتابه بالنّظر في كتاب "صورة الرحيل ورحيل الصورة" للباحث " خالد الوغلاني " وهو كتاب صدر عن دار الجنوب للنشر. وفيه وقف على تجليّات فعل الرحلة في الكتاب المذكور بوصفها حركة ماديّة وحركة شعريّة عكست رغبة المتنبيّ العميقة في التمرّد على سنن القول بابتكار صور ومعان شعريّة جديدة، لينتهي إلى اعتبار الرحلة في شعر المتنبي انعكاسا لتجربة وجوديّة ومعاناة يكابدها الشاعر من أجل نقلها إلى مستويات مختلفة داخل النصّ.

*** قراءات الأدب الحديث**

ولئن يمّمنا وجوهنا شطر الباب الثاني وهو باب عنونه الباحث بـ" مقربات في الأدب الحديث" ألفيناه يستهلّ عمله بمبحث حول الشابيّ ليخوض في موضوع الطفولة بوصفها غرضا شعريّا يقع في منطقة التجاذب بين قطبي الواقع و"اليوطوبيا"، وهذان القطبان هما القوّتان المحرّكتان للفعل الشعري لكونه فعلا يروجه التخييل والحلم دون أن ينفصل من مؤثرات التجربة الذاتيّة وطبيعة حضورها في الكون. والمبحث الذي رصده " الحباشة " للشابي يمسح أوفر قسم من كتابه (من ص 54 إلى ص 73) طريف في حدّ ذاته ووجه الطرافة فيه نظرة الباحث إلى موضوع الطفولة من زوايا جديدة إذ لم تعد معه إشكالا رومنطيقيا بل صارت تجليّا من تجليّات الزمن في شعر الشابيّ، وهو ليس من قبيل الزمن المعيش الذي تدركه الذات على نحو بسيط سائج وتحدّده بمراجع ترادف تجاربها في الحياة بل هو زمن كثيف محمل بطاقة شعورية يكتسب خصوصيّة لكونه ملاذ الشاعر، منتج لمعان شعريّة ثرّة وقادحا لجملة من الإحداثيات الدلاليّة يقول الباحث:

" فذكرى الطفولة وخيالها تسيطر وتطغى على عالمه وحياته النفسية فمن الناحية النفسيّة المحضة يسهل أن نقف على كون الشاعر يستجيب في شعره لرغبات نفسيّة كامنة في فترة الطفولة كتبت، فكان الشعر حلاّ اجتماعيّا نفسيا له بما يجعله يوفق بين نزعات النفس ولمسات الفنّ المتجسّم في ملكة الشعر الذي " ابتلي بها" و " شقي بحيازتها" (6).

إنّ المهمّ- في نظرنا- في هذه المقالة اقتدار البحث على تأكيد أنّ معنى الطفولة، هو معنى ناظم في شعر الشابيّ ترتدّ إليه بقيّة المعاني. وقد توصلّ " الحباشة" إلى البرهنة على إنتاجيّة هذا المعنى دلاليّا بفضل التوسّل بمقاربة دلاليّة تستأنس بالمنجز النظريّ في العلوم العرفانيّة وأدبيات علم النفس، فوصل المعنى المنبثق في رحم اللغة بذات الشاعر وما يعتمل في لا شعورها وبكيفيّة استبطانها لمراحل حياته وتجربها الشخصيّة. ولمّا كان النظر في نصّ الشابيّ من قبيل النّظر الذي يقود إلى الخوض في مسألة الحداثة وإرهاصات التجريب في الشعر العربي فقد واصل الباحث مساءلة النصوص المركّبة في مشهد الحداثة ومنجزات روّادها من أمثال "نزار قباني" و"محمود درويش" ليقف على تجلياتها وأماراتها الماثلة في منجزي الشاعرين المتفاوت. فلئن فرض مشروع التحديث على شاعر مثل "قبّاني" الاعتناء بجمالية الإبهار أو ما سمّاه الباحث

بالبنية التصويرية (7) عبر ما يُعرف بتقنيات التجسيد والتبئير وإشراك الحواس في التقاط مواطن فتنة المرأة مبثوثة في جزئية من جزئيات جسدها. فإنّ نصّه يطرح حسب الباحث أسئلة أخرى تتعلق بإشكالية التحديث تدفعنا حسب "الحباشة" إلى مساءلة مستويات فنية أخرى ودلالية تتعلق بجوانب أسلوبية وسيميائية، كتوظيف الشاعر للبنى الإيقاعية وتنويع فيها كتعامله الذكي والخلاق مع المنجز الشعري القديم عبر محاورته محاورة أضفت العمق المفقود في تاريخنا. وإنّ ما يحسب للباحث قدرته على الوقوع على أسرار الصناعة الشعرية لدى "نزار" وإبراز مواطن الوهن في النص.

ولئن بدت مظاهر الحداثة في نص "قباني" متسربة في مستويات متعددة فهي ماثلة في أعمال محمود درويش في البنى الإيقاعية بالإضافة إلى قدرته كسر الأنساق التعبيرية المألوفة بخلق صور وعوالم شعرية يرى معها أوساعا جديدة للمعنى، وذلك عبر ما يسمى بعملية الانحراف الدلالي. وهو ما أبان عنه البحث في المقالات التي ختم بها كتابه(8)

الإحالات:

1. باحث تونسي في اللسانيات والنقد والبلاغة العربية
2. الحباشة (صابر)، (2005) الإقليد، مقاربات لأدب فريد، دار الإتحاف للنشر، ص 5
3. الإقليد، ص 14
4. المبخوت (شكري): (1993) جمالية الألفة، تونس بيت الحكمة، ص 103
5. ديوان أبي نواس، تحقيق عبد المجيد الغزالي، ص-ص 468. 469
6. الإقليد، ص 62.
7. الإقليد، ص 74
8. انظر المقالين الأخيرين عن شعر محمود درويش
- البنية الإيقاعية والحقول المعجمية، في قصيدة "المطر الأول"، ص ص 97 108
- بيروت ترجمة الرجام، تحليل سطر شعري من "مديح الظل العالي"، ص ص 109-114.

[

وتجدر الملاحظة أنّ مبدأ التقابل والتضاد من العناصر التي وظّفت في منطق العلاقات بين الشخصيات، وكم هي عديدة متلوّنة، بيد أنّ مدارها ينحصر في قطبيْ الأثرياء والمستضعفين أو بعبارة أخرى بين أصحاب السلطة وذوي النفوذ من جهة والمقهورين والمغلوبين على أمرهم من جهة أخرى.

لقد صنّف بعضهم رواية "النزيف" فاعتبرها منضوية ضمن الاتجاه الواقعي. (محمد الجابلي، رواية "النزيف" لـ"الناصر التومي"، مجلة الحياة الثقافية، العدد 135، ماي 2002، ص 138). ولئن صحّ هذا الرأي بموجب بروز الخطاب المحاكي للواقع فيها، فإنّه لا يحول دون اندساس ملامح اتجاهات أخرى نخصّ منها بالذكر حضور البعد الرمزي. فعلى الرغم من أنّ جلّ الشخصيات والأحداث جاءت مطبوعة بالنهج الواقعي، فإنّ شخصية مثل شخصية "الإعليد" تبدو محفوفة بالرمز. رمز القائد الأعلى، صاحب الأمر والنهي إليه يعود القول الفصل وإليه فقط ترجع أمور الدولة. فهو نموذج يبلور نمطا من الحكم الفردي المطلق.

ويندسّ الرمز كذلك في موضعين آخرين، على الأقلّ، يبدوان جليّين للناظر لأنهما يندرجان ضمن خطاب العتبات أو النصوص الحافّة. أمّا الموضع الأوّل، فهو عنوان الرواية المحتلّ صفحة الغلاف الخارجية أو قل الواجهة الظاهرة للعيان. ومن المعلوم أنّ الكاتب عادة ما يتأنّى في اختيار العنوان ويحرص على أن يكون متلائما مع المتن بصورة أو بأخرى. و"النزيف" مثلما يتجلّى للناظر خطّت حروفه، أو طبعت، بلون أحمر قان لعلّه أن يلمح بالدرجة الأولى إلى لون الدم. وهو معطى شكليّ لافت يحفز على التساؤل ما إذا كنّا إزاء رؤية دموية؟

ويستدلّ من التعريف أو الحدّ اللغويّ لكلمة النزيف معنيان بارزان - دون الدخول في جزئيات عديدة -. أمّا المعنى الأوّل فهو نفاد الشيء ونهايته وفناؤه، يقال بكى حتى نزف دمعه، ونزفه الفزع أي أزال عقله، وبئر نزيف بمعنى قليلة الماء. وأمّا المعنى الثاني للنزيف فهو خروج دم غزير. (ابن منظور، لسان العرب، مادة نزف)

وتجدر الإشارة إلى أنه يوجد معنى رابط بين الأوّل والثاني، بين نزف بمعنى نفد وفني، ونزف بمعنى سال، ألا وهو الضعف في الحالتين معا. فكلّ نزيف مالي أو دمويّ تنجرّ عنه حالة وهن وضعف.

وما أكثر ما تستنزف الشخصيات في هذه الرواية، شخصيات منهكة هدّها العجز وقلّة ذات اليد. هدّتها الفوارق الاجتماعية، بل هدّها الجنون. ألا يمثل كلّ من خليفة وفاطمة نموذج الشخص المنزوف أو الشخص النزيف وهو الذاهب عقله.

وإلى ذلك يحسن التنبيه إلى أنّ لفظة النزيف لا نجد لها تنصيصا حرفيّا في متن الرواية، فإذا التطابق بين المتن والعنوان تطابق معنويّ بالأساس. فكيف تجسّم النزيف في الرواية؟

للإجابة عن ذلك تطالعنا النقاط المنتقاة التالية:

- الاغتصاب شكل من أشكال النزيف
- استنزاف طاقات الفقراء وجه من وجوه النزيف
- التلاعب بمصائر الشخصيات وتزويج عزيزة بعد الإطاحة بها وبعذريتها نوع من أنواع النزيف... والأمثلة عديدة.

وبسبب من تعدّدها، تفاقم الفساد وازداد الوضع تدهورا وتراكمت الأدران وانتشرت الروائح الكريهة، فإذا الأمر قد زاد على حدّه، فلم يكن مناص ولا مهرب من التطهير. هذا التطهير الذي وقع اختياره عمدا، كاختيار العنوان، وتمثل في الفقرة المنصوص عليها في الغلاف الخلفيّ وهي أيضا فقرة نهاية الرواية: "طال نزول مطر السوء بغزارة، سالت المياه من هضبة علية القوم بقوّة وملأت الساحات والمنتزهات والشوارع، والأنهج. عجزت القنوات على (كذا) احتوائه، ارتفعت مستويات المياه إلى ما فوق الأرصفة، وتسرّبت إلى البيوت فالمغازات، توقفت حركة المرور، واحتبس كلّ في مكانه، لقد انسدّت القنوات بشكل لا مثيل له رغم انحباس المطر، وبعد محاولات رجال المطافئ انخفض مستوى المياه، وعمّت كامل المدينة رائحة كريهة عفنة غير مألوفة، أفسدت حاسة الشمّ وكذلك حاسة الذوق بعدما أفسدت العمامة الزرقاء على العيون متعة النظر إلى ما فوق السحاب" (ص 264)

إنّ صورة نزول المطر صورة محمولة على الرمز شأنها شأن عنوان الرواية، وتبعا لذلك جائز القول إنّ رواية "النزيف"، وإن هيمن عليها الاتجاه الواقعيّ من خلال بساطة اللغة والحوار وتسمية الشخصيات وتجنب الوقائع الغريبة العجيبة، فإنّها، مثلما أسلفنا، لم تخل من بعض المقاطع والملامح الرمزيّة. والرمز هاهنا ليس هو من النمط الغامض المستغلق على الفهم. فالمطر رمز الثورة تأتي كالطوفان، والنظر صوب ما فوق السحاب رمز التوق إلى الحرية وتبديد ظلمة الحجب بحثا عن النور. إلا أنه رغم استخدام الرمز استخداما مستجادا، وقفنا على موضع بدا لنا فيه اسم الشخصية مكشوف الرمز إلى حدّ الإخلال بالجانب الفني، وآية ذلك ما ورد في الصفحة 25 عند قول الراوي مسميّا الشخصية وواصفا إياها: "خميس سلامة أسود ضمه حسن الهلالي لخدمته"، ففي هذه التسمية إشارة تكاد تكون علنيّة إلى الخميس الأسود عندما شهدت البلاد التونسية أحداث 3 جانفي 1978 الدموية.

وخلافا لهذا الرمز الذي بدا لنا شفافا يستصرف مشهد التحقيق في الصفحات الثلاث الأخيرة.. حيث يبدو الخطاب المعروض المباشر خاضعا لثنائية الظاهر والباطن، فالحديث في معناه القريب يدور حول قتل الكلاب الضالّة، بينما المقصد العميق منه هو التلميح إلى رمي المتظاهرين بالرّصاص. والملاحظ أنّ هذا المشهد الرمزيّ مهّد لكي تكون نهاية الرواية نهاية رمزيّة مفتوحة.

وفيما يتعلق بالشخصيات المسمّاة، لقد أحصينا ما يناهز خمسة وعشرين اسما، منها ما هو رئيسيّ يتكرّر ذكره، ومنها ما هو عابر وهو قليل. وغنيّ عن الذكر أنّ أسماء الشخصيات تضفي على القصّ واقعيّة، وتعتبر دوالّ تميّز بين هذه الشخصية وتلك يختارها المؤلّف ويجتهد في رسمها ونحتها حتّى تتحد لتكوّن عالمه الروائيّ، بل تغدو إذا قدّت صورتها على نحو جيّد بمثابة الأنموذج.

وفي رواية "النزيف" ميل واضح إلى تسمية الشخصيات الأساسية منها والثانوية، بيد أنّنا لم نتبيّن لم وقع غضّ الطرف عن أسماء أبناء السلطان الثلاثة على امتداد صفحات عديدة ثم يفاجئنا الراوي في أواخر الرواية بذكر أسماء هؤلاء الأبناء؟

وبناء على أنّ الشخصية ركن أساسيّ في العمل السرديّ يتشكّل بالتدريج فتظهر الشخصية القصصية بصورتها الكاملة مع نهاية الرواية، بالإمكان أن نتساءل من يكون بطل رواية "النزيف"؟ هل يجوز أن نعتبر عزيزة بطلة الرواية وهي لم تحتلّ من حيّزها النصيّ سوى جزء يسير؟ وهل نعتبر القصيرّ هو البطل لأنّ البداية ركّزت عليه وعلى أفراد عائلته؟ أم هل السلطان حسن الهلالي هو الأجدر بالبطولة لأنّه خاض صراعا ضدّ مجمل الشخصيات بدا في نهايته مخذولا؟ أم إنّ البطولة من الأولى إسنادها إلى الشخصية الجمعيّة التي تصدّت للقمع وأشعلت الحريق؟ أسئلة متاحة يثيرها نسيج السرد في هذه الرواية.

ولئن تعذّر ترشيح بطل بعينه، فإنّه يكمن طيّ ذلك دليل على أنّ هذه الرواية لا تنظر إلى مفهوم البطولة بمنظار تقليديّ مألوف. لا سيما أنّ النزيف آفة تعدّدت وجوهها ولم تشمل شخصا محدّدا وإنما جرف الطوفان كل شيء.

ولعلّ ذلك أن يقودنا إلى أن نلاحظ أنّ السرد لم يبن في رواية "النزيف" بناء عاديا بسيطا، وإنما صيغ على نحو يحتاج من القارئ بعض التدبّر. فاللافت للنظر أنّ الرواية تستهلّ بصيغة الفعل المضارع: "ينهض.. ينزل.. تكز تر ابنتها عزيزة..".. وتتواصل هذه الصيغة على امتداد ما يقرب خمس صفحات، ثمّ يهيمن إثر ذلك استعمال الماضي. فنستشفّ من هذا التبدل في أزمنة الأفعال أنّ الأحداث تنطلق من لحظة راهنة حيث الأب يشتغل عاملا بالبلديّة وحيث ابنته عزيزة تعمل خادمة في دار السلطان. ثمّ يعود بنا السرد إلى فترة سابقة عقب زواج هذه العائلة مباشرة. وبداية هذا الارتداد تطالعنا في أسفل الصفحة التاسعة.

لقد استعمل المضارع المرتبط بالراهن للدلالة على استمرار الأحداث وتكرّرها كلّ يوم، بينما استعمل الماضي ليوهمنا بواقعيّة الأحداث وبأنها قد حصلت فعلا وانقضت. وتأسيسا على ذلك، نقف على تقنية سرديّة تتمثّل في كسر الخطية الزمنية التقليديّة وانتهاج تقنية التداخل بين الأزمنة.

وبالإضافة إلى هذا نلاحظ توفر خصيصة أخرى نعلّها أن تكون مستقاة من مجال السينما، ونعني بها التنويع المشهديّ والانتقال بالسرد من فضاء إلى سواه دون سابق تمهيد ودون وضع علامات بصريّة كالأرقام مثلا أو النجوم الدالّة على هذه النقلة. ومثال ذلك ما ورد في الصفحة التاسعة فثمة مراوحة بين الحديث عن منزل السلطان وعشته من جهة، وعن مسكن القصيّر وأسرته من جهة أخرى.. وإنّ هذا التحوّل من فضاء قصصيّ إلى آخر يتمّ غالبا بطريقة تصدم القارئ فتحفزه على عقد مقارنات بين أجواء السرد وعوالمه المتنوّعة.

ومن الخصائص الفنية الأخرى في "النزيف" حضور ظاهرة التضمين القصصيّ بالركون إلى إدماج قصّة فرعية في قصّة أصليّة. وهو ضرب من البناء عريق ضارب في الخطاب السرديّ القديم، وقد وُظّف ههنا لإثراء ماضي الشخصية أو لتفسير سبب العلاقات الواشجة بين الشخصيات مثل علاقة السلطان بحسن بن العم النوري؛ فقد كان لهذا فضل عليه ومزايا ...

ولا مراء في أنّ رواية "النزيف" ترشح بالمقاطع الحوارية المشهدية بسبب من كثرة شخصياتها. وقد أتاح الحوار للشخصية الانعتاق من سلطة الراوي، فإذا هي تتحدث بنا في عالمها الخاص بخطاب تلقائيّ استبدل فيه ضمير الغائب بضمير المتكلّم إلى حين.

ويكشف الحوار عن نوازع الشخصية الداخلية فيكتمل رسمها حسّاً ومعنى. ومن ثمّ يجوز تصنيفها في القطب الذي تنتمي إليه. ولعلّه يكفي أن نسوق مثلا يتعلّق بشخصية الخضراء، فحين تكفلت بسرد قصتها على لسانها تجلّت لنا صورتها وتبيّنّا الظروف التي دفعت بها إلى احتراف البغاء.

ومن خلال الحوار أيضا نقف على موضوعين بارزين احتلاّ جزءا من الرواية هامّا، ونعني بهما الجنس والسياسة أو الإثارة والنقد. تقول إحدى الشخصيات المنتمية إلى جهاز السلطة: "الهلالي رغم سطوته وكلمته المسموعة فهو أقذر من القذارة ولا يجهل أحد بالمدينة خسّته" (ص118).

والحوار هاهنا يتوسل في مجمله بلغة مستساغة فصيحة تحاول أن تقترب من العامية وأن تتناسب مع المستوى الفكريّ للشخصية. ولعلّ أبرز أنموذج جسّم السعي إلى هذا التقارب نرصده في اللغة التي ينطق بها خليفة المعتوه إذ هي كلام متقطّع لا يخضع إلاّ لمنطق الجنون . فهو لا يعدو أن يكون شتائم متتالية تنمّ عن خلل ذهنيّ.

وعلى ذلك تجدر الإشارة إلى ملاحظتين تتعلقان بالحوار: أولا هذا التذبذب بين الفصحى والعامية إلى حدود الصفحة الثانية عشرة، ثمّ يغدو الحوار فصيحا ويقع التخلّي عن العامية تماما. وثانيا يطول أحيانا الحوار ويمتد من طرف واحد بينما يظلّ الطرف الآخر منصتا مستمعا لا يتدخل. فيبدو هذا التوزيع توزيعا تقليديا لمسنا حضوره في عدّة مواضع (ص ص 95، 108، 111، 122، 131، 175، 217، 240). وذلك خلافا للموضع النهائي حيث استخدم الحوار بطريقة فنية جيدة وزّع فيها الكلام بالتساوي بين الشخصيتين المتحاورتين، فكان حوارا حيويّا لا يثير سآمة القارئ.

إنّ العمل الروائيّ عموما نصّ أدبيّ فنّي بالدرجة الأولى وهو قد يحوي رسالات توثيقية لكنّه لا يتحوّل إلى نصّ تاريخيّ، وما من أحد ينكر أنّ جمالية القول وعمق الصورة وبلاغة التشبيه وأثر المجاز جوانب فاعلة وأساسيّة في بناء السرد. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا ليس ثمة رواية لا تعتورها نقيصة، وهو مبدأ عام لم تشذ عنه رواية "النزيف". فقد حاول الناصر التومي في بعض السياقات المعدودة أن يضفي على أسلوبها طابعا فنيا جماليا أخاذا كمثل قوله على لسان الراوي متحدثا عن شخصية "خضراء": " تلعن البدايات والظروف التي جعلت منها عاهرا لا يرد لها موقد" (ص 137)، أو قوله مصوّرا حالة "الشاذلي" "نقد ثمل بالحدث والغضب والحمرة، وواجهته الحيطان ورفوف الدفاتر بنفس الضيق والبرود والتكرار." (ص 180). ففي مثل هذه السياقات يرتقي النصّ في سلّم الأدبيّة. غير أنّ الغالب على الخطاب إجمالا هو تراجع الأدبية بهذا الجانب، فإذا الكلام أقرب إلى العادي المألوف، أبعد عن التوسل ببلاغة التشابيه وعمق الصور والمجازات. ولعلّ ذلك أن يكون اختيارا واعيا من لدن الكاتب استجابة منه

لمقتضيات الأسلوب الواقعي، وإن كان هذا الأسلوب لا يتنافى البتة مع أدبية الخطاب وحسنه.

ما من ريب في أنّ الرواية نصّ متّسع متشعّب المسالك يختلف عن حيّز الأقصوصة الضيّق، لذلك أتيح للناصر التومي في روايته "النزيف" أن يعالج قضايا متنوّعة. وإذا كان أبرزها يتصل بقضيّتي الجنس والسياسة، فإنّ مسائل مثل الفقر المدقع، والنزوح والبعد العقائدي، طفت على السطح وعبّر عنها تعبيرا فنيّا لا يقلّ قيمة عن القضية المركزيّة، ممّا جعل "النزيف" رواية فصولها حالات تلبّس طالما أنّ النجاة تتمّ عادة على حساب الآخرين.. ومن ثمّة شكّلت "النزيف" سباقا تهدر فيه قيمة الإنسان.

ويبدو من الجائز في خاتمة هذه الملاحظات أن نطرح سؤالا مفاده لمَ الرجوع إلى فترة ما قبل سنة 1987؟ هل يحجر على الروائيّ الخوض في القضايا الراهنة، فإذا به يرتدّ إلى الماضي منقّبا في وقائعه كي يستقي منها مادّته؟ ثمّ لمَ العود إلى أحداث جانفي 1978 بالذات؟ أفي ذلك حرص على تأريخ تلك المرحلة وتثبيتها في الذاكرة الجمعية، أم يكمن وراء هذا "التوثيق" مقصد ومرمى أو أخذ لعبرة ما؟

هواجس الهدم والتأسيس في: «مؤثرات شعرية» للشاعر سفيان رجب

صلاح الماجري

تمــهيــد :

يتميّز الكلام الشعري عن الكلام العادي في طريقة اختيار الكلام عبر إحداث إجراءات إيقاعية ولغوية وتصويرية، فالشعر هو فنّ إخراج المعاني مسرح التصوير ومن هذه الزاوية نقارب النصّ الشعري وبالتالي نقرأ "مؤثرات شعرية" لشاعر الشاب: سفيان رجب

فكيف تتجلّى جماليات اللغة وفنون الصورة من خلال "مؤثرات شعرية"؟ وماهي أسئلة الكتابة المطروحة؟

I ـ بنية الخطاب الشعري :

1) اللغة :

تتميّز اللغة في "مؤثرات شعرية" بالرمزية حيث لا تحمل معناها في ذاتها وإنّما خارجها

"شفق يتثاءب في الغسق
يسرق الورد من قمر مرهق"

فالغسق هنا رمز للزّمن الموحش، والورد رمز للأحلام، والقمر المرهق رمز لذات للشاعرة إذن، فنظام اللغة يخضع لعملية التفكيك الرمزي ـ Décodage ـ وبالتالي تصبح اللغة ذات أبعاد إيحائية تتعدد من خلالها الدلالات ونلاحظ أنّ الشاعر صرف جهدا كبيرا لخلق علاقات جديدة وغير مألوفة في صلب اللغة.

* "فرحت مع موسيقى الليل
*وتحط اسراب النجوم على يديه"

إنّ هذه العلاقات ـ غير العادية ـ تساهم في خلق عالم خيالي، وفضلا عن ذلك نلاحظ الإنحراف Ecart على مستوى التعبير، أي إستعمال مبدأ الإنزياح في اللغة مثل "يسقط ... في الأفق" فالسقوط يتمّ عادة من الأعلى إلى الأسفل ولكن السقوط في هذه الصورة يتمّ على النقيض ومن ثمّة خيانة أفق الانتظار وإحداث رجّة لدى المتقبل والبحث عن القول البكر.

2) الإيقاع :

لقد استعمل الشاعر إيقاعات مختلفة، فمرّ بتجربة لإيقاع العروضي الخاضع للتفعيلة والقافية ثمّ استعمل إيقاع الشعر الحرّ الخاضع لتفعيلة وتكسير البحور [illegible] نصرف الشاعر إلى إنتاج الكمّ الإيقاعي من خلال قصيدة النثر فاستعمل التّرديد الصوتي أي تكرار كلمات لتأكيد المعنى

* [illegible]
[illegible]

فضلا عن ذلك تمّ توظيف الجناس ـ الغير تام ـ "ويباغتني الوقت بالقلق والأرق" وتمّ كذلك استعمال القافية في الجملة الشعريّة، بحيث تنتهي بعض الجمل الشعريّة بقافية

* [illegible]
[illegible]

كما استعمل الشاعر الإيقاع البصري القائم على الرؤيه بالعين المجرّدة بحيث نلاحظ فراغات داخل الجملة الشعريّة. "يكون ماء لو أنّ ———— حريق
يكون شعرا لو أنّ ———— حجرا"

وفراغات بين الجملة والأخرى.

*" قال لي الخرامي
ـ اختر مثالا باسمك

أو ....

وحترت أمنيتي وحيد وقد

3) التشكيل النّصّي :

مرّ الشاعر بتجربة القصيدة العمودية، مفصولة الأبيات إلى صدور وأعجاز تتوزّع توزّعا محكوماً بنظام واضح، لكنّه سعى في المقدس إلى تحويل تلك الألفة بين البيت الشعري والآخر إلى تنافر دلالي إذ يغيّب أحيانا البيت كاملا ولا يحضر منه غير القافية.

تعانق ....

ترابطا ....

تعتق ....

واستطفا ....

إذ تصبح القافية هنا، ذات تشكيل جمالي أكثر منه إيقاعيا، كما نلاحظ أنّ الجملة الشعرية القصيرة هي التي تسيطر على "مؤثرات شعرية" نثرية كانت أو منظومة.

4) الصّورة الشعريّة :

تكتسي الصورة قيمة كبرى في فنّ الشعر وبما أنّ الصّورة معادلة فنيّة تخضع لعلاقة جامعة بين فرعين فالشاعر يذهب بعيدا في الجمع بين المتنافرات، والملاحظ أنّ "سفيان رجب" قد نزع في بعض نصوصه إلى إنشاء صور شعريّة خيالية، وغريبة

* " ذلك القوس الأزرق
الطالع من أفواه الجداول
هوى على كمنجة الروح
فأدهش الطفل بالقصيد"

* " سفناه رمل ومناديل وورود
وبعض من أناشيد
للعائدين من المنافي"

(نصّ صعل القمر - ص 81 - 83)

لكن المهمّ هو وعي الشاعر بأنّ الصّورة ليست مجرّد زخرفة أو زينة يتزيّن بها النصّ، بل هي عامل جوهري لتأسيسه ونعتبر الطبيعة مصدراً من مصادر تشكيل الصّورة لدى الشاعر في تعبيره عن تجربته الإنفعاليّة والفكريّة، وقد تقوم الصّورة لديه على المحسنات البيانيّة كالإستعارة والتشبيه وقد ترتقي إلى ما يسمّى بالإستعارة النّفسيّة حيث يقوم بعمليّة إسقاط Projection مشاعره على عناصر طبيعيّة إذ عبّر عن حالة التّيه والغربة واليأس بمنظر طبيعي يقوم على تثاؤب الشفق وسرقة الورد من القمر المرهق (قصيد : الشّفق) فضلا عن ذلك نلاحظ توظيف الشاعر لأساليب القصّ ولم يوسّع في دائرة الوصف حيث يقوم النّصّ على مبدأ الإقتصاد في الوصف بما أنّه يمثّل إضاءة بسيطة وخاطفة للموصوف أو ليس الإيجاز عنوان البلاغة»

كما يمارس الشاعر الخيانة على السّرد الشعري فالسّارد يقوم " بمراوغة فنيّة " حيث يبدأ بسرد الأفعال، ليأتي في النهاية ويهدّمها، وبالتالي ينشأ الخيال السردي وهذا يدلّ على لعبة فنيّة يستعملها الشاعر ليوهم المسرود له بتحقق الأفعال

* الواحدة صباحا أنام
الواحدة صباحا أكتب أساني القمرية
الواحدة صباحا أركض في الظلام
أصطاد نجمة بيضاء
وأضحك مكشرا (؟؟؟) للتوت البارد
الواحدة صباحا أجلس قليلا تحت الأرض
أعيد كتابة أساني القمرية
وأترقب بلادة الساعة الواحدة صباحا

النص : يوميات طفل قمري ص 97)

كما نتبيّن تواتر الزّمن الفلكي وهي وحدات زمنيّة مقيسة بمواقيت الليل والنّهار والمواسم والفصول. "في الصّباح" "في الليل" "في المساء" إلخ

إضافة إلى توظيف الزّمن الميقاتي وهي وحدات زمنيّة مقيسة بالساعة فالساعة دقة وضبط "الواحدة صباحا" "العاشرة صباحا" ...إلخ ومن هنا تتجلّى وظيفة الإلمام بالواقع وبالتالي تنطلي هذه الحيلة الفنيّة على المتقبّل فيقع فيما يسمّى "بالشرك" أو "الفخّ المرجعي" Prégé référentielle إضافة إلى محاولة إيقاف الزّمن كما سعى إلى توظيف الحوار بطريقة - محفيّة - كما يبدو ذلك في نصّ "موال مازح" ص 14 حوار بين الشاعر وأمه فيتجلّى الحوار كخطاب خفيّ ومكنى

- فيحقق هذا الخطاب مبدأ الإقتصاد اللغوي في النصّ

5) توظيف أساليب النّداء والإستفهام والخطاب المفترض والتّركيب الشرطي:

* ترى ماذا يحدث ؟

لو تخرج أظافر لينة من فراش وثير

وتخدش نجمة بعيدة

- سيسيل ضوء أبيض

تمتلئ كأس فارغة

وتجف عيون بنية من العطش

(نصّ: مؤثرات شعرية - ص: 112)

وبالتالي تقريب القصيدة إلى فنّ الخطابة بماهو فن للتوجيه والإقناع والحجاج بحيث يصبح الخطاب الشعري خطابا أيديولوجيا يحمل قضايا "ميتالغوية"

ومن خلال تحليل البنى لنصوص "سفيان رجب" نلاحظ ميل الشاعر إلى الإيجاز وهذه البنى تساهم في بناء النصّ وفي النهوض بوظائف دلالية ذاتية وجودية و"ميتا- لغوية

II. الـدلالــة:

1- الكتابة عن الذات : تتجلّى من خلال الكتابة عن الذات الشاعرة والذات الإنسانية

أ. الذات الشاعرة : تتميّز بحالات وجدانية خاصة ، حيث يبثّ الشاعر حالات الغربة والحزن والتيه.

* يا سماء أبرقي

مزّقي ظلمة الليل الكئيب

شرّديني همومي

أنا يا سماء غريب.

(نصّ : موال نازح- ص 15)

* شعر متعب

كيف يكتب؟

(نصّ سقوط - ص 16)

نلاحظ كثافة الشعور بالحزن "يتملكني الحزن" كما أنّ الذات الشاعرة يتملكها إحساس بالضعف فيلجأ إلى الصيغة "أنا يا سماء غريب"

وفي جانب آخر نلحظ تضخّم الأنا الشاعرة والشعور بالاستعلاء حيث تحضر الأنا حضورا مكثّفا في شكل واضح أو في شكل مقنّع [طفل القمر] ويصل الشاعر بأناه إلى درجة إحساسه بالألوهية

* الآن .. صرت إلاه

يمنح الخصب للسهول البيضاء (نصّ- منتهى الشفافية- ص 40)

ب- الذات الإنسانية : تتجلّى مثلا في علاقة الشاعر بالمرأة

- المرأة كحبيبة : تظهر في صورة المرأة المخادعة الكاذبة

* لا تبكها يا صاحبي ... واملك اخلاك الناحب

واطرب لها ولأنّها ... دوما متعة للكارب

لا يخدعنك دمعها ... فالدمع درع الكاذب

(نصّ لا تبكها ص 13)

لكنّه لا ينكر سقوطه في الخطيئة مع المرأة

* يا التي قاسمتني الخطيئة والتيه

يا التي قاسمتني الظمأ والخلود

أكل النساء

بين في الصدور جرار

ودورات مائية بين الافواه والينابيع

(نصّ : ما أثقل عطرك! ص 38)

تبدو علاقة غامضة قائمة على الشكّ

- المرأة كأمّ: تظهر في صورة المرأة الهادئة المكافحة

* تلك السيدة السمراء

اسمها تحفظه الأيام جيّدا

كانت تحصد سنابل من فرح الأيام الحالمة

حين همس لها الشفق - مساء الخير

عادت إلى بيتها الصغير

على كتفيا خبزة الأولاد

(نصّ: سمفونيات - ص 70)

2- الكتابة عن الوجود :

كثافة الإحساس بالزمن وجبروته، والشاعر لا يستطيع إيقاف الزّمن إلاّ بالشعر إذ يدور في سجن الزّمن ولا يقوى على مواجهته (مثال: قصيد "يوميات طفل قمري") فالزّمن

يدلّ على القدر بحيث يقف القدر كعائق أمام تحقيق الذات الفاعلة والمريدة بحيث أنّ القدر يسرق الأحلام:

" ويمسحني الوقت بالقلق والأرق"

" ثعلب يتعقّب في الغسق

يسرق الورد من قمر مرهق

(نص "الشفق" - ص 22)

كما نلاحظ حالات الصّراع بين الماضي والحاضر

* هرم القلب .. مات

وأنا لا أزال أتخبّط

في زحمة الذّكريات

(نص "عقدة الذكريات": ص 23)

- والصراع بين الشرّ والخير كما يرمز له الشاعر في مقطع قصير يمثّل إنقضاض النّسر على الحمامة البيضاء. وفي تخليد الحمامة إذ ترسمها طفلة صغيرة لوشمة النسر

- الوجود البشري هو وليد خطيئة وليد لذّة التقيا. محض نطفة"

- أنّ الإنسان كائن ضعيف وزائل

* لم تكن من جبابرة الكون

امتصت أريج زهرة

.. وعبرت للضفّة الأخرى من الجدول

(نص "الفراشة" - ص 88)

3) الكتابة عن الكتابة :

إنّ القصيدة تنهض بوظيفة ما وراء لغويّة إذ تصبح القصيدة موضوع القصيدة

* عندما يضيق الكون بالإكتساحات الليلية

تطلّ حبيبتي من وراء أسوار أصابعي

تمسك قلبي الزجاجة

تكسّره

وتحرّره

من عبوديّة الماء والحجر

(نص "اكتساحات ليلية" - ص 34)

- هدم البنى الشعريّة السائدة وبذلك يحاول الشاعر هدم النّموذج الذي استحال سلطانا متمكّنا في الذوات المبدعة " الشعر العربي قبل وبعد: أسئلة تجيب عن أسئلة"

محاولة البحث عن قصيدة أخرى تطرح أسئلة جديدة قصيدة ترفض الطمأنينة والسكينة فالشعر هو " فعل مشاغب" كما يقول الشاعر. والكتابة هي بناء عالم خيالي تسافر فيه اللغة إلى عوالم بعيدة " سنقول لغة موسيقى تسافر مع الضوء"

كما أنّ فعل الكتابة هو فعل إعادة تصوير للموجود لا محاكاة له والشاعر ليس مصورا فوتوغرافيا ينقل الأشياء كما هي إنما هو يعيد خلق الأشياء

* حين أرسم قمرا صغيرا له شكل " رغيف"

يضحك مني المصور العادي

ذلك الناقل للأشياء بآلته الأليكترونية

صور مكبّرة .. مصغرة .. مركّبة .. مشتتة .. لا تفرّ من الطبيعة

أنا أحبّ الفرار من الطبيعة حين أرسم قمرا صغيرا

(نص "الفرار من الطبيعة" - ص 106)

والكتابة هي تحرير الذات من المكبوتات، ففعل الكتابة هو فعل جنسي في (تصوّر) الشاعر إذ تصبح القصيدة ممارسة جنسيّة بين القلم والورقة.

* الورقة عارية تماما

جسدها الأبيض يصرخ بإغراء

والقلم يصعد وينزل

يتلذّذ .. يتلذّذ ..

وينسكب منه الحبر .. دافئا

(نص "المسرب الرسمية" - ص 74)

خاتمة :

لقد سعى الشاعر من خلال "مؤثرات شعرية" إلى بيان موقفه من الذات والوجود والكتابة حيث نجد الذات الممتزجة المسكونة بالألم والحزن المتخفية بالإستعلاء كما نجد الصّراعات الوجودية كالزمن والقدر ودعوة الشاعر إلى كتابة قصيدة مغايرة مسكونة بهواجس الهدم والبناء وكلّ هذه الدلالات تتحقّق من خلال الكين اللغوي والتّصويري ورموز لغوية تبثّ الحياة في النصّ، ومهما يكن فإنّ نصوص "سفيان رجب" هي نصوص تغري بالقراءة، لكن هل سيتجاوز ذاته ونصوصه في " ما ضاع من ذهب الأساطير"؟

بين واقعية المشهد وشعرية الحالة

قراءة في ديوان غبار الوقت لمحمد عمار شعابنية

كوثر خبيل

"لم يكن مجمل الخلق يعرف ذاك الفتى . سني كنت وحدي الذي اجهته / لاسائلكم عنه من اي افق اتى / لون عينيه يعزل وهما مخيف/ لولبي الاشارات مكتنزا كسحاب الخريف/ له في كل صقع رثاء/ للذي كان أو سكون

غبار الوقت ص 7.

ديوان "غبار الوقت" للشاعر محمد عمار شعابنية ينحو إلى كتابة سيرة ذاتية جمعية، سيرة للمجتمع والحضارة التي ينتمي إليها الشاعر، هي كتابة موتورة تأتي الزمن من أطرافه فهي بين الماضي التاريخي في حركته البطيئة والمستقبل المجهول في نسقه الجهمي وفي كليهما عذاب النفس وتمزقها

وبهذا نلاحظ ضمور الذات الفرد إلا في لحظات بعينها لحساب الذات الجماعية وذلك استجابة لذلك الصراع الذي تعيشه الكتابة الشعرية بين خصوصية الواقع من جهة وخصوصية الحالة من جهة أخرى

1. واقعية المشهد :

يتأسس النص على قلق اجتماعي وسياسي وحضاري فهو يعجّ بصور اجتماعية وشعرية وذهنية في ان فكأنه استعادات لتجارب معاشة ومعقولة ومحاولة لصياغتها في لغة تخرج عن الشعرية المحضة إلى واقعية الرؤية الشعرية وهنا يستوي الشعر مثقف محملا بإشكالات عصره المتحارجة عنه والتي يشترك فيها مع أبناء طبقته وحضارته، وهي تتلخص في جوانب أربعة تنتظم تدرجيا وتشمل علاقة المثقف وصراعه الداخلي بين المدينة والقرية ومرجعياتهما المختلفة، علاقة المثقف بالسياق الاجتماعي الذي ينتمي إليه، علاقة المثقف بالسياسي وأخيرا علاقة المثقف بالسياق الحضاري الذي ينتظم فيه

1- صراع المثقف بين المدينة والقرية :

إنّ المثقف القادم من القرية أو المدينة الداخلية يعاني نوعا من الصدام في داخله بين العاصمة ببناها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المركبة وبين المدينة التي أتى منها والتي تمثل في وجدانه قطبا للحنين ودليلا على الجذور، فتراه يحمل الواحدة في وجدانه في حين يتفاعل مع الأخرى واقعيا واجتماعيا وهذا ما يتوضح في شعر محمد عمار شعابنية في قصيدة غبار الوقت "أقول لمدينة ما عوّدتني / على حبها , وامضي إلى قرية عمّدتني/ بعشب تناثر في سهلها/ وأشهد أن القرى/ حين تحتلها مدن/ تضيّع شيئين من أهلها" ص 05، بل إنّه يذهب أبعد من ذلك فيقول "المدينة أضيق من أحرفي/ والمدينة غطت جنوب شمال / واحتفت وحدها بنشيد الوطن/ والحديد القديم أن بيني وبين المدينة يوما رتاج / يترصّدني / وأن أكره الانحناء" (سبارتاكوس ص44 . 45 . 43) فهذه العلاقة المتوترة تخلق مقاومة ليست بالغريبة وهي تظهر في الكتابة السردية مثلما تظهر في الكتابة الشعرية.

2- المثقف والمجتمع :

نلاحظ أصداء من كتاب السد لمحمود المسعدي تتراءى في أبيات الديوان في شق الاجتماعي يقول محمد عمارة شعابنية . "وأسمع في دمي صوتي , أنا بنّاء/ أشيدها القصور على/ نشيد الله للإنسان/ واحسبها الممالك بين أسطالي وملعقتي, وأعلن كدح مطرقتي/ ودستوري اعتيال الموت بالتعمير/ وجندي الماء والإسمنت/وفي برنامجي السكني أن أبني , لكل مواطن بيت/ وللظلام ما غنموا/ ضحيتهم إذا ماتوا/ وأغوال إذا حكموا/ لهم ما ينتج الفلاّح والملاّح والكدّاح , وأثواب الحداد وزينة الأفراح (ص 9 تمتمات على عظام سمّار). ولا نحسب هذا من الشعر الاجتماعي بقدر ما هو انفجار يطفو

على السطح زهورا سوداء فوق بركه من الدم تستعيد بماضي في الحاضر والحاضر سراب ماحل

3ـ المثقف السياسي :

يسعى المثقف إلى خلق علاقة متخيلة يتوحد فيها المثقف والسياسي بيضيف كل منهما رؤية الآخر إلى رؤيته ولكن العلاقة التاريخية بين الاثنين لا تزال تحتر رواسبها فتتحلى في الأبيات التالية :"وكان الملوك/إذا سمعوا هسهست المصر, توشوش فوق السطوح/ يظنون أن الضجيج نتشر, فيستنفرون الغفر/ إلى أن يزول الخطر, وما من خطر/ سوى أن عصفورة بائسة/ تلاطم في وكرها الماء أو/ تدحرج من عشها بيضها فانكسر/ وإذ يستبد السكون/ بكل البيوت/ وتقفر من سالكيها الشوارع/وتحرس بعد المساء لمصنع/كن المدائن تدخل في حيرة الوقت أو/انها تشتهي أن تموت / يبيت السلاطين في أرق, يشاؤون أن يفتحوا فعقم الصمت (ص 58 59 الملوك يهجون الشعراء) ولكن الشاعر يعرف في لحظات الخيبة والانكسار أن فعله كلام وليس من الكلام من خوف إذا كان المتكلم محبا أو كان السامع لا يقرأ "ولا خوف مني على من أحب/ ومن لا أحب إذا قلت إن امهالك من ورق/ وحراسها من خشب" (ص 13 عبر الوقت)

4ـ المثقف والحضارة :

يتخذ المنحى الحضاري أبعادا واسعة بالنسبة للشاعر ونلحظ شيئ من التناص مع شعر محمود درويش من جهة دلالة الزمان والمكان على الإنسان فالوطن لا يقتصر فقط على معنى البلد حيث يقول الشاعر :"إنني أتسلق أغصان قلبي لعلّي/ أعلق شكلي/ على ذرّة من تراب البلد" (ص 15 تنزلات مشعل ابن ابي كدح) بل يشمل الانتماء البربري "ورمرا الذي لا تفارق خيمتها/تخبئ أسرارها البربرية/ وتخفي مواويلها في كهوف الجبل/ وتحثو عليها تراب السكينة/ كي لا يردّد يوما صداها, سوى فارس يتباهى بأمجاد جدّته الكاهنة (زمرا ص66 ـ 67) ولكن جمال الصورة لا يخفي خلفية المشهد ففي قصيدة "القبيلة" يلخص الشاعر موروث بعيدا "ليعلن أن شكل العالم المنشود نثر هباء / وإن يدا إذا قطعت/ تشل بقية الأعضاء,وللأتعاب/ طريق وعرة وطريق/ وطعم حريق/ بفرعرمة تبقى من دم الأعراب/ فتنتشر القبائل في طريق رخوة كالطين تكابد سيرها, تمشي/ على حلي مدار فارغ

وجنون/ وللشعراء ما يرثون/ وما يرثون/ من الشجر الموزّع في الأناشيد/ وسعة يستتب الصمت/ يمنّون القصائد بالمواعيد, ولا ميعاد في أفق سكون ولا معنى بتأويل السكون/ سوى أن القوافل في انحراف/ وما انحرفت إلى مسرى يقين" (ص 54 ـ 55) فالمشهد غارق في الغبار ينزف دماء حارة تحت الرمال فلا يستوى المكن إلاّ منفى ولا يستوي الزمان إلا حركة عبثية دائرية الهزائم

II ـ شعرية الحالة :

يضجّ النص بإشارات وحودية تدل على عجز الشاعر عن التموضع في واقعه وتتعدد أشكال اغترابه فتكشف كتابته عن كسور في داخل النص نابعة من الحركة الشعرية ولكن الاشتغال اللغوي يغلفها بشكل واضح ويلبس التكثيف الغربة الزمنية والمكانية التي تتحول إلى اغتراب في اللغه

يتأسس مفهوم الغربة الزمنية على التكسّر في المستوى الوعي الحاصل بالذات في تاريخها وفي حاضرها ولعل تسمية الديوان في حدّ ذاتها تحيلنا على هذا الشرخ الحضاري في مفهوم الزمن فتحول الوقت إلى غبار يثير مرجعيات ثلاثا هي مفهوم الصحراء (الماضي "المجيد")، مفهوم العبث واللامعنى واللاّ جدوى (الحاضر) وأخيرا يشير إلى احتجاب الرؤية بالنسبة للمستقبل وهو يثير معنى أن الوقت تحول إلى مرجس دموي يعيد تاريخ الهزائم والحروب والفتن بلانهاية : "دم يشرب الوقت, والوقت نافورة من غبار" ص 50. فكأنّ النافورة تتشرب الدم لتفيض به في حركاتها الدائرية الأبدية" و"لا أحد/يكتري اليوم مني/ حرابات وقت جريح/ يحاصرني بالخواء" 48/49 فالوقت هو مدة حياة ويستقيم بها ما تستقيم به من معاني إثبات الذات والمشاركة وإلا تكون متعا مسيا تلوكه آلة الزمن وتلفظه لأننا لا نستجيب لمقاييسه وإيقاعها وإن لم يعد الماضي الحالم بأيدينا لأنه مرّ وانقضى ولأن شروطنا الحاضرة لم نساهم في صنعه فإننا أعجز وأعجز عن صنع حاضرنا ومستقبلنا فتنضاف إلى غربة الزمان غربة المكان ويصير مفهوم الوطن مرتبطا بتقبل الإبداع واحترام حرية الإنسان وحقوقه في المواطنة" وإذا انفجر, أسمّي التراب الذي ليس لي فيه ظلّ حجر / كما لا اسمي بلادا بلاد إذا لم تكن خبزة الله فيها/ طعاما لكل البشر" (ص 49 عبر الوقت) فهذه الثورة المحتدمة تنبني على رغبة في إعادة قراءة الموروث وإبعاد شبح الله الذي نبرر من خلاله ضعفنا

ومسـاءلة للرؤية الدينية التي تبرر كل الممارسات التي تجعل من الحرية الفردية والحقوق البديهية الناتجة عن الإنسانية والمواطنة هدفا لها. ولا ننكر التكثيف المركز في الديوان على صورة الله في الرؤية الاجتماعية والالتقاطات المرئية التي يحاول الشاعر من خلالها "عقلنة" هذا المفهوم وإعطاءه مساحة أكبر بالإرادة البشرية، بل إنه يدعو إلى تنصيب الشاعر مكان أصحاب الرسالات السماوية "رحمك واسع كالكون لا يقوى على تدوينه الجسد / فخذ من دفتري حرفا يخلص صوتك المغلول بالهذيان / وحدد نقطة بين التراب وقلبك المسكوب / واخلع نعلك الملعون / وسر فوق ازرقاق النار / هويتك الشقاء وقطرة العرق" ولأن الشاعر والنبي كلاهما يبشران قيم القانون الطبيعي التي تقوم على احترام الإنسان ونشر قيم الخير والجمال والسلام يقول ص 22/21 وفي هذه الاختبارات المذكورة ارتباط بمصير الأنبياء

ويواصل الشاعر "تطهير" الوعي الجماعي مما يكبله من الموروثات الجاهلة "لأن الله مسؤول عن الدنيا / ولكن ليس مسؤولا عن الدول" (ص 12 نمنمات على عظم سنمار) فيدعو مواطنيه إلى قهر الجوع والجهل والفقر والانتساب إلى "أفق إنسي" (ص13) لا أن يظلوا زورقا ضعيفا في قبضة الرياح تحمله يمنة ويسرة دون قدرة على صنع أقدارهم وهنا يخرج الشاعر من حبس الغربة إلى سماء الحرية فالحالة الشعرية هي لحظة التحقق الوحيدة في هذا الحاضر العدمي : "فحرفي ما كان يوما طعاما / وقراء شعري ليسوا قططا / لذا سوف أدخل حقل الكتابة / وأجعل حبري زادا وفكري سحابة / وأثبت للناس أن القصيد / إذا جاع يأكل حتى مقص الرقابة" (ص 47 غبار الوقت) فالشعر هو لحظة التحرر، تحرر الفكر والروح، تحرير الوعي وصياغة الإنسان المعاصر الذي لم يحث عليه الماضي أتربته "لأن الكتابة تفلت من قبضة المقصلة / فإن حوصرت تنفجر / وإن عوقبت تنتشر / وإن صودرت تشتهر / وتفتح أبوابها المقفلة / لكل العصافير والسابلة" ص 60. وبهذا يبقى الشعر خطابا حينيا مهما أضفت عليه الجمالية من احتمالات البقاء، فالشاعر يتلبس باللحظة الحاضرة يسبقها ولا تسبقه وهو الذي يحول الإنسان من مرتبة الرائي إلى مرتبة المرئي ويعطيه سلطة الذاكرة بالنسبة للماضي وقدرة الاستشراف لمستقبل حضرته

يمثل شعر محمد عمار شعابنية فاصلة مهمة من جهة قدرته على صياغة الواقع باضطراباته وجراحاته في لغة شعرية تمثل فيها الكتابة شكلا من أشكال الوجود "ومدت إذن / وبين أصابعي شهوة / تؤرقني.. / وداعبني مصباء الله فامتدت رؤوس أصابعي تستقطف الأقمار" ص 6 - 7 فلا يعد والقلم أن يكون امتدادا طبيعيا للأصابع تتحقق من خلاله شروط البقاء في عصرنا الحاضر

مكتبة الحياة الثقافية

تقديم ع.م.ر

"الشعر التونسي المعاصر"
لخالد الغريبي

جديد الناقد و الباحث الجامعي خالد الغريبي كتاب بعنوان "الشعر التونسي المعاصر بين التجريب والتشكل" وقد صدر له قبله كتابان هما: "جدلية الأصالة والمعاصرة في أدب المسعدي" دار صامد ـ صفاقس 1994 و"التنافر و الوحدة في رواية المستنقع لحنا مينه" ـ منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق 1995

يقول في تقديم كتابه :(هذا الكتاب مجموعة من المقالات يدور أغلبها حول موضوع أساسي هو الشعر التونسي في لعبة تجريبه وتشكله وهو الخيط الناظم منهجيا لمختلف هذه البحوث مهما تنوّعت زوايا القراءة)

ويقول :(.. ومهما يكن من أمر حضور النقد في بلادنا وأمر مدى اهتمام هذا النقد بالأدب التونسي وأمر مدى فاعليته فنحن في حاجة إلى عناية الباحثين الجادين بالأدب التونسي وفي حاجة إلى تنوع مقارباتهم وفي حاجة إلى تجديد الرؤى ولا يتحقق هذا التراكم بزائفه وأصيله إلا اذا تركنا الباحث حرا في اختيار نصوصه ومنهج مقاربته وأسلوب كتابته وقد يعيب البعض على النقد الأدبي في تونس ميله إلى الدرس الإخواني وغياب الأحكام الحازمة والغربلة الممحصة للنصوص وغلبة الدراسات الوصفية أو العلمية والصارمة وهي عيوب لا شك أن بعضها قائم في الدراسات النقدية العربية والعالمية. الخ)

أما فصول الكتاب فهي : مسار الشعر التونسي بين التجريب والتشكل / التجريب وأفق التحوز في الكتابة الشعرية التونسية المعاصرة/ من خصائص الشكل والدلالة في الشعر التونسي الجديد/ شعرية الفضاء في "ميتافيزيقا وردة الرمل" للمنصف الوهيبي, عالم الصورة وصورة العلم في كتابة العمى, الغنائي والدرامي في "كن زهرة وغن" لمحمد البقلوطي/ السردي والغنائي في الشعر التونسي الحديث / الشعر والمعنى : مقاربة تحليلية لنصين من الشعر التونسي/ ثمّ هناك ملحق بتراجم الشعراء الذين توقف عندهم في دراسته هذه وهم - أولاد أحمد / محمد البقلوطي نزار شقرون فوزية العلوي جميلة الماجري / منصف المزغني الطاهر الهمامي والمنصف الوهيبي

قارئ هذا الكتاب يتوقف عند العناية الخاصة التي منحها الباحث للشاعر الراحل محمد البقلوطي حيث كرّس له فصلين الأول : عالم الصورة وصورة العلم في "كتاب العمى" مدونة الشاعر محمد البقلوطي منطلقا/ وقد جاء هذا الفصل في (30) صفحة من القطع الكبير وحجم الفصل فيه دليل على طول نفس الباحث في التعامل مع عمى الشاعر البقلوطي وعلاقته الفعلية بشعره والفصل الثاني مكرس لأحد دواوينه وعنوانه (الغنائي والدرامي في "كن زهرة وغن" لمحمد البقلوطي)

والشاعر الثاني بعد البقلوطي الذي خصّه بفصل كامل الشاعر منصف الوهايبي وهو فصل قرأ فيه ديوانه "ميتافيزيقا وردة الرمل" وفي مدخله يقول: (يبدو لي ان دراسة مسألة الفضاء في شعر الوهايبي تكتسي أهمية بالغة في الدرس النقدي الحديث فالظاهرة لا تقتصر على

اثر من آثاره أو نصّ معلوم من نصوصه وإنما الفضاء في شعره نسق يتكامل ويتنوّع من داخل النص ومن خارجه وهو صدى لمسار تجربة الشاعر من الواقعي إلى الصوفي إلى التاريخي الأركيولوجي حفرا في أسماء المدن الى مدار تجريب اللغة في العناصر والأشياء والأمكنة والكائنات كما يلوح ذلك في " ميتافيزيقا وردة الرمل ") ويقول أيضا :(وخيرا في دراسة هذا الأثر مأتاها كثافة حضور الفضاء بتنوّع مجالاته ودلالاته بين نصوص الشعر التي يتحرر فيها الوهايبي من القصيدة العمودية والنص النثري الذي يرشح بشعرية الأمكنة وطقوس القصائد في هيئة من التداعي والتجلي أبرز سماتها الاشتغال على الألوان والمساحة واللغة الاستعادية وتقنية السؤال والتماثل والضدية بين العناصر الميتافيزيقية في وردة الرمل الخ)

تأتي أهمية هذا الكتاب من كونه يدرس التجربة الشعرية التونسية الحديثة الضجة بالأسماء والدواوين والمفتقرة للدراسات النقدية التي تتابعها وربما يشكل حفزا لنقاد آخرين يستكملون دراساتهم خاصة بالنسبة للتجارب الأحدث في الكتابة الشعرية.

يقع الكتاب في 206 صفحة من القطع الكبير منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس. طبع في دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع ـ صفاقس 2005

"سردين وليمون"
قصص من شمال أفريقيا والسودان مترجمة من العربية الى الانكليزية

من منشورات مجلة بانيبال المعنية بترجمة الأدب العربي الى اللغة الانكليزية وفي سلسلة" كتاب بانيبال" صدرت مجموعة من القصص العربية مترجمة إلى اللغة الانكليزية وأنجزها عدد من المستعربين وأساتذة اللغة الانكليزية من العرب المقيمين في أمريكا وأوروبا عنوان المجموعة " سردين وليمون" والقصص التي نشرت فيها لكتاب من الجزائر ومصر والمغرب والسودان وتونس.

كتب المقدمة المترجم والباحث بيتر كلارك أما القصاصون التونسيون الذين نشرت المجلة قصصهم فهم كل من : رشيدة الشارني حسونة المصباحي، حسن نصر، علي مصباح، حبيب السالمي

ومن المغرب هناك نصوص للقصاصين ربيعة ريحان، محمد زفزاف، عز الدين التازي، محمد شكري، لطيفة باقا، ادريس الخوري، أحمد بوزفور، أحمد المديني

ومن مصر ضم الكتاب قصصا لكل من: محمد مستجاب، جمال الغيطاني، سعيد الكفراوي، صبري موسى، منصورة عز الدين

ومن الجزائر محمد ديب أما من السودان فقد اختيرت نصوص لكل من الطيب صالح وطارق الطيب المقيم في النمسا

وفي الكتاب ملاحق عن الترجمة هذه وتعاريف بالكتّاب الذين ترجمت قصصهم

صدر الكتاب في لندن حيث تصدر مجلة " بانيبال" الفصلية سنة 2005 وعنوان الكتاب مأخوذ من قصة للكاتب المغربي الراحل محمد زفزاف

أما حجم الكتاب فهو 222 صفحة من القطع المتوسط.

عدد القصاصين المترجم لهم (22) قصاصا ، ويلاحظ غلبة الأسماء الرجالية (18)إسما في حين اختيرت قصص لأربع كاتبات فقط، اثنتان من المغرب (ربيعة ريحان ولطيفة باقا) وواحدة من تونس (رشيدة الشارني) وواحدة من مصر (منصورة عز الدين)

هذا الكتاب اسهامة مهمة للتعريف بالقصة العربية القصيرة للقراء الذين يقراون باللغة الانكليزية.

" البغدادية"
لسعيد الكفراوي(مصر)

أحدث اصدارات القاص المصري سعيد الكفراوي مجموعة قصصية بعنوان " البغدادية " و الكفراوي من القلائل الذين لم يكتبوا إلا القصة القصيرة، ولم يغادروها الى الرواية شأنه شأن الكاتب الرائد يوسف الشاروني (مصر) والكاتب زكريا تامر(سوريا) وكتاب اخرين

تضمّ المجموعة الجديدة تسع قصص قصيرة، أولاها قصة "البغدادية" التي أطلق اسمها على المجموعة كاملة والقصة هذه تعدّ من النصوص الاستثنائية في تقديرنا التي

كتبها أدباء عرب عن محنة الانسان العراقي التي هي محنة كل انسان عربي يحس بما آل إليه حال بلد من أكبر البلدان العربية

أحداث هذه القصة تعود إلى عام 1991 عندما تعرّف بطلها الأديب المصري الذي كان في زيارة ثقافية لبغداد على أديبة عراقية. دعته إلى منزلها الكبير الذي ورثته عن عائلتها الموسرة، وتعرّف على صديقاتها وأسرتها

وتمر سنوات ويعيش العراق الحصار وما فعله بالناس وفي لقاء ثقافي بالقاهرة وبعد انتهاء هذا اللقاء يكتشف الأديب المصري وجود الأديبة العراقية في اللقاء لكنه لم يعرفها للمرة الأولى فقد غيّرتها السنوات. وتسأله إن كان يتذكرها أم لا؟ وبعد صمت يتذكرها وكان اسمها "نرمين"

ويخرجان معا من اللقاء الثقافي إلى شوارع القاهرة ويعرف أنها قد هاجرت بسبب الحصار إلى أمريكا لتقيم مع أختها ورغم مرور عدة سنوات على إقامتها فيها إلا أنها لم تستطع أن تقيم علاقة صداقة حتى مع جيرانها عدا جارها العجوز الذي يجلس في الحديقة العامة القريبة يكلم نفسه بعد أن تطرده زوجته الشابة اذا عاد سكر واعتاد عليه خلوتها مع عشيقها

وعلاقتها بهذا العجوز عابرة اذ أنه وهو المغلوب المطرود من بيته وفراشه يتعامل معها باستعلاء عرقي

وكان ملاذها الوحيد الذهاب للمسجد كل يوم جمعة لتلتقي ببعض العرب والمسلمين الذين يؤمونه

يعرف الأديب المصري أن " نرمين " قد تقدمت بطلب الحصول على الجنسيّة الأمريكيّة وأن الموافقة قد تمت على ذلك.

في القاهرة تقيم نرمين في فندق بسيط ولكنه هادئ وجل المقيمين فيه من السياح الأمريكان والأوروبيين.

ويأخذها الأديب المصري الى قريته العربية من القاهرة وهناك يحتفي بها أهل القرية الأمر الذي لم تعرفه في سنواتها الأمريكية حيث كل انسان جزيرة تسبح في بحرها وحدها.

ثم تمر بمقبرة العرية وتطلب منه أن تزورها وتقرأ الفاتحة على أقرب قبر صادفته وهي تردد ولا تدري نفس بأى أرض تموت

ينتبه الأديب إلى أن زميلته ليست على ما يرام صحيا وأنها في طريق عودتها من القرية قد بدا عليه الأعياء الذي تحول إلى ما يشبه الأعماء وحاولت أن تسعف نفسها ببعض الحبوب. وعندما وصلت رآها وهي تترنح في صعود السلالم وتستند إلى الجدار فلحق بها لتعترف له بأنها تعاني من متاعب في قلبها لذا يترك اسمه ورقم هاتفه لدى الاستقبال ليتصلوا به إن حصل لها شيء

وعندما اتصل في اليوم التالي علم بأنها قد فارقت الحياة فأسرع الى الفندق وهو لا يعرف ماذا سيفعل؟

هنا ينقلنا الكاتب الى ذروة المأساة العراقيّة المتجسدة في " نرمين " إذ هو لا يعرف ان كانت أمريكيّة؟ أم عراقيّة؟ وإلى أيّ سفارة من السفارتين يذهب ليخبرها بوفاة مواطنة من مواطناتها

يبدأ بالسفارة العراقيّة ويأتيه الرد الصاعق بأن من الصعب نقلها للعراق لتدفن هناك

فالطائرات لا تصل إلا إلى عمان فقط ومن ثم يأتي الطريق البري الذي يستغرق قطعه أكثر من عشرين ساعة عمدا سيحصل

وطلبوا منه أن يدفنها في مصر لكنه ينقل لنا صورة مثيرة عن عالم السفارة والموظفين وتشبّههم برئيسهم في لباسهم وحركاتهم وشواربهم حتى بدوا وكأنهم نسخ منه تتحرك

بعد السفارة العراقيّة يذهب إلى السفارة الأمريكيّة التي ينقل لنا منها صورة أكثر قتامة وريبة حتى وصل إلى المسؤول الذي شك أولا بطريقة موتها، وإن كانت قد ماتت فعلا في نوبة قلبيّة وشكك بتقرير الطبيب المصري الذي عاين جثتها

ثم سأله ان كان متأكدا بأنها مواطنة أمريكيّة فأخبره بأنها ذكرت له بأن الموافقة قد صدرت بمنحها الجنسية ولكن هل أخذتها؟ أم لا؟ هذا مالم يتأكد منه

ويطلب منه الموظف اسمها الكامل ويضربه على الحاسوب أمامه فتأتيه معلومة بأن الموافقة قد حصلت فعلا لكنها لم تتسلّمها ولهذا لا تعتبر مواطنة أمريكيّة بل انها مازالت عراقيّة

وهكذا يخرج حائرا ولا يدري ماذا يفعل؟ وفجأة جاءته فكرة وهي: لماذا لا يدفنها في قريته وفي المقبرة نفسها التي زارتها يوم أمس وقرأت الفاتحة على أحد قبورها وهي تردد: ولا تدري نفس بأي أرض تموت.

وهرع ليهاتف أخاه وحمل الجثمان في سيارته ومضى الى هناك. وما فاجأه أنه مقابل الجفاء والبرود اللذين قوبل بهما في سفارتي العراق وأمريكا وجد الوجه الآخر للتضامن الإنساني والنقاء وقد تمثل في أهل القرية الذين خرجوا جميعهم الى الطريق لاستقبال الجثمان الذي كانت صاحبته ضيفة عليهم يوم أمس. وأقاموا لها مأتما كبيرا. هنا لا ندري ان كان سعيد الكفراوي قد استعان بحالة حصلت؟ أم أنه ركّب فصول المأساة وحمّلها لهذه الباشة "نرمين" التي لا تدري بأن رحلتها إلى القاهرة ستكون الأخيرة وأن جسدها سيوارى فيها.

هذه القصة مكتوبة بإتقان كبير وهو ما اعتدناه في قصص هذا الكاتب المتميّز الذي بدأ الكتابة مبكرا ومتأنيا لينجز لنا عددا من المجموعات الرائدة التي سجلته مع كتاب الصف الأول في مصر شأنه شأن صبري موسى والغيطاني والبساطي والقعيد والشاروني والخراط وبهاء طاهر وأسماء أخرى.

صدرت المجموعة ضمن مهرجان القراءة للجميع - مكتبة الأسرة - سلسلة (الأعمال الإبداعيّة) سنة 2004 - وفي 136 صفحة من القطع المتوسط طبع بمطابع الهيئة المصريّة العامة للكتاب.

"باب الفلّة"
لحسنين بن عمّو

يواصل الكاتب حسنين بن عمّو مشروعه الكتابي في استلهام تفاصيل الحياة في مدينة تونس العتيقة وما كانت عليه والعلاقات الإنسانيّة مستخرجا من ذلك الماضي شخصيات لها قدر من الواقعيّة ان لم تكن واقعيّة فعلا ولكنه خياله تحكّم فيها لتحقق قراءتها المتعة والفائدة الغايتين اللتين يرجوهما الكثير من الكتّاب.

وروايته الجديدة التي بثّت في مسلسل اذاعي قبل نشرها في كتاب يحمل اسم "باب الفلّة" وهو اسم أحد أبواب مدينة تونس العتيقة ويعود بنا فيها الى ما يقارب الخمسمائة عام الى الوراء (1568م).

و" باب الفلّة" كما يعرفه المؤلف هو (باب التشرد والضياع، باب الهروب إلى الخلاء منه هرب أهالي مدينة تونس أفواجا متلاطمة تاركين الغالي والنفيس يوم هجم عليهم الإسبان بغتة سنة 1573م).

ونشير إلى أن بن عمّو سبق له أن نشر روايتين لهما التوجه الكتابي نفسه الذي سجله في " باب الفلّة" الثالثة في سلسلة إصداراته وقد سمّى رواياته الثلاث هذه بالثلاثية وهي: (باب العلوج، رحمانة، و باب الفلة).

ذكرنا ذات مرة في تعريفنا بأحد أعماله بأنه كاتب مشبّع بالروح الشعبيّة مستلهم لها ومن حسن حظه أن المعالم العمرانيّة والمسميات التونسيّة لم تندثر - كما يحصل في مدن عربيّة أخرى - بل احتفظت ببهائها وبأسمائها التي كانت ولذا فإنّ جهده ينصبّ على البحث عن الناس الذين نبضوا حياة في الشوارع والأنهج الماثلة.

وبن عمّو يذكّرنا بالمرحوم عبد العزيز العروي مع الاختلاف فكلاهما حكّاء من طراز فريد، وان كان العروي قد شده الناس بحكاياته التي يرويها بصوته اذاعيا وتلفزيّا فإن بن عمو حكّاء على الورق ولم يبق له إلا أن يرفع صوته قارئا حكاياته.

وهناك اختلاف آخر بين العروي وبن عمو هو قدرة الثاني على الإطالة ونفسه ممتدّ بدليل ان روايته هذه "باب الفلّة" قد امتدت على 360 صفحة من القطع المتوسط وبحروف صغيرة.

ولغة بن عمو في روايته هذه قد تطورت كثيرا لتتحول إلى لغة سرد حداثي سلس المسار مثل قوله: (لم يكد يتقدم خطوات أخرى مضنية حتى ترامى الى مسمعه وقع حوافر جياد تقترب من مكانه فتوقف والتفت الى الوراء فرأى خيال أربعة فرسان يركضون شاقين ستار المطر المتواصل فاختفى وراء أكمة صغيرة ثم اتجه نحو صخرة كبيرة للاحتماء بها حتى تعبر الكوكبة، لكن الفرسان سرعان ما وصلوا ناحيته وتوقفوا حول العربة وترجّل أحدهم وأخذ يحوم حولها بحذر شديد ثم أصدر أمرا إلى رفاقه: ابحثوا عنه وهاتوه حالا).

ومن المؤكد جدا أن كتابة رواية من هذا الطراز عمل

متعب ومضن اذ أن الكاتب بحاجة إلى المصادر والمراجع وقراءة ما كتب و علق بالذاكرات المتوارثة من حكايا وأخبار حتى الشفاهي منها وغير المدون.

وبن عمو في كتاباته هذه يحقق التنوع للرواية التونسيّة.

نشرت الرواية على حساب مؤلفها إذ ليست هناك اشارة لناشر معين وتم طبعا بالمطابع الموحدة - تونس 2005.

" أحمد المجاطي شاعر المغرب" لمجموعة من الباحثين المغاربة

يعتبر الشاعر الراحل أحمد المجاطي أحد أهم الأصوات الشعريّة التي جددت القصيدة العربيّة في المغرب الأقصى، وهو أيضا من الرعيل الأول لأساتذة الأدب الحديث في الجامعة المغربيّة.

حصل على الإجازة من كليّة الآداب بجامعة دمشق عام 1962 وحصل من كلية الآداب بالرباط على دبلوم الدراسات العليا سنة 1971 وعنوان رسالته " ظاهرة الشعر الحديث" ثم ناقش عام 1992 أطروحته التي حصل بها على درجة الدكتوراه المعنونة " أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث" وقد صدرت في كتاب عام 1993 من منشورات دار الآفاق الجديدة - الرباط.

ديوانه الشهير والوحيد عنوانه " الفروسيّة" الذي يعد العمل الشعري الأساسي في حداثة الشعر المغربي وقد صدر في طبعتين.

ولد المجاطي بالدار البيضاء عام 1936 وتوفي بالرباط عام 1995.

وقد صدر أخيرا كتاب تكريمي ضم وقائع ندوة علميّة في موضوع "الشعر المغربي في زمن الفروسيّة" مهداة إلى روح المجاطي ويحتفي به شاعرا وإنسانا ويقع في قسمين ضم الأول مجموعة دراسات والثاني مجموعة شهادات، وقد عنت بنشر هذا الكتاب رابطة أدباء المغرب.

يكتب رئيس الرابطة د. أحمد المديني مدخلا للكتاب مما قال فيه :(حين انطلقت تجربة الشعر الجديد في المشرق العربي في نهاية الأربعينات ومستهل الخمسينات من القرن الماضي تجاوبت أصداؤها في أرجاء الوطن العربي ولاحت تباشيرها في المغرب الأقصى. وقد ساعد على انتشار التجربة والتعاطف مع روادها التواصل الذي تحقق في تلك الفترة بين شرق البلاد العربيّة ومغربها بفضل عدة قنوات منها الصحف والمجلات والكتب ومنها البعثات العلميّة التي انتقلت من المغرب إلى سوريا والعراق ومصر، وكانت مجموعة من شعراء المغرب من الذين قيض لهم المشاركة في تلك البعثات ومن ثم التواصل مباشرة بمصادر التجربة الشعريّة الفنيّة وبروادها وعشاقها).

ويقول د. المديني :(ولعل الشاعرين أحمد المجاطي ومحمد السرغيني من أبرز هؤلاء الذين كان لهم حظ الإقامة في الشام والعراق. وقد تجلّى تأثير الشعر الجديد أو شعر التفعيلة في القصيدة المغربيّة الحديثة من خلال عدة ملامح وجوانب وترسّم كثير من شعرائنا في المغرب خطى الرواد في مواطئهم الأولى).

ويرى د. المديني أن رابطة أدباء المغرب قد نظمت الندوة لأنه (ما من شك أن أحمد المجاطي علم فذ في هذه التجربة ونبراس لأكثر من جيل).

في باب الدراسات نقرأ : الرؤيا في شعر المجاطي لأحمد البيوري/ الفروسية في شعر أحمد البيوري - من نقع غبار الأرض الى نخوة أثيريّة اللغة لأحمد الطريسي/الفطرة والصنعة في موسيقى الفروسيّة لمحمد مفتاح/ فجيعة السقوط " القدس" لأحمد المجاطي بقلم فاطمة طحطح/ مقاربة لدلالات قصيدة "القدس" لأحمد المجاطي بقلم علي القرشي/ شعر المجاطي - قراءة نموذجيّة لادريس الناقوري / القصيدة القبرة - تأملات في بناء القصيدة المجاطية من خلال قصيدة " ملصقات على ظهر المهراز لأحمد بوزفور/ كتابة القصيدة " المثلى " لعبد الجليل ناظم/ أحمد المعداوي (يلقّب المجاطي بالمعداوي أيضا) وأزمة الشعر العربي الحديث لعبد العزيز وهب/ مدن الشاعر الموتور لادريس الملياني / التناص والرؤيا في شعر أحمد المجاطي لمحمد الديهاجي.

ونشير أن هذه الدراسات بأقلام باحثين جامعيين لهم حضورهم ودورهم وقد قرأوا تجربة المجاطي بعلميّة عالية.

أما الشهادات فهي أيضا لمبدعين وباحثين ممن عرفوه وزاملوه و تتجاوز الشهادة خصوصيتّهاو ذاتيتها الى الدراسة المتمعنة وتسجيل الراي وهي كالتالي ..

أحمد المجاطي رونق الشعر ونبل الموقف لابراهيم السولامي / أحمد المجاطي : كلمات الريح لمحمد الهرادي /في رفقة أحمد المجاطي الشاعر والإنسان لنجيب العوفي / من هو أحمد المجاطي لأحمد الطريبق/ قدم على السفح وأعين على القمة لمصطفى يعلى/ المعداوي (المجاطي) وإقامة الشعر لأحمد العلوي / قبر بلا زوار لمحمود عبد الغني .

هذا الكتاب وثيقة مهمة عن تجربة هذا الشاعر الفذّ الذي افتقده كل الذين عرفوه وتواصلوا معه وكاتب هذه السطور أحدهم وقد التقاه للمرة الأولى ببغداد في منتصف السبعينات ليكون اللقاء بداية صداقة طيبة .

جاء الكتاب في 230 صفحة من القطع الكبير - صدر في سلسلة " علّمه البيان " الكتاب السنوي لرابطة أدباء المغرب - العدد الثاني، وقد أعده للنشر وبوّبه وأشرف عليه كل من أحمد المديني وعبد الفتاح الحجمري - مطبعة المعارف الجديدة - الرباط سنة النشر 2004.

" حديث البلاد" لسالم المساهلي

صدر للشاعر سالم المساهلي ديوان جديد بعنوان " حديث البلاد" وهو ديوانه الثالث بعد (أشواق الخيل) 2001 و (ماذا لو يبوح النخل؟)2003.

والشاعر له نشاطات ثقافيّة جانبيّة عدا الشعر فقد ورد في التعريف به على الغلاف الأخير من ديوانه أنه (ساهم في التأليف المدرسي والإرشاد البيداغوجي بعدد من ولايات الجمهوريّة / ترأس اللجنة الثقافيّة الجهويّة بالكاف لسنوات/منتج برامج ثقافيّة بإذاعة الكاف).

يلاحظ أن ديوان المساهلي هذا تصدّرته مقدمتان لناقدين جامعيين معروفين هما : د. محمد القاضي و د. عبد العزيز شبيل.

يقول القاضي :(وهو - أي الشاعر- إذ ينتقل من مجموعة إلى أخرى لا يني يثبت أركان عالمه الشعري ويطور أدواته الفنيّة ويرتاد مجالات في القول بكرا مما يؤكد أن الشعر عنده ليس تزجية فراغ ولا لعبا بالكمات وإنما هو تجربة وجوديّة وموقف من الكون).

ويقول عنه أيضا :(فهو في نصوصه لا يفصل بين الذاتي والكوني وإنما هو يألم لألم غيره ويدين الجبروت والتعصب ويمجد المقاومة، حتى أنك لا تكاد ترى فيه بوصلة تتجه كل اتجاه وتتفاعل مع كل حدث وإلى ذلك فإن هذه النصوص وإن كانت تغص بصور الاحتلال والعدوان والموت والهزيمة والدمار ليست إلا صرخة لانتصار النهار)

وعنوان مقدمة د. القاضي هذه (الشاعر الشاهد.. الشاعر الرائي).

أما مقدمة د. شبيل فهي تحت عنوان (الشعر رسالة ومضمون).

يقول د. شبيل : (في هذا الجو العالمي المشحون بسحب الظلمة ونذر المخاوف يصرّ سالم المساهلي على أنه يشع بوهج الوطن، فيتغنّى بربوعه وينشد ملحمة أمجاده حاضرا وماضيا إلى حد أن الوطن استحال عشقه الأكبر الذي لا تخلو منه قصيدة حتى وإن صرخت في عروقه دماء العروبة وكاد يعصف به الحصار المتمرد على وضع صارت فيه مأساة الشعوب المطحونة مجرد صورة تلفزيّة عابرة لا تكاد تلوح على الشاشة حتى تغمرها مغريات العولمة وسلعها الفاتنة) ويقول أيضا : (قد تستبد بالشاعر حالات شجن نبيل مردها اليأس والتشاؤم لعمق الجرح وفداحة المصاب لكنه مع ذلك يستلهم من عشقه الجميل وحزنه النبيل غداً باسما يتحسس صباحه على شفاه المتنبّي ومحمود درويش وفي وجه محمد الدرة وإيمان حجو).

أمّا لجوء الشاعر إلى القصيدة العموديّة فيفسره د. شبيل بأنه لا يفعل ذلك (عجزا أو كسلا أو جهلا بل الأمر لديه اختيار واع مسؤول بدليل لجوئه أحيانا إلى الشعر الحر ذي التفعيلة كلما أحس بأن ذلك أحذق صنعة وأجمل تعبيرا وأعمق تصويرا وأبعد دلالة).

وبعد هاتين المقدمتين تأتي القصائد وأولاها (قصيدة بغداد) وقصائد أخرى منها (عرفات يترجل) و(أوجاع سومطرة) و (فحل المواعيد) التي يهديها (الى علي بن غذاهم رجلا حرا وإلى أبنائه المحتفين به) وهكذا.

جاء الديوان في 118 صفحة من القطع المتوسط - طبع على النفقة الخاصة للشاعر- مطبعة الزرلي - الكاف 2005.

اشتراك

ترحب إدارة تحرير مجلة الحياة الثقافية بكل من يرغب في الاشتراك فيها وتدعوه أن يعتمد هذا الأنموذج وملأه بغاية الدقة والوضوح ثم إرساله إلى عنوان المجلة مع نسخة من وسيلة الدفع.

مع الشكر على حسن تعاونكم

اشتراك

الاسم واللقب : ....

العنوان : ....

الترقيم البريدي : .... **الهاتف :** ....

الفاكس: ....

عدد نسخ الاشتراك : ....(اشتراك سنوي لعشرة أعداد : 20,000د
«عشرون دينارا تونسيا أو ما يعادلها»)

يتم ارسال الاشتراك بواسطة حوالة بريدية أو صك بنكي بالحساب الجاري للمجلة بالبريد رقم : 99–474 – اللجنة الثقافية الوطنية (الحياة الثقافية)

عنوان المجلة : اللجنة الثقافية الوطنية (الحياة الثقافية) 105 شارع الحرية – تونس 1002
الهاتف : 646 71890 – 152 71288 – الفاكس : 639 71792